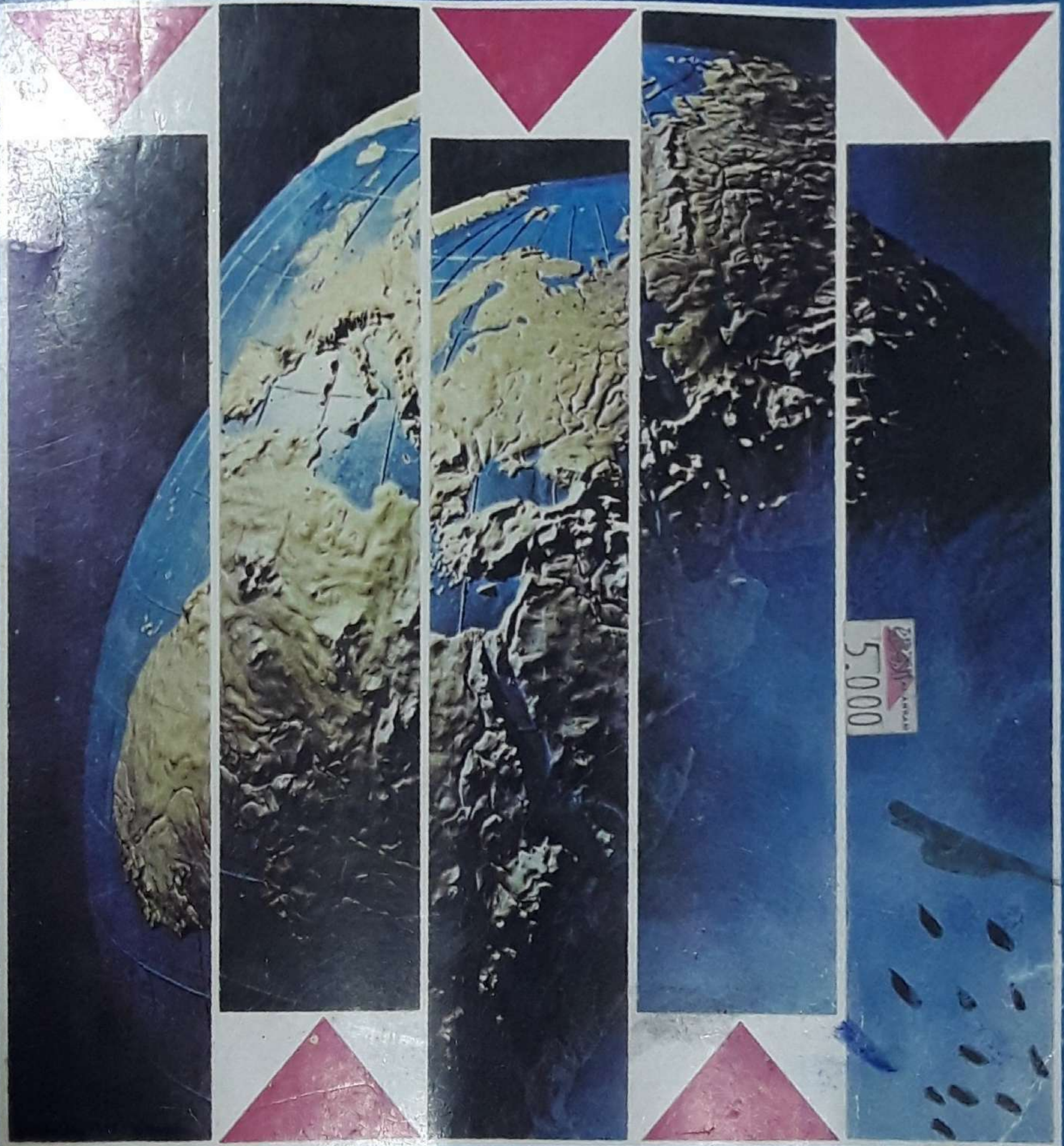
مختارات الحرية

تاليف : اوكتافيو باث

ترجمة : د. حامد ابو احمد

العدد ١

زمن الغيوم



مختارات الحرية

(١)

زمن الغيوم

TIEMPO NUBLADO

تأليف : أوكتافيو باث

ترجمة : د. حامد أبوأحمد

صدرت الطبعة الأسبانية من هذا الكتاب في سبتمبر ١٩٨٣ عن دار نشر SEIX BARRAL S.A في مدينة برشلونة بأسبانيا .

الطبعـــة الأولـــى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

.. هذه السلسلة الجديدة :

بين يديك - عزيزى القارىء - العدد الأول من سلسلة « مختارات الحرية » .

وإذا كنا - بهذه السلسلة الجديدة - نحاول قدر استطاعتنا أن نحرك المياه الراكدة فى بحيرة الترجمة ، فلأننا نؤمن أعمق الإيمان بالدور الذى يمكن أن تلعبه الترجمة فى حياتنا الثقافية المعاصرة .

إن ازدهار الحياة الثقافية لا يتحقق - كما يشهد التاريخ بذلك - إلّا بوجود حركة نشطة وواعية وجادة فى مجال الترجمة ، نفيد منها ونقف بها على الجديد من الفكر العالمى بكل توجهاته ومدارسه ومنطلقاته .

من أجل هذا كان قرارنا الذى اتخذناه بإصدار هذه السلسلة ، لعلنا نستطيع أن نسهم بها فى تحقيق هدفين :

□ **الأول** : أن نسد جزءاً من فراغ نستشعره فى المكتبة العربية ، بافتقادها الملموس إلى المؤلفات المترجمة .

□ **الثاني** : أن نتيح الفرصة أمام جيل جديد من المترجمين لاتزال طاقاته معطلة ومواهبه مدفونة .

وكما فاق استقبالك كل توقع - عزيزى القارىء - لسلسلة « كتاب الحرية » ، فإننا على ثقة من أن يكون ترحيبك بالمولود الجديد حافزاً جديداً لنا على استكمال أهدافنا التى من أجلها قامت « دار الحرية » كأول منبر فكرى مستقل فى مصر .

(دار الحرية)

شكر وتقدير

تتقدم دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر (ش . م . م) بعميق الشكر والتقدير إلى المركز الثقافى الإسبانى وسفارة إسبانيا بالقاهرة لتعاونهما فى إصدار هذه الطبعة العربيـة

مقدمـــة

المفكر المكسيكي أوكتافيو باث واحد من أبرز كتاب أمريكا اللاتينية في القرن العشرين ، وشهرته على المستوى العالمي تقرن بشهرة الأمريكي اللاتينى الآخر جابرييل جارثيا ماركيز ، الذى زادت شهرته في العالم العربى بالذات بعد حصوله على جائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٢ . وأوكتافيو باث مرشح قوى لهذه الجائزة منذ سنوات ، كما حصل على جوائز عالمية كثيرة من بينها « جائزة ميجيل دى سرفانتيس » أعظم جائزة تقدمها إسبانيا لكبار كتابها وشعرائها وكتاب وشعراء أمريكا اللاتينية .

وآخر جائزة حصل عليها هى جائزة السلام ، التى قدمها له مهرجان فرانكفورت العالمى خلال المعرض الدولى السادس والثلاثين للكتاب الذي أقيم فى هذه المدينة فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٨٤ واشتركت فيه ٩٢ دولة .

وقد منح الجائزة المذكورة لأنه أسهم فى تحقيق فكرة السلام فى بلاده من خلال أعماله الأدبية إذ أنه يقدم صورة واقعية للحياة السياسية والاجتماعية في المكسيك ويدافع عن الحرية والمساواة ، ويندد بالاستعمار والعنف .

وأوكتافيو باث متعدد الوجوه ، فهو شاعر مبرز ، وناقد حصيف واسع الأفق ، ومفكر كبير ، ومحلل سياسي واجتماعى نافذ النظر ، وصحفى بارع ، أى أنه كاتب موسوعى قلما نجد نظيراً له في النصف الثانى من القرن العشرين الذى طغت فيه موجة التخصص . وهو كاتب يضرب بجذوره فى الأرض ، ويشارك الناس آمالهم وآلامهم ، ويستبطن واقعهم ومايعتمل فيه من أصول ورواسب وتيارات من الماضى والحاضر ، تجعل لهذا الواقع طابعا خاصا يتميزون به عمن سواهم ، ويكونون فيه نسيج وحدتهم وصنيع تفردهم .

ولد هذا الكاتب في المكسيك عام ١٩١٤ . ودرس فى الجامعة الوطنية بالعاصمة (المكسيك) حيث جمع بين عدة دراسات مختلفة أهلته فيما بعد للعمل فى السلك الدبلوماسى ، فخدم فى سفارات المكسيك بالخارج ووصل إلى رتبة قائم

بالأعمال فى اليابان ، ثم أصبح سفيراً لبلاده فى فرنسا ثم الهند . وقد استقال من منصبه كسفير في الهند عام ١٩٦٨ احتجاجا على قمع السلطات المكسيكية للحركة الطلابية المنادية بالحريات ، وهو ماسمى بـ « مجزرة ميدان تاتيلولكو » . وكان لعمله هذا صدى واسع النطاق في أوساط المثقفين بالمكسيك الذين كانوا في معظمهم ينتهجون الخط اليسارى .

وقد بدأ أوكتافيو باث حياته الأدبية حوالى عام ١٩٣٠ بنشر أشعاره الأولى في بعض المجلات الأدبية التي كانت تصدر بالمكسيك .وله منذ ذلك الحين حضور واضح ومستمر في الساحة الأدبية هناك . وقد شارك في الحركة السريالية عندما ذهب إلى باريس في نهاية عام ١٩٤٥ بدعوة من رائد الحركة أندريه بريتون ، وأقام هناك فترة .

ولهذا الشاعر ـ أعني أوكتافيو باث ـ جملة أخذها الناس عنه ووجدوا متعة في ترديدها وهي قوله « إن شعبا بلا شعر هو شعب بلا روح ، وأمة بلا نقد هي أمة عمياء » . وله جملة أخرى تنحو هذا النحو هي قوله « خلف اللغة يكمن الإنسان » . وهاتان الجملتان تحددان بصفة عامة اتجاه هذا الشاعر الكبير ، وحرصه على تطوير الشعر وتطوير اللغة بما يتلاءم مع روح الإنسان ، وتطلعه نحو مستقبل أفضل .

وهو في مهمته الكبيرة هذه يحاول الإفادة من كل التيارات العالمية ، فهو القائل : « إني أحس بأني مرتبط بالشعراء الفرنسيين مثل بودلير وملارميه وأبوللينير ، ولكني أراني أقرب إلى الشعر الإسباني ، وبالأخص الشاعرين كيفيدو Quevedo وجونجورا Gongora من العصر الكلاسيكي ، ومن جيل ١٩٢٧ في عصرنا الحاضر ، بالإضافة إلى خوان رامون خمينيث وأنطونيو ماتشادو » .

وبالفعل فقد قرأ أوكتافيو باث بنهم الشعراء البرناسيين والرمزيين الفرنسيين ، مثل بودلير ورامبو ومالارميه وبول فيرلين وسواهم ، كما قرأ للسيرياليين وتأثر بهم ، وكتب عنهم مؤلفا من خير ماكتب عن الحركة السيريالية . كما أنه قرأ لشعراء

الإسبان الكبار ، القدامى والمحدثين ، وبالأخص في الحركات المعاصرة التي جعلت من القرن العشرين العصر الذهبي الثاني في الشعر الإسباني بعد العصر الذهبي الأول (أي القرنين السادس عشر والسابع عشر) . وقد أشار أوكتافيو باث في بعض أحاديثه إلى أن الشعر الإسباني كان المنبع الذي استقى منه أعماله ، بدءا من شعراء العصر الوسيط حتى شعراء جيله مثل جارثيا لوركا ورفائيل ألبرتي وميجيل إرنانديث . ومن ثم فإننا يمكن أن نرجع مصادره الشعرية إلى حركة « الباروك » الإسبانية الكلاسيكية ، وإلى الحركات الرمزية والسيريالية والوجودية في العصر الحديث . وباختصار فإن إنتاجه الشعري موسوم بالاتجاهات الأسلوبية المختلفة التي احتك بها عن قرب وكان له أيضا دور فيها .

وأوكتافيو باث من الشعراء الذين يستحقون صفة « الشاعر المفكر » ولذلك فإن كثيرا من النقاد يقرنونه عادة بالفيلسوف الإسباني المعاصر ، خوسيه أورتيجا إي جاسيت (١٨٨٣ – ١٩٥٥ م) كما سوف نرى فيما بعد .

ومن ثم فإن أشعاره ودراساته النقدية والنثرية عامة تمنحه صفة المفكر ، وليس الشاعر أو الأديب فقط ، فهو في مجال الشعر قد استطاع أن يمزج بين الاتجاهات المختلفة ، لغوية كانت أم أسلوبية ، ويخرج بإنتاج متطور يجعله جديرا بصفة الشاعر الكبير ، أما دراساته عن الشعر المعاصر فتشكل منهجا نقديا له تأثير بالغ المدى على اللغة الإسبانية في العصر الحديث ، وأفكاره عن عالم اليوم تعد من الأفكار الأصلية القوية .

إنه مفكر أصيل ، وناقد ممتاز للثقافة الأوروبية والأمريكية ، وحتى للثقافة الشرقية ، لأنه مثل معظم كتاب أمريكا اللاتينية المبرزين كخورخي لويس بورخيس صاحب كتاب « الألف » يجد نفسه مدفوعا لدراسة الحضارات الشرقية . وهو كاتب مالك تماما لزمام الكلمة والتعبير ، وتركيباته الشعرية تبلغ درجة كبيرة من الإتقان حتى في الشعر الحر ، فضلا عن حسه المرهف ونزعته الإنسانية ، وكل هذا جعل منه كاتبا عالميا .

أعمـــالــه :

تنقسم أعماله إلى ثلاثة فروع رئيسية هي الشعر والمقال الإنساني والنقد الأدبي .

وهو بعد من الشعراء غزيري الإنتاج ، فقد أصدر حوالي خمسة وعشرين ديوانا شعريا من بينها « القمر البري » (١٩٣٣) ، و « جذور الإنسان » (١٩٣٧) ، و « تحت ظلك الأبيض » و « قصائد أخرى عن إسبانيا » (١٩٣٧) ، و « على شاطىء العالم » و « اليوم الأول » (١٩٤٢) ، و « ليلة البعث » (١٩٤٢) ، و « حرية تحت الكلمة » (١٩٤٩) ، و « حجر الشمس » (١٩٥١) ، و « بذور من أجل نشيد » (١٩٥٤) ، و « بين الصخرة والزهرة » (١٩٥٦) . وهذه الدواوين جمعت كلها في كتاب واحد نشر عام ١٩٥٨ تحت عنوان « حرية تحت الكلمة » . ثم توالت بعد ذلك دواوينه الأخرى مثل « المحطة البنفسجية » (١٩٥٨) ، و « الماء والريح » (١٩٥٩) و « الريح الكاملة » (١٩٦٥) ، و « الأبيض » (١٩٦٧) ، وهكذا بمعدل ديوان كل عام تقريبا إلى أن نشر ديوان « قصائد » عام ١٩٧٥ ثم ديوان « العودة » عام ١٩٧٦ .

وموضوعاته الشعرية ، حسبما يقول هو نفسه ، هي كل موضوعات الشعر منذ أن وجد الشعر مثل الميلاد والموت والحب والزمن والطبيعة .. الخ وهو يوظف الأسطورة كثيرا في التعبير الشعري ، ويستخدم في كثير من الأحيان أساطير شرقية ، وبالأخص من منطقتي سوريا ووادي الرافدين . ونظرا لأهمية الأسطورة في شعره خصص بعض النقاد دراسات كاملة عن هذا الموضوع .

أما أعماله النثرية فتربو أيضا على الخمسة والعشرين كتابا ، من أهمها : « متاهة الوحدة » (١٩٥٠) ، و « القوس والقيثارة » (١٩٥٦) ، و « لآلىء الدردار » (١٩٥٧) و « الأشياء في مكانها : عن الأدب الإسباني في القرن العشرين » (١٩٧١) و « البحث عن البداية » (١٩٧٤) ، و « من الرومانتيكية إلى الطبيعية » (١٩٧٤) .. إلخ ، فضلا عن الكتب ذات الطابع النقدي الفكري السياسي الاجتماعي ، مثل الكتاب الذي نقدمه الآن للقارىء العربي « زمن الغيوم » .

وإذا تصفحنا ماكتبه نثرا فسوف تدهشنا غزارة الإنتاج وتنوعه وعمقه وأصالته . ولأوكتافيو باث عملان مسرحيان ، كما كتب مقالات متعددة حول موضوعات مختلفة . وقد ترجم له ٢٩ عملا إلى الفرنسية و٢٦ عملا إلى الانجليزية ، فضلا عن لغات أخرى ، وكتبت عنه أكثر من عشرين أطروحة دكتوراه . وحسب علمنا ، لم يترجم له أي شيء حتى الآن إلى اللغة العربية ، اللهم إلا هذا الكتاب الذي بين يدي القارىء ، وهو نقص كبير نرجو أن تتاح الفرصة لدارسى الآداب الإسبانية لسده في المستقبل ، نظرا لأن كتاب أمريكا اللاتينية هم أقرب الكتاب إلينا ، وقد أصبحوا حاليا من أبرز كتاب العالم وأكثرهم أصالة وشهرة . كما أنهم أصّلوا في مجالات الأدب المختلفة اتجاهات في غاية الأهمية استطاعت أن تفرض نفسها على الساحة العالمية . ولا يصدر أي عمل لخورخي لويس بورخيس أو أوكتافيو باث أو أليخو كاربنتر أو جابرييل جارثيا ماركيز إلا كانت له أصداء واسعة في القارة الأوروبية .

والمثقفون الإسبان يعدون أوكتافيو باث أكبر شاعر مكسيكي في القرن العشرين ، وأحد العالميين الكبار في الآداب المكتوبة باللغة الإسبانية ، والكاتب الذي قدم للغة الإسبان أكثر الأعمال شمولا وأهمية وعمقا بعد الفيلسوف خوسيه أورتيجا إي جاسيت . ويكفي أن نذكر رأي بعض الأدباء الكبار فيه للتدليل على ذلك : قال الشاعر الكبير خورخي جيان بعد أن علم بفوز باث بجائزة ميجيل دي سرفانتيس لعام ١٩٨١ : « لقد أسعدني جدا هذا الخبر . إننا صديقان حميمان منذ وقت طويل . إن أوكتافيو باث شاعر كبير وناقد كبير وإنسان كبير » .

وقال الشاعر الناقد كارلوس بوسونيو : « إنني أقدر في أوكتافيو باث مواهبه كناثر . إنه ناثر غير عادي ، يتناول معطيات الثقافة بمهارة فائقة ليكوّن منها فكرا غنيا أصيلا . ونثره بالإضافة إلى ذلك ذاتي جدا ، ويتميز بالكمال الشكلي . وهو شاعر كبير يعجبني فيه بصفة خاصة قدرته على التطور ، وتآلفه مع الحركات العالمية الكبرى » . وقال الشاعر جابرييل ثيلايا : « إنني من أشد المعجبين بأوكتافيو باث . إنه أحد اثنين أو ثلاثة شعراء كبار في اللغة الإسبانية ، ومثلما له أهمية عظمى كناثر فإن له أيضا أهمية عظمى كشاعر » .

بين أوكتافيو باث وأورتيجا إي جاسيت :

كما ذكرنا من قبل فإن كثيرا من النقاد يقارنون بين أوكتافيو باث وخوسيه أورتيجا إي جاسيت ، حتى أن بعضهم يطلق على الأول جاسيت أمريكا اللاتينية .

ومعروف أن أورتيجا يعد أكبر ناثر فيلسوف إسباني في النصف الأول من القرن العشرين ، وهو صاحب نظرية « الإنسان في الظروف » ، وصاحب المؤلفات العديدة في جميع مجالات الثقافة الإسبانية والأوروبية . ولكن إلى أي مدى يمكن المقارنة بين الاثنين ؟ كلاهما بالطبع قمة من قمم الثقافة الإسبانية والأمريكية اللاتينية في العصر الحديث ، وأفكار كل منهما تتميز بالشمول والدقة والعمق ، والفكر النقدي لدى كل منهما واضح وأصيل ، ولكن ثمة فارقا مهما هو أن أورتيجا في المقام الأول مفكر وباث في المقام الأول شاعر . والشعر والفكر يتلاقيان في كثير من الأحيان خاصة عند الشعراء الكبار والمفكرين الكبار ولكن لكل منهما منحاه ، ولكل منهما انطلاقاته الخاصة . فالأساس عند أورتيجا هو الأفكار أو التحليل الفلسفي ، وحتى عندما يكتب عن الأدب يتناوله من وجهة النظر الفلسفية ، بينما الأساس عند أوكتافيو باث هو المضمون الشعري النقدي أو النقدي الشعري ، وهو عندما يكتب مقالا تجد خلفيته كامنة في الجوهر الشعري للموضوع .

وقد درس الاثنان بعمق فيلسوف الوجودية الأكبر مارتن هيدجر ، ولكن دراسة كل منهما كان لها منحى مختلف : فأورتيجا كان يدرسه كأستاذ يستقي منه مايفيد في بناء نظرياته الفلسفية ، أما أوكتافيو باث فقد درسه كإنسان تقلقه مفاهيم الوجودية والعدم والكينونة ، وهي أمور تثري الفعل الشعري وتزيده عمقا وأصالة .

وفي مؤلفات أورتيجا يوجد منهج فلسفي ، حتى وإن كانت بعض التعبيرات محملة بالمجازات والاستعارات ، أما في مؤلفات أوكتافيو باث فالكلمة سائدة على الفكر والمجاز يظل دائما فوق أي محاولة منهجية تستهدف اكتشاف فكرة ما . كما أن أورتيجا كان مفكرا خالصا أما باث فهو شاعر بالدرجة الأولى .

وهكذا يمكن أن نجد بين الاثنين نقاط اتفاق ونقاط اختلاف ، ولكن يجمع بينهما ، على أية حال ، خيط مشترك هو أن كلا منهما مفكر كبير ، وإن كان أحدهما يعبر عن فكره بالمنهج الفلسفي والآخر يعبر عنه بالكلمة الفنية الشاعرة .

وبحسب أوكتافيو باث أن يعد من كبار الشعراء ومن كبار الكتاب والمفكرين في الوقت نفسه ، وهو شرف يضاف لأمريكا اللاتينية ودول العالم الثالث أيضا ، لأنها جميعا مازالت تتلمس الطريق نحو استعادة حريتها الكاملة واستقلالها التام ، وتكافح من أجل كسر القيود التي تحاول أن تكبلها بها الإمبريالية العالمية فالاستعمار الحديث بصوره الجديدة وأشكاله المتغيرة .

هذا الكتاب :

صدرت الطبعة الأولى من كتاب « زمن الغيوم » في سبتمبر عام ١٩٨٣ عن دار نشر سيس بارال« Seix Barral S.A » في مدينة برشلونة بإسبانيا . والكتاب - كما نوه مؤلفه في « التنبيه » - مجموعة من المقالات نشرت في بعض الصحف في إسبانيا والبرازيل وأمريكا اللاتينية خلال الشهور الأولى من عام ١٩٨٠ . وقد قسمت هذه المقالات إلى جزئين : الجزء الأول مكون من خمس مقالات تأتي تحت عنوان رئيسي هو « زمن الغيوم » ، أما الجزء الثاني فعنوانه « الأيام الجارية » ويتكون من ثلاث مقالات .

ولعل أهم مايميز هذا الكتاب هو أن كاتبه المفكر الشاعر المكسيكي أوكتافيو باث ينطلق في تحليلاته الفكرية والاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية لأوضاع العالم المعاصر من وجهة نظر مستقلة تماما . ولذلك نجده في الفصل الأول الذي يتناول مشكلة « الإرهاب » في الغرب يتحدث مثلا عن المكاسب المادية والسياسية التي حققها الأمريكيون والأوروبيون واليابانيون بعد الحرب العالمية الثانية لكنه يعقب على ذلك بقوله : « لكن هذه المكاسب المادية والسياسية العظيمة لم تصحبها حكمة عالية ولا ثقافة أكثر عمقا . إن المنظور الروحي للغرب يدعو إلى الأسى : إن السائد الآن هو الابتذال ، والسطحية ، وانبعاث الخرافات ، وانحطاط العنصر الشهوانى ،

والتلذذ في خدمة التجارة ، والحرية التي أصبحت قوادة لوسائل الإعلام . ومع ذلك فإن الإرهاب ليس نقدا لهذا الوضع ، وإنما هو أحد أعراضه . فإزاء نشاط المجتمع الذي يمضي شبه نائم ، وهو يدور آليا حول إنتاج الأشياء بصورة لا تنقطع نجد الإرهاب يعرض نوعا من الحبل لا يقل سكونا وإن كان أكثر هدما » .

وفي الفصل الثاني يدور الحديث حول حالة التدهور التي بدأت تظهر في أكبر قوة عالمية وهي الولايات المتحدة الأمريكية ، وكيف أن هذا التدهور يمكن أن يمحهم الشرعية التي افتقدوها في تاريخهم ، والتي ظلوا يبحثون عنها دائما . ويركز الكاتب على التناقضات الشديدة الموجودة في المجتمع الأمريكي ، ويدين التلذذية التي غدت السمة الرئيسية لهذا المجتمع ، وكيف طغت عبادة المستقبل على حياة الأمريكيين وتوجهاتهم ، كما يتحدث أوكتافيو باث عن دور المثقفين الأمريكيين الباهت في سياسة بلادهم ، وعن أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تفتقر إلى القوة أبدا وإنما افتقرت إلى الحكمة ، فثمة هوة ملحوظة بين قوتها وسياستها الخارجية ، وبين فضائلها الداخلية الممثلة في الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان وتصرفاتها الدولية التي تبلغ حد الحماقة في كثير من الأحيان مما يشوه صورتها في الخارج .

ويتساءل أوكتافيو باث : لماذا نجد قلة ذكاء صارخة لدى ساسة هذه الديموقراطية التي لم تتوقف في يوم من الأيام عن إظهار خصوبتها في مجالات العلوم والتقنية والفنون ؟ وبالطبع فإنه يحاول البحث عن إجابات شافية لهذا التساؤل . ويختم كاتبنا هذا الفصل بقوله : « إن صورة الولايات المتحدة لا تدعو للاطمئنان . فالبلد مفكك ، وتمزقه مناقشات جدلية تنأى عن العظمة ، والشك ينخر في عظامه ، كما أنه غارق في تلذذية انتحارية ، وفاقد الوعي من كثرة صيحات الديماجوجيين . إنه مجتمع منقسم أفقيا أكثر منه رأسيا بفعل التصادم بين المصالح الأنانية الهائلة مثل الشركات الكبرى والنقابات والمزارعين وأصحاب المصارف والمجموعات العنصرية والصناعة الإعلامية القوية .. إلخ » .

أما الفصل الثالث عن الاتحاد السوفييتي ، فيبدأ بتلمس بدايات حركة النقد

الموجه إلى النظام السوفيتي ابتداء من لينين نفسه إلى تروتسكي ثم يقوم بتحليل فكري نافذ للنظام الإيديولوجي الروسي ، ثم يتحدث عن التناقضات الموجودة في هذا النظام ، ومتى بدأت تظهر كتابات جماعة المنشقين ، ويتكلم باث عن علاقة الأمريكيين بالدول التابعة لهم وهو مايطلق عليه مصطلح « الهيمنة » **Hegemonia** وعلاقة الروس بالدول الدائرة في فلكهم وهي مختلفة تماما عن أسلوب الهيمنة .

ويتطرق الكاتب إلى الغزو السوفيتي لأفغانستان فيبحث في جذور هذه المشكلة ، وينتهي إلى نتيجة هي « أن التدخل الروسي في أفغانستان مثال جديد لوضع معروف جيدا ، وهو أن الدولة السوفيتية تتبع ، في خطوطها العامة ، نفس السياسة الخارجية للنظام القيصري . إنها سياسة تمليها ، كالعادة ، دوافع الجغرافيا ، وهي أم التاريخ ، كما تستجيب أيضا لتراث إمبريالي توسعي وفي الماضي كانت الإيديولوجية التي تغذت عليها هذه النزعة التوسعية هي فكرة الوحدة السلافية ، أما اليوم فالإيديولوجية هي الماركسية ــ اللينينية . وهذا التغيير في الإيديولوجية يتوافق مع تغيير آخر مادي وتاريخي ، ذلك أن روسيا قد تحولت من قوة أوروبية إلى قوة عالمية » .

ويأتي الفصل الرابع تحت عنوان « التمرد والبعث » . ويطبق أوكتافيو باث نظرته النافذة المحللة على الأوضاع التي جعلت العالم الثالث يدور في حلقة مفرغة من التخلف والاستبداد والفقر . ولعل أهم هذه الأسباب هي أن حركة التحرر من الاستعمار التي تمت في أوائل الخمسينات من هذا القرن كانت انتصارا كبيرا للحرية الإنسانية ، لكن الذي حدث ، للأسف الشديد هو أن كثيرا من الأمم التي حصلت على استقلالها وقعت في قبضة حكام ظالمين مستبدين بنوا شهرتهم على غرابة الأطوار والقسوة أكثر منها على عبقريتهم بصفتهم حكاما .

إن غروب العهد الاستعماري لم يكن فجرا للديموقراطية كما أنه لم يكن أيضا بداية للرخاء . وثمة سبب آخر هو أن بلاد آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ــ أو ما يطلق عليها خطأ في رأيه بلاد العالم الثالث ــ قد أصبحت ساحة للمعارك والصراعات بين القوتين العظميين . وكل حروب الفترة الأخيرة ، بعد الحرب

العالمية الثانية ، نشبت في الدول المرتبطة بالمعسكرين ، ونلاحظ فيها جميعا اختلاط عناصر ثلاثة هي : مصالح القوتين العظميين ، والصراعات بين دول المنطقة ، والصراعات الداخلية . وبهذا يتكرر النموذج التقليدي الذي عرف على امتداد التاريخ البشري كله ، ذلك أن الغازي يستغل دائما الصراعات بين الدول والانقسامات الداخلية .

وبالنسبة للمشكلة العربية ـ الإسرائيلية يقول أوكتافيو باث : « فيما يتعلق بالصراع بين إسرائيل والدول العربية نجد العناصر نفسها ، (بالرغم من أن الخيوط التاريخية هنا أكثر تعقيداً وتشابكاً . وهذه العناصر هي مصالح القوى الكبرى وطموحاتها ، والصراعات بين دول المنطقة ، وهو وضع شديد التعقيد نظرا لأن الجانب العربي لا يوجد به اتجاه واحد أو اثنان ، وإنما هناك عدة اتجاهات ، فضلا عن الانقسامات الداخلية في كل واحدة من هذه البلاد مثل اليهود والفلسطينيين في إسرائيل ، والمسيحيين والمسلمين في لبنان ، والبدو والفلسطينيين في الأردن ، والشيعة والسنة في بلاد أخرى ، بالإضافة إلى الأقليات العنصرية والدينية مثل الأكراد » .

ونحن بالطبع لا نتفق مع بعض تحليلات أوكتافيو باث للمشكلة الفلسطينية ، لأن آراءه في هذا الصدد تأتي أقرب إلى الحلم منها إلى الواقع ، إذ أنه يميل إلى المصالحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين وتكاد تحليلاته تنطلق من العبارة التالية : « خلال الحرب العالمية الثانية كتب أندريه بريتون يقول (إن العالم يدين بتعويض للشعب اليهودي) ، ومنذ أن قرأت هذه العبارة ـ هكذا يقول أوكتافيو باث ـ آمنت بها ـ ولكني بعد ذلك بأربعين عاما أقول : إن إسرائيل تدين بتعويض للفلسطينيين » .

وعلى أية حال فإن أوكتافيو باث بتحليله هذا يقف في صف أكثر المفكرين الغربيين اعتدالا وتفهما للحق الفلسطيني ، إنه يطالب بوطن للشعب الفلسطيني بجوار إسرائيل ، ويطلب من اليهود ألا يتحولوا إلى جزارين مع شعب آخر يعاني حاليا من مثل ماعانوا هم أنفسهم منه في الماضي على يد هتلر وأتباعه . أليس هذا هو ماتطالب به معظم الدول العربية حاليا ، بل والقادة الفلسطينيون أنفسهم ؟ .

إذن فعلى الرغم من أننا نختلف مع باث في موقفه هذا ـ لأننا نؤمن بأن الكفاح هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة الحق ـ إلا أننا يجب ألَّا نطلب منه أن يكون عربياً أكثر من العرب أنفسهم .

ويخصص أوكتافيو باث جزءا كبيرا من هذا الفصل لبحث الأوضاع في إيران ، ويقدم نبذة عن عقائد الشيعة وتاريخهم ، وعن الخلاف بين حكام إيران وبين الولايات المتحدة الأمريكية والذي تجسد بشكل خاص في حادث الاستيلاء على السفارة الأمريكية بعد قليل من قيام الثورة الإيرانية بقيادة آية الله الخميني .

والفصل الخامس « تحولات » بحث حول الحضارات التي بعثت من جديد ، وكانت تبدو متجمدة مثل اليابان والصين والهند وإيران والعالم العربي . وهذه البلاد تواجه مشكلة الحداثة ، حيث استطاعت بعضها مثل اليابان أن تصل إلى حلول شافية لها ، بينما تعثر البعض الآخر في إيجاد الحل كما هو حادث الآن في إيران والعالم العربي . وهذا الفصل دراسة متعمقة لأوضاع اليابان والهند وإيران ، والأصول الفكرية والأنثروبولوجية والحضارية لهذه البلاد ، كما يتحدث الكاتب باستفاضة عن الصين . ثم ينتقل إلى تناول الأوضاع في بلاده « أمريكا اللاتينية » ، ومن الفقرات التي استوقفتني هذه الفقرة التي تقول : « في بلادنا يتعايش الحمار والطائرة ، والأميون وشعراء الطليعة والأكواخ ومصانع الصلب . وكل هذه التناقضات تنتهي إلى تناقض واحد هو أن مؤسساتنا ديموقراطية .. لكن الواقع الفعلي المستشري في كل مكان هو الدكتاتورية . إن واقعنا السياسي يلخص الحداثة المتناقضة لأمريكا اللاتينية » . أليس هذا هو مايحدث الآن في بعض بلاد العالم العربي الأكثر نزوعا إلى الديموقراطية ؟ .

إن بلاد أمريكا اللاتينية تعاني من نفس المشاكل التي تعاني منها بقية دول العالم الثالث مثل الاعتماد الاقتصادي والسياسي والثقافي على الخارج ، والمظالم الاجتماعية الأثيمة ، والفقر المدقع بجوار الثروة والتبذير ، وغياب الحريات العامة ، والقمع ، والحكم العسكري ، وعدم استقرار المؤسسات ، والفوضى ، والديماجوجية ، والفساد ، وتخلف المواقف الأخلاقية ، وسيطرة جنس الذكور ، والتأخر في العلوم وفي التكنولوجيا ، وعدم التسامح في مجال الآراء والمعتقدات والعادات .

ويأتي الجزء الثاني من الكتاب « الأيام الجارية » فيركز أكثر على دراسة الأوضاع في أمريكا اللاتينية ، وبخاصة بلده « المكسيك » ، حيث يعقد مقارنة قيمة بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، وكيف أصبحت الأخيرة قوة عالمية ضاربة

بينما مازالت المكسيك تنسب إلى العالم الثالث وتعاني من مشكلات أكبر وأفدح مما تعانيه باقي بلدان هذا العالم .

فالكتاب الذي بين أيدينا إذن كتاب مستقل صادر عن كاتب مستقل . ولعل الانحياز الوحيد في الكتاب هو الانحياز إلى الحرية والديموقراطية ونظرا لأن هذه الصفة مرتبطة أكثر بالعالم الغربي الذي يطلق على نفسه اسم « العالم الحر » فربما يتوهم القارىء أن أوكتافيو باث ينحاز إلى جانب المعسكر الغربي ، ولذلك يحذرنا هو نفسه من هذا الفهم الخاطىء في الفصل الثالث من الجزء الأول فيقول : « إن ما أقوم به الآن ليس محاولة للدفاع عن الرأسمالية أو عن الإمبريالية ، وإنما هو دفاع عن بعض الأشكال السياسية التي تقوم على الحرية والديموقراطية ، والتي مازالت موجودة حتى الآن في الغرب . كما توجد بعض بذور الحرية ، بالرغم من العقبات التي لا تحصى ، في بعض بلاد أخرى من آسيا وأمريكا اللاتينية مثل الهند وسيلان ، وفنزويلا ، وكوستاريكا ، وبيرو ، وكولومبيا ، وبلاد أخرى قليلة . وكانت بلبنان ديموقراطية ، فهل ستعود إليها في يوم ما ؟ » .

ولا نود أن نختم هذا التقديم قبل أن ننوه بموقف أوكتافيو باث من الإسلام وسماحته : فبالرغم من أنه يحمل الكنيسة وزر تخلف إسبانيا (وبالتالي أمريكا اللاتينية) عن اللحاق بالتقدم الأوروبي في العصر الحديث ، فإنه عندما يأتي الحديث عن الإسلام يشيد بتسامحه وبحضارته . يقول في الفصل الثاني من الجزء الثاني : « لقد ظل الإسبان والبرتغاليون ــ على عكس منافسيهم من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ــ تحت سيطرة الإسلام لعدة قرون . لكن الحديث عن السيطرة فيه خداع ، لأن ازدهار الحضارة الإسبانية ــ العربية مازال يصيبنا بالدهشة حتى الآن ، وتلك القرون من المعارك كانت أيضا قرونا من التعايش الحميم ، فحتى القرن السادس عشر كان المسلمون واليهود والمسيحيون يتعايشون في شبه الجزيرة الأيبيرية .ومن المستحيل أن نفهم تاريخ إسبانيا وتاريخ البرتغال ، فضلا عن الطابع الفريد بحق لثقافتهما إذا تجاهلنا هذا الوضع » . ويقول بعد ذلك بسطور قليلة عند الحديث عن ملوك إسبانيا في القرن السادس عشر بعد استيلاء

المسيحيين على آخر معاقل العرب في الأندلس وهي غرناطة : « كان العاهل الإسباني هجينا من تيودوسيو العظيم وعبدالرحمن الثالث (الناصر) أول خليفة في قرطبة ، وللأسف فإن الملوك الإسبان جنحوا لتقليد المذهب السياسي للأول أكثر من جنوحهم لتسامح الثاني » . وبالفعل كان الجنوح لمذهب تيودوسيو العظيم يمثل كارثة في تاريخ إسبانيا لأنه فتح الباب لما سمي بمحاكم التفتيش أو التحقيق .

إن هذا الكتاب إذن أنشودة على طريق الحرية والديموقراطية والحب والتسامح والإخاء والمساواة بين البشر .

د. حامد أبوأحمد

تنبيـــــه

قررت بعد تردد أن أجمع في هذا الكتاب سلسلة من المقالات حول الماضي القريب « زمن الغيوم » ، قمت بنشرها في بعض الصحف اليومية التي تصدر في إسبانيا والبرازيل وأمريكا اللاتينية خلال الشهور الأولى من عام ١٩٨٠ . وقد حذفت منها صفحات كثيرة ، بسبب ارتباط بعضها ارتباطا كبيرا بظروف معينة ، ولأن بعضها الآخر قد تجاوزته الأحداث ، بحيث لم يعد ثمة مبرر للحديث عنه . كما أني قمت بتعديل وتهذيب بعض الفقرات . وبالرغم من كل هذه التعديلات فإني مازلت أحس بمحدودية هذا العمل وحاجته إلى الكمال .

وأنا لست مؤرخا ، فعاطفتي تتجه نحو الشعر واهتماماتي أدبية . وهذه أو تلك لا يمكن أن تعطيني تفويضا لإبداء الرأي حول اهتزازات عصرنا واضطراباته . ومع ذلك فإني لست بمنأى عما يحدث . ومن الذي يمكنه أن يبتعد عن الأحداث ؟ .

لقد كتبت مقالات وأبحاثا حول الأوضاع الراهنة ، وإن كانت دائما من وجهة نظر لا أدري هل أصفها باللامركزية أو على نحو أبسط بالهامشية . وفي كل الأحوال فإني لا أنطلق من تأكيدات إيديولوجية ذات توجهات موسوعية مثل الماركسية أو من حقائق لا تتغير لأديان مثل المسيحية أو الإسلام .

كما أني لا أنطلق من المركز الحقيقي أو المظنون للتاريخ مثل نيويورك أو موسكو أو بكين . ولست أدري هل هذه الشروح تشتمل على تفسيرات صالحة أو على افتراضات معقولة ، كل ما أعرفه أنها تعبر عن ردود فعل وأحاسيس كاتب مستقل من أمريكا اللاتينية إزاء العالم الحديث . إنها إن لم تكن نظرية فستكون شهادة .

وعلى طريقة قدماء الأمريكان (المايا) الذين كانت لديهم طريقتان لقياس الزمن هما « الحساب القصير » و« الحساب الطويل » ، فإن المؤرخين الفرنسيين قد أدخلوا طريقة التمييز بين الأمدين « الطويل » و « القصير » في العمليات التاريخية . والأولى منهما تختص بالإيقاعات الكبيرة التي تُحدث تغييرات في البِنى القديمة ، وتبتدع أخرى عن طريق إدخال تعديلات لا تدرك في البداية وبذلك تتم التحولات

الاجتماعية البطيئة التي لا مناص من حدوثها . ومن أمثلة ذلك زيادة أو نقص عدد السكان ، وهو أمر لم يفسر تفسيرا كاملا حتى الآن ، وتطور العلوم والتقنيات ، وإيجاد موارد طبيعية جديدة أو نضوبها تدريجيا ، وتآكل المؤسسات الاجتماعية ، والتحولات التي تحدث في الأذهان والمشاعر .. أما « الأمد القصير » فيتمثل في سيطرة الحدث سيطرة كاملة ، مثل الامبراطوريات التي تهوي ، والدول التي تولد ، والثورات ، والحروب ، والرؤساء الذين يتنازلون ، والدكتاتوريين الذين يُقتلون ، والأنبياء الذين يُصلبون (بالضم) والأولياء الذين يَصلبون (بالفتح) الخ .

وعادة مايقارن التاريخ بقطعة من النسيج ، وهي من عمل أيد كثيرة . وبالرغم من أنها ليس بينها تعارف ، ومن أنها لا تعرف بالتحديد ماذا تفعل ، فإنها تخلط بين خيوط من جميع الألوان حتى يظهر على النسيج تتابع أشكال كانت في زمن ما مألوفة وملغزة . ومن وجهة نظر « الأمد القصير » فإن هذه الأشكال لا تتكرر ، لأن التاريخ عبارة عن إبداع لا ينقطع ، وتجديد مستمر ، وهو مملكة الأوحد والمتفرد . ومن وجهة نظر « الأمد الطويل » فإن التكرار أمر وارد ، وكذلك الانقطاع ، والبدء من جديد : إنها الإيقاعات . وكلتا النظريتين صحيحتان .

إن معظم التغييرات التي شهدناها تنسب ، كما هو واضح ، إلى « الأمد القصير » ، ولكن أكثرها دلالة تتصل بشكل مباشر أو غير مباشر بـ « الأمد الطويل » . وفي السنوات العشر الأخيرة نجد أن الإيقاعات التاريخية ، التي تعمل منذ أكثر من قرنين ، قد أصبحت أخيرا مدركة . وكلها تقريبا مثيرة للرعب مثل زيادة عدد السكان في الدول المتخلفة ، ونقص موارد الطاقة ، وتلوث البيئة والبحار والأنهار ، والأمراض الخطيرة في الاقتصاد العالمي الذي يمضي من التضخم إلى الهبوط بشكل دوري ، وانتشار الإيديولوجيات المتشددة وتعددها ، وكل منها يحمل توجهات عالية ، وأخيرا القرحة التي أصابت مجتمعاتنا وهي إرهاب الدولة ومايقابله من إرهاب الجماعات المتعصبة . ونظرة « الأمد الطويل » تعطينا الانطباع بأننا أمام منظر تاريخي ، بمعنى أننا أمام تاريخ يتباهى بسكون الطبيعة . وهو شعور

خادع لأن الطبيعة هي الأخرى تتحرك وتتغير . أما تغييرات « الأمد القصير » فتبدو في هذا العمق أيضا وكأنها ساكنة ، مثل الظواهر التي تقلب شكل مكان ما ، كتعاقب النور و الظلام ، ومنتصف النهار والغسق ، والمطر والرعد ، والهواء الذي يدفع السحب ويحرك الطواحين .

وقد قسمت هذا الكتاب إلى جزئين . الجزء الأول يتضمن خمسة فصول هي : تغيرات الرأى والحماسة في أمم العالم القديم ، وأزمات الديموقراطية الإمبريالية في الولايات المتحدة ووجهها الآخر ، وأزمة نظام السيادة البيروقراطية في روسيا ، وانقلاب الأثرة أو تفضيل المصلحة الخاصة ، وبالأخص في البلاد المحيطة ، والتحديث وأخطاره ومشاكله . وفي هذا الجزء الأول حاولت أن اختصر كل مايتصل بالأوضاع في أمريكا اللاتينية ــ فيما عدا الفصل النهائي ــ لأني عالجت الموضوع بشيء من الإسهاب في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

الجزء الأول

زمن الغيوم

□ الفصـــل الأول □

نظرة على العالم القديم (أوروبا)

من النقد إلى الإرهاب :

في حوالي عام ١٩٦٠ بدأت تظهر بعض الاختلالات الشعبية التي هزت الغرب . وعلى عكس ماتنبأت به الماركسية فإن الأزمة لم تكن اقتصادية ، كما أن بطلها الرئيسي لم يكن هو البروليتاريا . إنها كانت أزمة سياسية ، وهي أكثر من كونها سياسية ، أخلاقية وروحية ، ولم يكن الذين قاموا بها هم العمال ، وإنما كانوا مجموعة مميزة وهم الطلاب .

ففي الولايات المتحدة ساهم تمرد الشباب بصورة حاسمة في هز الثقة بالسياسة الأمريكية في الهند الصينية ، وفي أوروبا الغربية أحدثت شرخا في مصداقية الحكومات والمؤسسات وفي مكانتها ، وإن لم تؤثر على سلطاتها . ولم تكن حركة الطلاب ثورة بالمفهوم الدقيق للكلمة ، وإن كانت قد استخدمت مصطلحات اللغة الثورية . كما أنها لم تكن تمردا ، وإنما كانت ثورة بالمفهوم الذي أعطيته لهذه الكلمة في كتابات أخرى . لقد كانت انتفاضة لطائفة من الطبقة الوسطى ، وكانت « ثورة ثقافية » حقيقية ، ولكن بمعنى مختلف عن استخدام هذا المصطلح في الصين .

إن حرية العادات الفائقة في الغرب ، وبالأخص في المجال الجنسي ، هي إحدى نتائج هذا التمرد الأخلاقي للشباب في الستينات . وثمة نتيجة أخرى وهي تآكل مفهوم السلطة تدريجيا ، سواء كانت على المستوى الحكومي أو الأبوي . كانت الأجيال السابقة تعرف تقديس الأب العنيف المعبود ، المرهوب الجانب مثل ستالين وهتلر وتشرشل وديجول . وفي عقد الستينات قامت شخصية مبهمة يتعاقب عليها الغضب والاندفاع هي شخصية الأبناء بإزاحة سلطة الأب الإله . ومن ثم فقد تحولنا من تمجيد العجوز الأوحد إلى تمجيد قبيلة الشباب .

وبالرغم من أن هذه الفوضى الجامعية قد هزت الغرب ، فإن الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية لم تفد منها أو تحاول دفعها في قنوات معينة . إنهم — على العكس من ذلك — قد أدانوها ووصفوها بأنها حركات صغيرة ، بورجوازية ، فوضوية ، متهافتة ، مدفوعة بواسطة عملاء مثيري الشغب من اليمين . وهذا الموقف العدائي لهذه الحركة من القيادة السوفيتية مفهوم ، لأن الانتفاضة الشبابية ، إذا كانت انفجارا ضد مجتمع الاستهلاك الرأسمالي ، فهي أيضا حركة تحررية ونقد عاطفي شامل للدولة والسلطة .

أما العقد التالي (السبعينات) فقد شهد ظهور المنشقين من روسيا ومن البلاد الاشتراكية الأخرى في الغرب ، واعتراف الغرب بهم . وهذا الحدث أصبح من سمات الضمير الفكري المعاصر ، وسوف تكون له نتائج أخلاقية وسياسية لا في أوروبا فقط ، وإنما في أمريكا اللاتينية أيضا ؛ فلأول مرة يصبح المنشقون على الامبراطورية الروسية مسموعين من قبل المثقفين الأوروبيين .

ومنذ سنوات قليلة لم تكن تجرؤ بعض المجموعات الهامشية — مثل الفوضويين والسرياليين والماركسيين القدامى والأعضاء الشيوعيين الذين تخلوا عن صفتهم — نقول لم يكن هؤلاء يجرءون على أن يصفوا الاشتراكية البيروقراطية بأنها في حقيقتها نظام جديد للاستغلال والقمع أكثر شمولية وانحرافا . والآن لا أحد يستطيع أن يدافع ، مثلما سبق ، عن الاشتراكية الحقيقية ، ولا حتى عن أعضاء هذه الفصيلة التي نطلق عليها « المثقفون التقدميون » .

فأمام الحكايات التي جاء بها المنشقون نجد انتقادات أندريه جيد عام ١٩٣٦ ، وانتقادات البيركامي النافذة عام ١٩٥١ تصبح مجرد أفكار خجولة ، كما تصبح تحليلات تروتسكي غير كافية وتغدو توصيفات سوفارين نفسه شاحبة ، بالرغم من أن هذا الأخير كان منذ حوالي أربعين عاما ، أول من فهم الطابع الحقيقي للنظام الروسي .

إنه تناقض ملحوظ ، ولكن حسب علمي لا أعتقد أن أحدا قد فكر فيه . فخلال عقد السبعينات لم تظهر في الغرب حركة نقد ذاتي أخلاقي وسياسي على نمط حركة المنشقين

في البلاد الاشتراكية . وهذا أمر غريب ، لأنه منذ القرن السادس عشر كان النقد مصاحبا للأوروبيين في كل مشروعاتهم ومغامراتهم ، سواء على شكل اعترافات أو على شكل ندم . إن تاريخ الغرب الحديث يبدأ بتوسع إسبانيا والبرتغال في أفريقيا وآسيا وأمريكا ، في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه الإدانات لفظائع الغزو ، كما كتبت مؤلفات وصفية ، لا تنقصها الروعة أحيانا ، لمجتمعات السكان الأصليين . فمن جهة نجد بيثارو PIZARRO ، ومن جهة أخرى لاس كاساس LAS CASAS ، وساها جون Sahagun . وفي بعض الأحيان كان الغازي أيضا عالما بأصول الأجناس على طريقته الخاصة مثل كورتيس Cortés ، أما ندم الغرب فيتمثل فيما أطلق عليه أنثروبولوجيا ANTROPOLOGIA وهو علم ولد في آن واحد مع الإمبريالية الأوروبية ، ومازال باقيا .

وفي النصف الأول من القرن العشرين توفر شعراء الغرب وقصاصوه وفلاسفته على نقده . كان نقدا عنيفا وباهرا بشكل فريد . وقد استوعبت الانتفاضة الشبابية في الستينات هذه الأمور وعاشتها وكأنها احتجاج جياش . إن حركة الشباب ، التي تستحق الإعجاب لأكثر من سبب ، قد تراوحت بين الدين والثورة ، بين الشهوانية واليوتوبيا . وبالسرعة نفسها التي ظهرت بها تلاشت فجأة . إن هذه الانتفاضة الشبابية قد ظهرت في وقت لم يكن أحد ينتظرها فيه ، واختفت بالطريقة نفسها .

كانت ظاهرة لم يقدر علماء الاجتماع حتى الآن على إيجاد تفسيرات لها . لقد كانت رفضا جياشا للقيم السائدة ، في الغرب ، وكانت الثورة الثقافية في الستينات وليدة النقد ولكنها بالمفهوم المحدد لم تكن حركة نقدية . أي أن الاحتجاجات والتصريحات والبيانات التي ظهرت على لسان هؤلاء لم تظهر فيها أفكار ومفاهيم لم تكن موجودة عند فلاسفة وشعراء الأجيال السابقة مباشرة .

والجديد في هذه الانتفاضة لم يكن فكريا ، وإنما أخلاقيا ، فالشباب لم يكتشفوا أفكارا أخرى ، وإنما عاشوا الأفكار التي ورثوها بكل عواطفهم . وفي السبعينات انطفأت الانتفاضة وتوقف النقد. ولا يشذ من ذلك إلا الجانب النسائي . ولكن هذه الحركة بدأت من قبل ذلك بكثير ، وسوف تمتد لعقود أخرى قادمة . إنها عملية تدخل في نطاق « الحساب الطويل » . وبالرغم من أن اندفاعها قلت حدته في السنوات الأخيرة فإنها ظاهرة مقدر لها أن تستمر وأن تغير التاريخ .

أما ورثة المتمردين الشبان ، فكانوا هم الجماعات الإرهابية .

لقد افتقد الغرب النقاد والمنشقين ، ومن ثم تحولت الأقليات المعارضة إلى العمل السري . انقلبت البلشفية عندهم : فبما أنهم لا يملكون القدرة للاستيلاء على الدولة ،

وإقامة الإرهاب الإيديولوجي فقد انحازوا إلى إيديولوجية الإرهاب .

ومن عجائب الأزمنة أنه بمقدار ما أصبحت الجماعات الإرهابية متصلبة وجريئة بقدر مابدت حكومات الغرب أكثر ترددا وتذبذبا . أليس واضحا أن الحكومات لا تستطيع أن تقف ضد تعصب الإرهابيين وإنما تحاول استغلال بعض مالديهم من ريبة ؟ إن أصرح تبرير لضرورة وجود الدولة قال به الفيلسوف هوبز HOBBES : نظرا لأن الوضع الإنساني هو وضع الحرب من الجميع ضد الجميع ، فإنه ليس أمام الناس من حل إلا أن يتنازلوا عن جزء من حريتهم لسلطة عليا تكون قادرة على ضمان السلام والأمن للجميع ولكل واحد من الناس .

ومع ذلك فإن هوبز كان لا يذكر أن وضع المواطن بائس . إنه تناقض كبير : فتآكل السلطة الحكومية في البلاد الغربية يمكن أن يدخل السرور على قلب عشاق الحرية ، فضلا عن أن المثال الديموقراطي يمكن أن يتحدد بعبارة كهذه : شعب قوي وحكومة ضعيفة . ولكن الوضع يحزننا لأنه يبدو أن الإرهابيين مصممون على جعل الحق في جانب هوبز . وليست مناهج هوبز هي فقط المستكرة ، وإنما نجد المثال عنده لا يقوم على الحرية بل على إقامة السلطة المطلقة لبعض القطاعات .

وبالرغم من الأذى المستطير الذي يتسبب عن نشاط هذه الجماعات ، فإن الشر الحقيقي في المجتمعات الرأسمالية الليبرالية لا يكمن فيهم ، وإنما في العدمية السائدة . إنها عدمية ذات طابع يتناقض مع عدمية نيتشه : فلسنا إزاء رفض نقدي للقيم الموجودة ، وإنما أمام ظاهرة تفككها ونحن غير عابئين بما يحدث . وبالإضافة إلى العدمية يجب أن نشير إلى ظاهرة أخرى هي التلذذ . وإذا كانت طبيعة العدمية مأساوية فإن طبيعة التلذذية التواكل . إنها تلذذية بعيدة تماما عن مذهب أبيقور ، فهي لا تجرؤ على مواجهة الموت ، وليست بالحكمة وإنما هي خضوع . وهي في أحد أوجهها المتطرفة تصبح نوعا من النهم ، بحيث لا ترعوى عن طلب المزيد والمزيد ، وفي وجهها الآخر تكون تركا وتنازلا وجبنا في مواجهة الألم والموت . وبالرغم من ممارسة الرياضة والتمرينات الصحية ، فإن موقف الجماهير الغربية يشتمل على نقص في التوتر الحيوي ؛ فالناس تعيش حاليا أعمارا أطول ، لكنها سنوات جوفاء ، فارغة . والتلذذية عندنا أصبحت تلذذية الأجهزة والأشباح . إن

ربط الجسم بالميكنة قد أدى إلى ميكنة اللذة ، كما أن تقديس الصورة ــ مثل السينما والتليفزيون والإعلانات ــ قد أحدث نوعا من الاختلاسات التعميمية التي حولت الأجسام إلى ظلال .

إن ماديتنا ليست جسدية وإنما هي عبارة عن تجريد . وشيوع العُرى الجسدي أمر مرئي وذهني يعمل على تهييج العزلة ، ويدفع بالفرد في حالات التطرف إلى ممارسة الاستمناء ، وفي بعض الحالات الأخرى إلى السادية المازوكية ، إنها انهماكات دامية وشبحية في الوقت نفسه .

ولعل مشهد الغرب المعاصر كان يمكن أن يروق لميكافيلي وديوجين وإن كان ذلك لأسباب مختلفة . فالأمريكيون والأوروبيون واليابانيون استطاعوا أن ينتصروا على أزمة مابعد الحرب وأقاموا مجتمعات من أغنى وأرقى ماعرفه التاريخ البشري . فلم يحدث أن ملك الناس من قبلنا كل مانملكه الآن . بالإضافة إلى مكسب آخر كبير هو « التسامح » . إنه تسامح لا يمارس مع الأفكار والآراء فقط ، وإنما يتعدى ذلك إلى العادات والتوجهات . ولكن هذه المكاسب المادية والسياسية العظيمة لم تصحبها حكمة عالية ولا ثقافة أكثر عمقا .

إن المنظور الروحي للغرب يدعو إلى الحزن : إن السائد الآن هو الابتذال والسطحية ، وانبعاث الخرافات ، وانحطاط العنصر الشهواني ، والتلذذ في خدمة التجارة ، والحرية التي تحولت إلى قوادة لوسائل الإعلام . ومع ذلك فإن الإرهاب ليس نقدا لهذا الوضع ، وإنما هو أحد أعراضه . فإزاء نشاط المجتمع الذي يمضي شبه نائم ، وهو يدور آليا حول إنتاج الأشياء بصورة لا تنقطع ، نجد الإرهاب يعرض نوعا من الخبل لا يقل سكونا وإن كان أكثر هدما .

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن الإرهاب قد ازدهر بخاصة في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا . ففي البلاد الثلاثة كان التطور التاريخي للمجتمع الحديث ــ أي التحول من دولة ذات سلطة مطلقة إلى الديموقراطية ــ منقطعا أكثر من مرة بواسطة أنظمة متسلطة . وفي البلاد الثلاثة نجد الديموقراطية مؤسسة حديثة النشأة . ثم إن الدولة القومية ــ وهي المكمل الضروري لتطور المجتمعات الغربية نحو الديموقراطية ــ كانت واقعا متأخرا في ألمانيا وإيطاليا .

وكانت حالة إسبانيا عكس ذلك تماما لكن النتائج كانت مشابهة . فإن الشعوب المختلفة التي تتعايش في شبه الجزيرة الأيبيرية كانت مسجونة منذ القرن السادس عشر في قميص القوة لدولة مركزية متسلطة . وهذا لا يعني بالطبع أن الألمان والطليان والاسبان محكوم عليهم لسبب تاريخي بالإرهاب . فبقدر ماترسخ الديموقراطية والفيدرالية (ومعهما الدولة القومية) سوف يأفل نجم الإرهاب .

والواقع أنه قد اختفى تقريبا من ألمانيا . وليس من قبيل المغامرة الظن بأنه سوف يقل أيضا في إسبانيا . ولن يتم ذلك بالقمع الحكومي ، وإنما انتشار الحريات والحكم الذاتي في المناطق المختلفة هو الذي سوف يقضي على الإرهاب الباسكي . ومنظمة « إيتا » محكوم عليها بالتلاشي ، ليس دفعة واحدة ، وإنما عن طريق عزلها تدريجيا ، أي عن طريق الانتحار السياسي ، وسوف تكون هذه العملية بطيئة لكنها حتمية .

أما نشاط الإرهابيين الإيطاليين فقد كان مترتبا على أزمة الدولة أكثر من أي شيء آخر ، وهو بدوره نتيجة للشلل المزدوج عند الحزبين الكبيرين ، وهما الديموقراطية المسيحية والشيوعيون . فالحكومة تدور حول نفسها دون أن تتقدم ، لأن الحزب الحاكم ، وهو الديموقراطية المسيحية ليس لديه إلا مشروع واحد وهو الاحتفاظ بالوضع على ماهو عليه . إنه لا يحكم ، أو بمعنى أصح قد أنزل تخفيضا على فن الحكم بحيث جعل منه لعبة يدوية ، ولم يعد لديه إلا الرقة والمهارة في طرح الوعود .

ومن جهة أخرى فإن الحزب الشيوعي لا يدري أي طريق يتخذ . لقد عدل عن اللينينية ولكنه لا يجرؤ على عناق الاشتراكية الديموقراطية عناقا كاملا . إنه يتراوح بين لينين وكوتسكي **Kautsky** دون أن يجد لنفسه اتجاها خاصا حتى الآن . إن الحياة السياسية الإيطالية شديدة الاضطراب ومع ذلك فلا شيء يحدث فيها . الجميع يتحركون ولا أحد يغير موقعه . كما أن الغضب البارد الغليظ للإرهابيين وأساتذتهم المتحذلقين ليس له هو الآخر مخرج . لهذا فشلوا . لكن المشكلة مازالت كامنة في العمق ، وهي أن إيطاليا تعاني من غيبة الاشتراكية الديموقراطية . وبالرغم من أن الشيوعيين الإيطاليين ــ وهم أكثر الشيوعيين مرونة وذكاء في أوروبا ــ قد رغبوا في ملء هذا الفراغ ، فإنهم لم يستطيعوا ذلك لأسباب ذات جذور تاريخية . إن ارتباطهم الطويل بالاستبدادية

البيروقراطية الروسية يمثل بقعة أصيلة لم يستطع غسلها حتى الآن أي تعميد ديموقراطي .

وماذا عن أيرلنده الشمالية ؟ . إنها ، من وجهة نظري ، ظاهرة مختلفة . فالإرهاب الأيرلندي ولد من الائتلاف التفجيري لعنصرين هما قومية مشوبة بنزعة تدين ، ووضع دونية ظالم تعرضت له الأقلية الكاثوليكية .

وقد أكد تاريخ القرن العشرين أمرا كان يعرفه كل مؤرخي الماضي وإن كان منظرو الإيديولوجيات في عصرنا قد عملوا على تجاهله ، وهو أن العواطف السياسية الأكثر قوة وتصلبا واستمرارا تتمثل في شيئين هما القومية والدين . وعند بعض الأيرلنديين يحدث تشابك بين القومية والدين . وعلى عكس الباسكيين الذين لا يريدون أن يتحدوا مع أحد ، اللهم إلا فيما بينهم وبين أنفسهم ، فإن كاثوليك أيرلندة الشمالية يشعرون بأنهم جزء من جمهورية أيرلندة .

ولكن القومية الكاثوليكية الأيرلندية شيء ومنظمة الإيرا IRA شيء آخر . إن ثمة ظرفين يلعبان ضد هذه المنظمة ، أولهما أن السكان الكاثوليك هم الأقلية ، وثانيهما أن مناهج المنظمة وبرنامجها السياسي (اشتراكية على الطريقة العربية أو الأفريقية) جعلتها تفقد الكثير من الأتباع والأصدقاء سواء في جمهورية أيرلنده أو أيرلندة الشمالية .

إن اغتيال اللورد مونباتن حاز رضا الكثيرين الذين كانوا يتعاطفون في البداية مع الإرهابيين . ولكن بقدر ما أصبحت الإيرا أكثر راديكالية زادت عزلتها . والآن فإن المشكلة لا يمكن أن تحل بواسطة السلاح وإنما عن طريق صيغة ترضي ، على الأقل في جزء منها ، طموحات الأقلية الكاثوليكية . وهذا الوضع يشبه في كثير من الوجوه وضع الفلسطينيين والإسرائيليين : أي إرضاء الطموحات المتناقضة المتباعدة ، والتي هي في الوقت نفسه مشروعة لكل من الطرفين . ولسوء الحظ فإنه ليس ثمة أي سليمان يقوم بالمهمة .

ميراث اليعاقبة والديموقراطية :

هناك ظاهرة ذات اتساق عكسي تتمثل في أن تطور الأحزاب الشيوعية الأوروبية الكبيرة (في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا) قد تحقق في اتجاه متعارض قطريا مع اتجاه الإرهابيين . فبقدر ماتتجه الجماعات المتطرفة نحو العنف ، يقترب الشيوعيون يوما بعد

يوم من مناهج وبرامج الأحزاب الديموقراطية التقليدية . ولو أن المنقح برنستين Bernstein كان حيا حتى الآن لفرك يديه إعجابا أمام بعض تصريحات برلينجر Berlinguer (الزعيم الشيوعي الإيطالي) وكاريللو (الزعيم الشيوعي الإسباني) .

ولم نعدم نقادا يدينون سياسة الشيوعيين الأوروبيين ويصفونها بأنها ذات مأرب ، وأنها مناورة على نمط مناورات الجبهة الشعبية و« اليد الممتدة » في عصر ستالين . ولا شك أنه توجد في مواقف الشيوعية الأوروبية ، مثلما يحدث في كل البرامج والبيانات السياسية ، جرعة كبيرة من التكتيك النفعي .

ومع ذلك فإن ثمة شيئا له أكثر من معنى . إن الشيوعية الأوروبية كانت محاولة من جانب القادة للإجابة على التغيرات الاجتماعية والتاريخية التي حدثت في القارة خلال الثلاثين سنة الأخيرة . إنها لحظة تشتمل على عملية مراجعة ونقد طويلة ومؤلمة بدأت منذ وقت طويل ولم تنته حتى الآن .

وتكمن أصول هذه العملية في المناوشات والمعارك الجدلية التي مزقت المؤتمرات الدولية الأول والثاني والثالث على التوالي . وما يناقش الآن قد نوقش من قبل ، وإن كان بلغة أخرى ومن منظورات أخرى ، بواسطة ماركس وباكونين ، ومارتوف ولينين ، أي بواسطة جميع أبطال الحركة العمالية منذ أكثر من قرن . وفي العصر الراهن بدأت عملية المراجعة والنقد إثر بيان خروشوف . فخلال سنوات وسنوات كان قادة الأحزاب الشيوعية يخفون الحقيقة السوفييتية المتمثلة في الرعب الدولي ، وعبودية العمال والفلاحين ، ونظام الامتيازات ، ومراكز الاعتقال الجماعية ، وأخيرا كل تلك الممارسات ، التي أشار إليها الشيوعيون في خجل على أنها « انتهاكات للشرعية الاشتراكية » . وعن طريق ميكانزم أخلاقي وسيكولوجي لم يوصف حتى الآن قبل تورز Thorez وتوجلياتي Togliatti ولاباسيونيرا(*) La Pasionaria الكذب ، بل إنهم تعاونوا بنشاط على نشره . وأكثر من ذلك فإنهم استطاعوا أن يمدوا أسطورة الاتحاد السوفييتي القائلة بأنه « وطن العمال » ، لا في ذهن الأتباع فقط وإنما في ذهن الملايين من المتعاطفين . ولا يقل فضيحة عن ذلك مشهد الإيمان الراسخ عند عدد لا يحصى من المثقفين التقدميين ، وهم بالتحديد هؤلاء الذين يجب أن يقوم إيمانهم على النقد والفحص والشك !

(*) من زعماء الشيوعية في أوروبا الغربية ، والأخيرة هي رئيسة الحزب الشيوعي الإسباني .. المترجم .

ولكن بعد بيان خروشوف لم يعد ممكنا حجب الشمس بإصبع واحدة .

ففي البداية كان النقد ذا طابع أخلاقي . وقد تبع هذا النقد الأخلاقي نقد تاريخي وسياسي واقتصادي . إن مهمة هدم مبنى من الأكاذيب التي استمرت أكثر من نصف قرن لم تنته حتى الآن .

وكما يحدث دائما فقد كان المثقفون ــ ومن بينهم كثير من الشيوعيين ــ هم الذين بدءوا هذا الفحص النقدي . ومن الواضح أنه بدون عمل مثقفي اليسار فإن تطور الأحزاب الشيوعية الأوروبية كان سيظل مستحيلا . فبفضل هؤلاء لا يمكن أن تتكرر الآن الأكاذيب التي دارت منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . (ويتناقض هذا مع موقف كثير من المثقفين في أمريكا اللاتينية الذين لا يفتحون فمهم إلا للتغني بالأصول المتبعة في هابانا) .

إن نقد المثقفين الأوروبيين كان فعالا ــ على عكس ماحدث من قبل مع انتقادات سيرجه وسيلينجه وسوفارين وبريتون وكافي وسيلون وهاو وآخرين ــ لأن العالم في الوقت نفسه تقريبا اكتشف وجود حركة انشقاق في الاتحاد السوفييتي . وهذه الحركة لها ميزة فريدة هي أنها لا تنحصر في اتجاه واحد ، لأن جماعية الاتجاهات والفلسفات التي كانت في روسيا قبل البلشفية بدأت تظهر من جديد بين المنشقين . وأكثر دلالة من ذلك فإن الماركسيين يعتبرون أقلية داخل الحركة .

وثمة ظرف آخر أسرع بتطور الأحزاب الشيوعية الأوروبية هو احتلال روسيا لتشيكوسلوفاكيا ، وغزو أفغانستان ، وإخضاع بولندة . إنها ضربات تحملها اليسار الأوروبي بصعوبة بالغة وبالأخص بعد التدخل الدامي في هنغاريا . أما الصراع الصيني ــ السوفييتي فقد دل على أن « وحدة الطبقة العاملة » ماهى إلا قناع للاعتداءات القومية ، كما أن غزو تشيكوسلوفاكيا وقمع بولندة يؤكدان أن مصالح الدولة الروسية لا تتفق مع مصالح الطبقة العاملة ولا مع الاشتراكية . إن السياسة الخارجية الروسية قد أهانت الطبقة العمالية الأوروبية ومثقفي اليسار من ناحيتين هما مشاعرهم الاشتراكية ومشاعرهم القومية .

لقد حاول القادة تطويع الإيديولوجية والتكتيك لواقع أوروبا الجديدة . والذين ذهبوا

إلى أبعد من ذلك هم الإيطاليون والإسبان . أما الحزب الشيوعي الفرنسي فمازال للميراث الستاليني فيه وزن كبير ، ومازالت توجهاته السوفييتية قائمة . لماذا قرر الاشتراكيون الفرنسيون الذين مروا بتجربة مريرة مع Las Volta - Faces ، الشيوعيين أن يحكموا بمساعدتهم ؟. هل هو استمرار لليعقوبية(*) Jacobinisme أو الميكافيلية ، بهدف مع حركتهم ؟ إذا كانت الأولى فهو أمر مؤسف وإن كانت الثانية فهي حيلة غير بريئة لن تصيب إلا الاشتراكيين فقط . وإذا دعت الظروف فإن مارشيه (الزعيم الشيوعي الفرنسي) وحزبه لن يترددوا في فسخ الائتلاف مثلما حدث في مرات أخرى . إن الشيوعيين ينظرون في حنق إلى الاتجاهات الإيديولوجية القريبة منهم مثل الاشتراكيين بجميع طوائفهم ، والفوضويين والعماليين . إنهم ، أي الشيوعيين ، لم يهاجموهم فقط ، وإنما حاولوا أن يتعقبوهم ويقضوا عليهم بقدر ما يستطيعون .

وهذه الخصوصية والميل إلى الانقسام ، والانقسام الفرعي إلى مذاهب وطوائف إنما يدل على أن الشيوعية ليست في الحقيقة حزبا سياسيا ، وإنما هي نظام ديني تحركه معتقدات خاصة . إن الشيوعيين لا يرون في وجود الآخرين إلا أشياء يجب قلبها أو القضاء عليها . والتحالف عندهم يعني الضم ، والذي يحتفظ باستقلاله يتحول عندهم إلى ملحد وعدو .

حق أن الشيوعيين الإيطاليين يتحدثون عن « الالتزام التاريخي » وهو اصطلاح يتضمن التحالف ليس مع الأحزاب العمالية الأخرى فقط ، وإنما مع الطبقة المتوسطة ومع البرجوازية الليبرالية نفسها . ولعل في إمكاننا ، على أية حال ، أن نتساءل هل سياسة الشيوعيين كانت ستظل هي نفسها لو وجد في إيطاليا حزب اشتراكي قوي مثل الحزب الاشتراكي الفرنسي أو الإسباني .

إن الإصلاح الهائل الذي حدث قد تمثل في العدول عن قاعدة ديكتاتورية الطبقة العاملة . وفي هذا من المفيد أن نميز بين ديكتاتورية الطبقة العاملة وديكتاتورية الحزب الشيوعي . لقد أكد ماركس الشق الأول ولم يؤكد الثاني .

فطبقا للمفهوم الأصلي عند ماركس وانجلز فإنه خلال فترة التحول نحو الاشتراكية يجب أن تكون السلطة في يد الأحزاب العمالية الثورية المتعددة . ولكن في البلاد الاشتراكية نجد الأقلية الشيوعية تمارس باسم البروليتاريا دكتاتورية شاملة على كل الطبقات

(*) اليعقوبية نظام سياسي لأكثر أحزاب الثورة الفرنسية شهرة « حزب اليعاقبة » وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يعقد اجتماعاته في دير للدومينيكان يطلق عليه العامة دير اليعقوبيين في شارع سان يعقوب في باريس . وتطلق اليعقوبية كذلك على اتجاه سياسي يفرض فيه التطرف العنيف باسم الديموقراطية .

والجماعات الاشتراكية بما في ذلك البروليتاريا نفسها .

إن العدول عن قاعدة « دكتاتورية البروليتاريا » كان بمثابة علامة أخرى على أن اليسار الأوروبي في النهاية سوف يبدأ في استعادة تراثه الآخر دون أن يستبعد الشيوعيين .

وليس هذا التراث نابعا من « الإرادة العامة » عند روسو ، وهي قناع الظلم والأصل الفكري لليعقوبية أو من الماركسية — اللينينية وإنما من التحررية والجماعية والديموقراطية القائمة على احترام الأقليات .

وبالرغم من أهمية التغييرات التي حدثت في الحزبين الشيوعيين في إيطاليا وإسبانيا فإن تطورهما لم يكن مكتملا ؛ فالأحزاب الشيوعية الأوروبية — وبالأخص الفرنسي — مازالت مجموعات مغلقة ، وهي في الوقت نفسه أنظمة دينية وعسكرية . والحق أنهم إذا كانوا يريدون العودة إلى التراث الاشتراكي الحق فلا بد من أن يلبوا أولا شرطا مزدوجا أخلاقيا وسياسيا . الأول هو أن ينفصلوا عن أسطورة « الاتحاد السوفييتي الاشتراكي » ، والثاني هو أن يرسخوا الديموقراطية الداخلية في الأحزاب الشيوعية . وهذا الشرط الأخير يعني أنه لا بد من مراجعة التراث اللينيني في جذوره نفسها . وإذا كانت الأحزاب الشيوعية تريد أن تتخلى عن كونها أنظمة دينية وعسكرية كي تتحول إلى أحزاب سياسية حقيقية فإنها يجب أن تبدأ بمزاولة الديموقراطية داخل بيتها وتدين الظالمين أينما كانوا سواء في شيلي أو في فيتنام أو في كوبا أو في إيران .

إن نقدي للأحزاب الشيوعية الأوروبية يجب ألا ينظر إليه على أنه محاولة لاختلاق المعاذير للأحزاب الأخرى . إن كل هذه الأحزاب مهتمة بالوصول إلى السلطة أو الاحتفاظ بها أكثر من إعداد المستقبل . فليست هناك أي فكرة تغيير تحركهم ، كما أنهم لا يمثلون شيئا جديدا في تاريخ هذا القرن . ففكرتهم في الحركة تقوم على تناوب الجماعات ، بمعنى « اذهب أنت كي آتي أنا » . ولست أتجاهل أن قادة الديموقراطية الليبرالية كانوا مهرة وذوي فعالية ، كما لا أتجاهل ماقاموا به من حل لكثير من المشاكل والصراعات بطريقة متحضرة .

إن بلادهم تتمتع بموارد طبيعية وتقنية وفكرية كبيرة ، ومع ذلك قاوموا الاتجاه الإمبريالي القديم ، واستخدموا هذه القدرات بحذر . ولكنهم أيضا لم يعرفوا أو لم يريدوا

أن يستخدموا ثرواتهم ومعارفهم التقنية لخدمة البلاد الفقيرة ، ذات النمو الاقتصادي القليل . وكان هذا أمرا سيئا ، لأن هذه البلاد ، سواء في آسيا وأفريقيا أو أمريكا كانت وستظل مراكز للاضطرابات والصراعات .

ولكن ساسة الغرب وإن لم يحملوا النبوءة بكرم ، فإنهم لم يتجاوزوا المعقول . فلم يحدث أن تحول أي واحد منهم إلى مستبد متعطش للدماء ، كما أنهم جميعا حاولوا أن يحترموا الأغلبية والأقلية على حد سواء . ولم تكن أخطاؤهم الكبيرة أو جرائمهم إلا في مجال الفضائح الجنسية أو المالية . وقد مارسوا السلطة — أو أخطار المعارضة — باعتدال وذكاء نسبي .

ولعل هذه اللوحة تظل ناقصة إذا لم نضف إليها أن سياستهم كانت هي سياسة السهولة والرضى . إن المكلفين بالوضع القائم والمتخصصين في المصالحة قد أبدوا ليونة مشابهة إزاء الأنانية المفرطة لدى الجماهير ، ولدى الطبقات المميزة في بلادهم أكثر من ليونتهم أمام تهديدات وإهانات الأجانب . إن رؤيتهم للتاريخ رؤية تجارية ، ومن ثم فإنهم لم يروا في الإسلام عالما يستيقظ ، وإنما نظروا إليه على أنه « زبون » تجب المساومة معه . وسياستهم مع روسيا — وأنا بذلك لا أعني الاشتراكيين الديموقراطيين مثل برانت وشميث فقط ، وإنما المحافظين مثل جيسكار — كانت وستظل نوعا من خداع النفس الرهيب . إن أهم شيء عندهم هو التقدم خطوة ، وتأكيد عام آخر من الهضم السلمي وكسب الانتخابات القادمة . وفي هذا اختلال لا أدري هل هو كوميدي أو تراجيدي بين هذا الاتزان المحلي والقرارات التي يتطلبها الحاضر .

ومع ذلك فإنه ليس من الشرف أن أتجاهل الفوائد الكبيرة التي حصل عليها العمال والطبقة المتوسطة خلال الأربعين عاما الأخيرة . وهذه المكاسب تعود بالدرجة الأولى للنقابات العمالية وأيضا لتحركات الاشتراكيين الديموقراطيين والعماليين .

ولا بد أن يضاف إلى ذلك القدرة الإنتاجية الهائلة للمجتمعات الصناعية الحديثة ، فضلا عن الديموقراطية بصفتها شرطا اجتماعيا وسياسيا لا يقل أهمية ، لأنها هي التي جعلت في الإمكان حدوث جهاد وتفاوض بين الرأسماليين والعمال ، وبين الاثنين والحكومات . إنها إذن القدرة الإنتاجية والحرية النقابية ، وحق الإضراب وأهلية التفاوض ، كل هذا هو

الذي جعل الديموقراطيات في الغرب ممكنة ومزدهرة .

وحتى متى ستظل الحكومات في الغرب قادرة على أن تضمن لشعوبها هذا الرخاء المعيشى ، مع أن السعادة والحكمة لم تكن وليست ضربا من الاطمئنان الناتج عن العمل والاستهلاك ؟ .

وبقدر ماتزداد الأزمة الاقتصادية خطورة ينقص العمل وتقل الأشياء المتاحة للشراء كما تقل الأموال القادرة على الشراء .

إن حجم المشاكل التي يواجهها الناس في القرن العشرين تتناقض مع البرامج والحلول المتواضعة التي تمدنا بها الحكومات والأحزاب في أوروبا الغربية .

ولن أعدم من يذكرني ــ ومعه بعض الحق ــ بأن السياسة ماهي إلا فن (أو تقنية) تعيش داخل نسبية ماهو مباشر وقريب . أيضا لم يستطع سياسيو الماضي ، فيما عدا بعض الاستثناءات المحدودة ، أن يتنبأوا بالمستقبل : وقد صحت نظرتهم لأنهم عرفوا كيف يجيبون على تحدي الحاضر ، وليس بسبب نظرتهم للمستقبل . لاشك أن هذا صحيح ، ولكننا نعيش في مفترق التاريخ بينما أوروبا هي الغائبة الكبرى عن السياسة العالمية .

ولا يمكن أن ننسب هذا التدهور في التأثير الأوروبي لنقص التصور السياسي والاندفاع عند ساستها فقط . فبعد الحرب العالمية الثانية انكفأت أمم العالم القديم على نفسها وكرسوا طاقاتهم الهائلة لخلق رخاء بدون عظمة ، وممارسة تلذذية بدون عاطفة وبدون أخطار .

وكانت آخر محاولة كبيرة لاستعادة التأثير المفقود هي ما قام به الجنرال ديجول . وبه انتهى تقليد ، بصرف النظر عن شخصيته القديرة ، كان قد تقادم به العهد . إنه من المستحيل أن تستطيع فرنسا وحدها في وضعها الجديد بصفتها قوة متوسطة ، إقامة توازن دولي وأن تصبح في وضع متوازن مع الولايات المتحدة وروسيا .

إن هذه مهمة لا تستطيع القيام بها إلا قوات مختلطة من أوروبا الموحدة . لكن هذه الإمكانية لم تدخل أبدا بالفعل في نظرة الجنرال ديجول ، ولم تدخل في ذلك لسببين : الأول لأنه كان سياسيا مغرقا في قوميته ، والثاني لأن ذكاءه الكبير لم يستبعد جرعة لها قيمتها من الواقعية . فديجول كان يعرف مانعرفه نحن جميعا ، وهو أن الأمم الأوروبية تريد أن

تعيش متجاورة ويزداد رخاؤها في سلام ، ولكنها لا تريد أن تفعل شيئا مشتركا . والشيء الوحيد الذي يجمع بينهم هو الجمود إزاء المصير .

ومن هنا تمارس النزعة السلمية سحرا عليهم ، لا بصفتها مذهبا ثوريا ، وإنما بصفتها إيديولوجية سلبية . إنه الوجه الآخر للإرهاب ، فكلاهما تعبيران متناقضان عن العدمية .

وفي السنوات الأخيرة شاهدنا انتصار الاشتراكية في إسبانيا وفرنسا واليونان في الانتخابات . وهذه الانتصارات تتضمن دروسا يجب أن يتأملها كل الناس في أمريكا اللاتينية وبالأخص الديموقراطيون والاشتراكيون . وحالة إسبانيا تلح علينا بشكل خاص . فالإسبان وشعوب أمريكا اللاتينية قد واجهوا نفس العقبات في إقامة المؤسسات الديموقراطية . ولن أتناول هذا الموضوع فهو معروف جدا ، وقد تناولته أنا نفسي في كتابات أخرى . إن تاريخ إسبانيا وتاريخ أمريكا اللاتينية خلال القرنين الأخيرين جعلني أشك أكثر من مرة في أهلية الديموقراطية عندنا . والآن إسبانيا ، بعد أربعين عاما من الدكتاتورية تبدأ لتعيش حياة ديموقراطية تعد نموذجا في كثير من مظاهرها .

وأول درس نأخذه منها ، وبالأخص بالنسبة لطبقتنا الأوليجاركية الغليظة البربرية التي تبحث دائما عن سيف قاطع يحمي نظمها هو أن الإسبان قد وصلوا إلى التعايش الديموقراطي بدون مذابح أو حرب أهلية . ألا نستطيع نحن أن نفعل نفس الشيء ؟ .

والدرس الثاني يتعلق بصفة خاصة باليسار الأمريكي اللاتيني الدوجماطيقي(*) الفظ ، القادم من لدن لاهوتيي القرن السادس عشر لا من عصر التنوير . إن الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني لم يتخل عن الماركسية فحسب ، وإنما قبل الطريق الديموقراطي قبولا حسنا . ولعل مجموعاتنا القائدة ، سواء من المحافظين أو الراديكاليين ، وهي ترى النموذج الإسباني ، تتعلم ممارسة التسامح والنقد واحترام رأي الآخرين .

إن براجماتية الأحزاب الديموقراطية ، وبالأخص براجماتية الاشتراكيين الديموقراطيين لها مظاهر إيجابية . وهذه الفضائل تصبح مرئية على ضوء انتقادات الثوريين .

---

* الملتزم التزاما صارما بالقاعدة .. المترجم .

وإذا أعدنا اليوم قراءة المناقشات الجدلية بين كاوتسكي والبلشفيين فلربما ننحاز إلى جانب الأول . إن موقفه من الدكتاتورية الشيوعية لا يختلف كثيرا عن موقف برلينجر وكاريللو(*) الآن . ومع ذلك فإن اسم الماركسي الألماني ملتصق منذ حوالي نصف قرن بالصفة الشائنة التي أطلقها عليه لينين وهي كاوتسكي المرتد . إن حالته تشبه حالة جوليان . فقد كان هذا الأخير امبراطورا يسير على خطى ماركو أوريليو ، وكان جنديا شجاعا ، ولكن بفعل أعدائه المسيحيين ، أصبح معروفاً الآن باسم جوليان المارق . ولا شك أن الاشتراكيين والاشتراكيين الديموقراطيين قد تخلوا عن صفتهم الثورية : ألم يظهروا هكذا مرونة تاريخية أكبر مما لدى نقادهم الدوجماطيين ؟ .

إن غياب ثورات الطبقة العمالية في أوروبا قد كذّب النبوءة الرئيسية في الماركسية . والآن هل نجد الأحزاب الأوروبية ثورية ؟ إن العدول عن الكلمات الثورية ليس مؤشر اقتناع فكري فقط وإنما هو مؤشر للشرف السياسي .

إنه منذ نهايات القرن الثامن عشر والعالم يعيش أسطورة الثورة ، مثلما كان الناس في الأجيال الأولى للمسيحية يعيشون أسطورة نهاية العالم ، وعودة المسيح المؤكدة . وأعترف أنه كلما مرت السنوات أخذت أنظر بتعاطف إلى الانتفاضة أكثر من الثورة . فالأولى (أي الانتفاضة) عبارة عن نهوض فوري — وغالبا مايكون مشروعا — ضد سلطة ظالمة .

إن تقديس الثورة هو أحد التعبيرات عن الإفراط الحديث . وهو إفراط يأتي في العمق كنوع من التعويض عن ضعف داخلي وفراغ . إننا نطلب من الثورة ماكان القدماء يطلبونه من الأديان مثل الخلاص ، والفردوس . لقد أفرغ عصرنا السماء من الآلهة(**) والملائكة لكنه ورث من المسيحية الوعد القديم بتغيير الانسان . ومنذ القرن الثامن عشر ساد الاعتقاد بأن هذا التغيير يتمثل في مهمة تتجاوز الطبيعة البشرية وإن لم تكن لا طبيعية . إنها التحول الثوري للمجتمع . وهذا التحول يقلب طبيعة الناس مثلما كانت تفعل العناية

---

* من زعماء الشيوعية الأوروبية ، وكاريللو هو زعيم الحزب الشيوعي الإسباني لفترة طويلة .. المترجم .

** يجب أن نضع في الاعتبار أن فكر أوكتافيو باث وغيره من كبار مفكري أوروبا وأمريكا حول الأديان ليس خارجا عن السياق العام للفكر الغربي منذ عصر النهضة حتى الآن ، ويجب علينا ونحن نقرأه أن نضعه في سياقه حتى لا نخلط بين أوضاعنا وأوضاعهم ... المترجم .

الإلهية . إن فشل ثورات القرن العشرين كان هائلا ، ومازلنا نشاهده .

ولعل العصر الحديث قد قام بعملية خلط رهيبة : إنه أراد أن يجعل من السياسة علما عالميا . واعتقد الناس أن الثورة ، وقد تحولت إلى علم عالمي سوف تصبح هي مفتاح التاريخ ، والبلسم الذي يمكن أن يفتح أبواب السجن الذي عاش فيه الناس منذ بداية أصلهم . والآن نعرف أن هذا المفتاح لم يفتح أي سجن على الإطلاق ، بل إنه أغلق سجونا كثيرة على من فيها .

إن تحويل السياسة الثورية إلى علم عالمي قادر على تغيير الناس كان عملية ذات طابع ديني . لكن السياسة ليست ولا يمكن أن تكون إلَّا ممارسة ، وأحيانا فنا ، ودائرتها هي الواقع المباشر والقريب . فضلا عن أن العلم ، وبتحديد أكثر العلوم ، لم تستهدف أبدا تغيير الإنسان ، وإنما كان هدفها هو التعرف عليه ، وإذا أمكن فإنها تعمل على شفائه وتحسينه . إنه لا السياسة ولا العلوم تستطيع أن تقدم لنا الفردوس أو التناسق الخالد . وهكذا فإن تحويل السياسة الثورية إلى علم عالمي لم يكن إلا إفسادا للسياسة وللعلم ، وجعلهما صورة كاريكاتورية للدين . ونحن ندفع الآن من دمنا ثمن هذا الخلط . إن براجماتية الاشتراكية الديموقراطية ، وفقدانها التدريجي للراديكالية ولنظرة العدالة التي استلهمتها في أصولها ، يمكن أن ينظر إليها على أنها رد فعل لمغالاة الاشتراكية الدوجماطية المتسلطة وجرائمها . وكان رد الفعل يستحق التحية . وفي الوقت نفسه ، فإن الاشتراكية الديموقراطية لم تستطع أن تملأ الفراغ الذي تركه فشل الأمل الشيوعي الكبير .

□ □ □

□ الفصل الثاني □

الديموقراطية الإمبريالية

بداية التدهور :

في البداية كان الأمر مجرد سر يتناقله بعض العالمين ببواطن الأمور ، ثم أخذ الخبراء يكتبون مقالات نافذة في المجالات المتخصصة ويملون محاضرات في الكليات ، والآن يناقش هذا الموضوع على الموائد المستديرة في التليفزيون ، وفي المقالات ، واستطلاعات الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية الشعبية ، وفي حفلات الكوكتيل والعشاء والبارات .

ففي أقل من عام اكتشف الأمريكيون أنهم في « حالة تدهور » . والتدهور عادة شيء يستعصى على الوصف ، مثل الربيع في إحدى قصائد الشاعر أنطونيو ماتشادو ، لأنه لا أحد يعرف كيف وصل ، لكنه موجود في كل مكان . وقد تفاوتت طريقة استقبال الناس لهذا الخبر ، فبعضهم لم يصدقوه ، وبعضهم قابلوه بحنق ، وبعضهم الآخر لم يعبأوا به ، لكن المتدينين ينظرون إليه على أنه عقاب من السماء ، أما البراجماتيون فيرون أن ثمة خطأ ميكانيكيا يمكن إصلاحه . والغالبية العظمى استقبلت الخبر بنوع من الخبل المبهم ، المشتمل على امتزاج غريب بين الرعب والنشوة والشعور الفضولي بالراحة : أخيرا ! .

ومنذ أن ولدت هذه البلاد كان الأمريكيون شعبا يندفع نحو المستقبل . إن كل مشوارهم التاريخي الرائع يمكن أن ينظر إليه على أنه عَدْو (بسكون الدال) نحو الأرض الموعودة التي هي مملكة المستقبل أو بمعنى أصح جمهورية المستقبل . إنها أرض غير مصنوعة من التراب وإنما من جوهر متبخر وهو الزمن . وبمجرد أن نلمس المستقبل يتلاشى وإن كان يتوقف فقط للحظة بعد ذلك ، ثم يظهر من جديد في مكان آخر . ودائما لابد أن يظهر في مكان آخر .

إن التقدم مثل الشبح . ولكن الآن عندما بدأ الأمريكيون يفقدون حماسهم أخذ المستقبل يهبط في الشكل نحو زمن كريه ومغر بصورة هائلة ، إنه زمن التدهور ، وهكذا فإن المستقبل أصبح أخيرا له وجه .

إن شواهد التدهور ، بالرغم من أنها أقل اشتهارا ، فإنها أكثر دقة وفلسفة من شواهد التقدم . إنها كامنة في الشك واللذة والحزن والإحباط والذاكرة والحنين . أما التقدم فعنيف ، عديم الإحساس ، يجهل الفروق الدقيقة والسخرية ، يتحدث في صراخ وشعارات ، ويمشي دائما بسرعة ولا يتوقف أبدا ، اللهم إلا في حالة اصطدامه بحائط . والتدهور يخلط التنهيدة بالبسمة وتأوه اللذة بالألم ، وهو يتقل لحظة بعد لحظة ، ويماطل حتى في الكوارث . إنه فن الموت ، أو بمعنى أصح فن العيش في حالة موات . ومع ذلك فإني أعتقد أن افتتان الأمريكيين لا يعود إلى السحر الفلسفي والجمالي للتدهور بقدر مايعود إلى أن هذا التدهور هو بوابة الدخول للتاريخ . إن التدهور يمنحهم الشيء الذي بحثوا عنه باستمرار وهو الشرعية التاريخية .

وإذا كانت الأديان تحتفظ بمفاتيح الخلود التي هي السلب أو بمعنى أصح التحلل ، أعني سلب التاريخ أو نهايته ، فإن الانهيار على العكس من ذلك يفتح للشعوب الدخيلة ــ سواء كانوا رومان أو أستيك أو أشوريين أو مغول ــ هذه التعادلية المتواضعة للمجد الخالد وهو الشهرة الأرضية . والأمريكيون كانوا يحسون بأن حداثتهم الجذرية تمثل نوعا من الخطيئة التاريخية الأصلية . والتدهور يغسلهم من هذه البقعة .

وفي كل الحضارات كان البرابرة بلا استثناء أناسا من « خارج التاريخ » . وهذه الكينونة خارج التاريخ هي التي ميزت الماضي دائما . فالبربرية هي الأسبقية الخالصة ، وهي حالة الناس الأصلية فيما قبل التاريخ .

أما الظاهرة الفريدة المناقضة للمعتاد فهي أن الحداثة الأمريكية المترتبة على أربعة آلاف سنة من التاريخ الأوروبي والعالمي ينظر إليها على أنها بربرية جديدة . فالإنسان المتحضر ينظر إلى مبالغة الماضي أو إلى مبالغة المستقبل على أنهما شكلان متوازيان ، وإن كانا متعارضين ، لشذوذ البربرية .

وبالنسبة للضمير الأوروبي فإن مستقبل الأمريكيين لم يكن أقل شذوذا من ماضي البدائيين . وهذا الإحساس يشاركهم فيه بعض الأمريكيين البارزين الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم « الهاربين من المستقبل » مثل هنري جيمس ، وجورج سانتيانا ، وت . س . اليوت ، وآخرين .

وبالطريقة نفسها التي لم يستطع الأوروبيون بها أن يجدوا أنفسهم في المجتمعات البدوية ــ وهم الماضي الذي لا مناص منه ــ فإنهم لم يستطيعوا أيضا ، ولم يريدوا أن يجدوا أنفسهم في الحداثة الأمريكية . فالولايات المتحدة الأمريكية كانت بلدا خاليا من الكنائس الرومانية والكاتدرائيات القوطية ، ومن عصر النهضة والفسقيات الباروكية ، والنبلاء الوارثين والممالك المطلقة . إنها بلد بلا أطلال . والأكثر دهشة هو أن الأمريكيين قد قبلوا ، مع بعض الاستثناءات ، مقولة أن الشعب الذي يعيش خارج التاريخ هو الشعب البربري . ومن ثم فإنهم حاولوا بكل الوسائل أن يوجدوا مبررات لوضعهم الشاذ . وقد جاء هذا التبرير بأشكال متعددة . ففي الأدب وجدنا ميلفيل وإمرسون ويتمان وتوين . والآن بفضل ظهور التدهور بشكل غير منتظر توقف الشذوذ التاريخي ودخلت الولايات المتحدة في الوضع الطبيعي . إنها يمكن أن تجد نفسها بلا خجل في إمبراطوريات الماضي الكبيرة . لقد استعادوا فناءهم وأصبح لهم تاريخ .

والأمريكيون ليسوا وحدهم في طربهم إزاء اكتشافهم منذ قليل لتدهورهم . إنهم مصحوبون بحسد الأوروبيين ، واستياء اللاتين الأمريكيين (بلاد أمريكا اللاتينية) وحنق الشعوب الأخرى . وهذه المشاعر تاريخية أيضا ، أعني أنها تقوم بمهمة فكرة التدهور نفسها . إنها ليست مجرد تعويض وإنما هي شاهد على وجود امبراطورية عظيمة . إنها شكل عكسي للإعجاب . وهكذا فإنهم يوحون بالثقة في تاريخ فريد ومتميز . إن كيفيدو (شاعر إسباني من القرن السابع عشر) الذي عاش في فترة انهيار ، والذي كان بالتالي

خبيرا كبيرا في أنواع الحسد والحقد ، يضع على لسان إيسوب الأفريقي المنتصر على القرطاجنيين ، المنهزم على يد مواطنيه ، يضع على لسانه هذه الكلمات المتغطرسة :

لا يكيِنَّ أحد أطلالي ولا خسارتي
لأنه سيكون على رفاتي عندما أموت
شاهد أنيبال ووعاء كارتاجو

وأبيات كيفيدو تفتح لنا طريقا لمعنى آخر ممكن للموضة الحالية الخاصة بموضوع التدهور . إن إيسوب يعترف بأنه لم يلق الهزيمة من قبل أعدائه في روما ، وإنما جاءته من منافسيه السياسيين . وكان حظه هو حظ الكثيرين من الأبطال المضحين بأنفسهم في الجمهوريات الديموقراطية التي تصبح أحيانا مرتعا للحسد والديماجوجية .

وإني أتساءل هل موضة موضوع التدهور الأمريكي ليست مرتبطة بالمعركة الانتخابية الحالية(*) ؟ ألا يمكن أن تكون ذريعة لكسب الأصوات ، أو قذيفة توجه ضد المنافس ؟. وبالرغم من أن هذه المنافسة كانت حتى الآن مجرد معركة بدون عظمة ، فلعلها لهذا السبب نفسه تكون مثلا جيدا للمرض الوبائي للديموقراطيات وهو أن تتحول إلى انشقاقات داخلية وصراعات بين الطوائف .

وقد رأينا أكثر من مرة كيف أن الأمريكيين — وبالأخص المثقفين والصحفيين ، وأيضا الموظفين القدامى — ينتقدون السياسة الخارجية لبلادهم لمجرد إنها من صنع إدارة حزب آخر مخالف لحزبهم .

ولست في حاجة إلى أن أعلن أني أصفق لموقف الأمريكيين لأنه أساس الحرية الحقيقية ، وإن كنت في الوقت نفسه لا أرضي عن عدم التزامهم جانب الحذر في التعبير عن انتقاداتهم ، لا لأني أريد تسكينهم ولكن حتى نحول دون أن تصبح هذه الممارسات للحرية سيفا في يد أعداء الحرية . وعادة فإن هذه الانتقادات يرحب بها ويتوسع فيها عملاء روسيا في القارات الخمس . وبالاضافة إلى ذلك فإن هذا الموقف من جانب الأمريكيين مثال آخر لعدم حساسيتهم تجاه الخارج : إنهم بالفعل خارج التاريخ .

(*) كتب أوكتافيو باث هذه السطور خلال الحملة الانتخابية بين الرئيس السابق جيمي كارتر والرئيس الحالي رونالد ريجان . ـ المترجم .

وبالطبع فإن المناقشات الداخلية والمعركة الانتخابية لا تعطي تفسيرا كاملا لظهور موضوع التدهور . إذ من الواضح أننا لسنا بإزاء اختراع دعائي وإنما إزاء أمر واقع ، ولكنه واقع مبالغ فيه أو بتعبير أصح مشوه .

إنني أشك في كلمة « تدهور » . فقد أطلق الناس على فيرلين وموتسوما **Moctezuma** ولويس الخامس عشر وجونجورا وأبي عبدالله (آخر ملوك غرناطة العرب) وجوستاف مورو(*) أطلقوا عليهم متدهورين **DECADENTES** لأسباب مختلفة ومتناقضة . وقد كتب مونتسكيو وجيبون وفيكو ونيتشة صفحات رائعة عن تدهور الامبراطوريات والحضارات ، كما تنبأ ماركس بنهاية النظام الرأسمالي ، وشخص اشبنجلر غروب ثقافة الغرب ، وشخص بندا **Benda** غروب فرنسا البيزنطية وهكذا دواليك . فإلى أي هذه التدهورات نشير ونحن نتحدث عن الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠ ؟ .

وبالرغم من كل هذه الشكوك وهذا الإبهام ، فإننا جميعا تقريبا نشترك في فكرة ــ أو بتعبير أصح إحساس ــ أننا نعيش في عصر شفقي . لكن اصطلاح « تدهور » لا يصف وضعنا إلا بشكل تقريبي . إننا لسنا إزاء نهاية امبراطورية أو حضارة أو نظام إنتاجي ، وإنما الشر أصبح عالميا ، إذ يشمل جميع النظم ، ويترصد بالقارات الخمس . إن موضوع الأزمة العامة للحضارة ليس جديدا ، فمنذ أكثر من مائة عام كتب الفلاسفة والمؤرخون كتبا و مقالات حول انحدار عالمنا . وعلى عكس ذلك فإن الموضوع التوأم ــ وهو الخاص بنهاية هذا العالم ــ كان دائما يعني سيطرة الفكر الديني . إنه اعتقاد اشتركت فيه عصور كثيرة وشعوب كثيرة مثل الهنود والسومريين والاستيك (السكان الأصليين للأمريكتين) والمسيحيين الأوائل والمسلمين . والآن انصهر الموضوعان ــ موضوع التدهور التاريخي وموضوع نهاية العالم ــ في موضوع واحد تتناوب عليه أصداء علمية وسياسية وأخروية وبيولوجية . إننا لا نعيش أزمة الحضارة العالمية فقط ، وإنما نعيش أزمة يمكن أن تنتهي بالقضاء على النوع البشري .

(*) كل هؤلاء كانوا يمثلون نهاية مرحلة عظيمة أو بداية التدهور سواء في الأدب أم في السياسة . فجونجورا مثلا هو آخر الشعراء العظام في عصر النهضة الإسباني ، وفرلين هو آخر شعراء الرمزية العظام .. إلخ .

إن هدم كوكب الأرض حدث لم يكتب عنه ماركس ولا نيتشه ولا أي فيلسوف آخر من الفلاسفة الذين اهتموا بموضوع التدهور . وفيما يتعلق بالفكر الديني ، فبالرغم من أن تخصصه هو الموت وميلاد الناس والمجتمعات ، فإن التقاليد الدينية كانت تؤكد دائما أن العالم سوف يهدم بواسطة كائنات علوية ، أو قوى كونية ، لا بواسطة صنع البشر أنفسهم باستخدامهم لأدوات(*) تقنية .

ومن جهة أخرى فإن العلم الحديث قد تحدث كثيرا عن النهاية الأخيرة ، أعني نهاية الكون بكامله وليس نهاية الأرض فقط ، فالقانون الثاني من الترموديناميكا ـــ أي التجمد التدريجي والسقوط اللانهائي في سكون فوضوي ـــ كان ولا يزال ناقوس يوم القيامة . ولكن السقوط النهائي للطاقة لن يكون من صنع الناس وإنما من صنع الاقتصاد الطبيعي نفسه . لقد تساءل الفلاسفة القدامى : هل الكون محكوم عليه بالفناء ؟ . وبعضهم مال إلى الافتراض القائل بأن الكون خالد وقائم بنفسه ، والبعض الآخر مال إلى النظرة الدائرية وتعني وقوع الكارثة **EKPYROSIS** التي يرى الرواقيون أنها تضع نهاية لمرحلة كونية ، وتضيء في الوقت نفسه نار البعث الكوني .

أما الفلسفة الحديثة فإنها لم تتحدث عن موضوع نهاية العالم ، ولا عن الأقوال الكونية الأخرى التي كانت منتشرة قديما . لكنها تحدثت عن الموت الفردي وعن تدهور المجتمعات والحضارات . أما فناء كوكبنا الأرضي فقد أصبح موضوعا يدخل في علوم الفزياء والعلوم الطبيعية الأخرى .

وفي النصف الثاني من القرن العشرين تحول موضوع نهاية العالم إلى موضوع شعبي يدخل ضمن التنافس بين البشر والتنافس بين الأفعال . أي أن الناس أصبحوا هم المسئولون عن فناء العالم أو بقائه . وهذه هي أكبر عملية تجديد تاريخي في هذا القرن . إنه تجديد مطلق ويمكن أن يعني نهاية كل التجديدات . ولو أن الأمر كذلك لكان في المصير شفاء للناس بطريقة هائلة ، ومطلقة أيضا من المرض الذي يعانون منه منذ البداية ، والذي زادت

---

* لم يعرف أوكتافيو باث بالطبع أن القرآن الكريم قد ذكر أن البشر سوف يفنون حضاراتهم بأيديهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ . سورة يونس آية ٢٤ ، ولكنه ينطلق كما ذكرنا من مفاهيم غربية .. المترجم .

حدثه منذ أكثر من قرنين وأدى إلى إفسادهم ، وهو مرض الشراهة للتجديد ، وعبادة المستقبل بشكل غير معقول . ومثل أرواح دانتي فربما يحكم علينا بإلغاء المستقبل ، لكننا على عكس هذه الأرواح لن نستطيع رؤية هذا الحدث البعيد عن الذهن . والحق أن مصيرنا قد يكون بالضبط عكس مصيرهم أي الموت الخالد ، وهي سيمترية مشئومة . وبذلك فإن عصرنا سوف يحقق مصيره حتى النهاية ، وذلك بأن يظل سلبا للمسيحية .

والولايات المتحدة جزء — وجزء مهم — من أزمة الحضارة الشاملة ، كما أنهم يشتركون مع الروس في مسئولية القضاء على النوع البشري وربما على الحياة نفسها على هذا الكوكب . ولكن من الواضح أننا عندما نتحدث عن جمهورية الولايات المتحدة الإمبريالية فإننا نشير إلى شيء آخر مختلف كل الاختلاف . فمن منظور الأزمة العالمية للحضارة نجد أن الولايات المتحدة كانت معاناتها من فظائع عصرنا وأضراره أقل بكثير من معاناة كل الأمم الأخرى تقريبا .

وبالرغم من أنهم (أي الأمريكيين) قد مروا بخطوب كثيرة ، وجربوا تغييرات هائلة فإن أسسهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم تمس حتى الآن . فالديموقراطية الأمريكية قد استطاعت أن تصحح — وإن لم يكن بالكامل — أخطاءها الكثيرة في سيادة الحقوق بالنسبة للأقليات العنصرية . كما اتضح أيضا التحسن في مجال الحريات الفردية ، واحترام الأخلاق الخاصة والحياة الخاصة .

وأخيرا فإن الأمريكيين لم يعرفوا الشمولية التي عرفها الألمان والروس والأمم التي تعيش تحت السيطرة السوفييتية . كما أنهم لم يُحتلوا ، أو يروا مدنهم مهدمة ، ولم يعانوا كذلك من الدكتاتوريات أو الحروب الأهلية أو الجوع أو الخزي أو الابتزاز وهي أمور عانت منها شعوب أخرى كثيرة .

ولا يملك أي زائر للولايات المتحدة إلا أن يكون رد فعله الطبيعي الأول هو الدهشة . وقليلون هم الذين ذهبوا إلى أبعد من المفاجأة الأولى — أي بالإعجاب المختلط أحيانا بالاستنكار — وتبين لهم أصالة هذا البلد . وأحد هؤلاء القلائل هو توكفيل **Tocquéville** . إن آراءه في هذا الصدد لم تتقادم بعد . لقد تنبأ بالعظمة المستقبلية للولايات المتحدة ، وبطابع الصراع الذي سكن فيها منذ نشأتها . وهو صراع يعود إلى

ما أحدثته من منجزات عظيمة ومن تخبطات في الوقت نفسه . إنه التعارض بين الحرية والمساواة ، بين الفردية والديموقراطية ، بين الحريات المحلية والمركزية الحكومية . ولعل نظرة هنري آدمز Henry Adams بالرغم من أنها أقل شمولا فإنها أكثر عمقا . لقد رأى في داخل المجتمع الأمريكي التعارض بين الدينامية التي تحول العالم ، وإن كانت تختصره في سلسلة أشكال ، وبين العذرية وهي الطاقة الطبيعية والروحية التي تروي وتضيء روح الناس وتحدث بذلك تنوعا واختلافا بين أعمالنا . وقد تنبأ توكيفيل وآدمز في شفافية بما حدث بعد ذلك . ونحن الآن نشاهد مايحدث . ومن هذا المنظور نرى أن هذه التأملات ليست باطلة في معظمها .

وعندما أتحدث عن الأصالة لا أشير إلى التناقضات التي نعرفها جميعا مثل الثروة الهائلة والتطرف في الملكية الخاصة ، والسوقية الصارخة والجمال البالغ غاية الصفاء ، والطمع والإيثار ، والطاقة الخلاقة والاستنامة للمخدرات أو تلذذ السكران ، والحرية الشامخة ودعة القطيع ، والدقة الذهنية وهذيان المعتوه ، والمبالغة في التكلف أو المبالغة في الخلاعة ، أقول لا أشير إلى هذه التناقضات ، وإنما إلى التجديد التاريخي الذي تنطوي عليه الولايات المتحدة .

فلم يحدث أبدا في تاريخ البشرية السابق أن وجد مايشبه هذا الواقع المتلون بألوان كثيرة غير متناسقة ، أو بتعبير آخر الممتلىء بنفسه . ممتلىء وفارغ . وإلا فما الذي يوجد خلف هذا التنوع الهائل في المنتجات والثروات ، الذي يقدم لنا بنوع من الوقاحة الكريمة ؟ إنها ثروة فاتنة ، أي أنها خادعة .

وأنا إذ أقول ذلك لا أفكر في مظالم المجتمع الأمريكي ومابه من عدم مساواة ، بالرغم من أنها كثيرة وإن كانت — والحق يقال — أقل وأقل خطورة من المظالم الموجودة عندنا (يقصد في المكسيك) والمظالم الموجودة لدى معظم الأمم . أقول ثروة خادعة ولا أقصد أنها غير حقيقية وإنما لأني أتساءل هل يمكن لمجتمع أن يعيش منغلقا في دائرة الإنتاج والاستهلاك والعمل واللذة ؟ . وسيقال إن هذا الوضع ليس فريدا ، وإنما هو وضع مشترك في كل البلاد الصناعية . هذا صحيح ، ولكن الوضع في الولايات المتحدة وصل إلى أقصى حدوده ، لأنها هي الأمة التي ذهبت بعيدا في هذا المجال ، فضلا عن أنها تعد التعبير الأمثل للحداثة .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن وضع الولايات المتحدة ينطوي على شيء فريد لا يظهر في الأمم الأخرى .

وأكرر سؤالي : ماالذي يوجد خلف هذه الثروة ؟ لا أستطيع الإجابة ، فلا أجد شيئا ، ولا يوجد شيء . فكل المؤسسات الأمريكية وتقنيتها وعلومها وطاقتها وتعليمها وسيلة . والحرية والديموقراطية والعمل والعبقرية الاختراعية والمثابرة ، واحترام الكلمة .. كل هذا في الخدمة ، وكله وسيلة للحصول على شيء . ماهو ؟ هل هو السعادة في هذه الحياة الدنيا والخلاص في الآخرة ، والخير والحقيقة والحكمة والحب ؟

إن الغايات النهائية التي تحسب حقيقة لأنها هي التي تعطي معنى لحياتنا ، هذه الغايات لا تظهر في أفق الولايات المتحدة . إنها موجودة ، نعم ، لكنها تدخل ضمن الحيازة الخاصة فالأسئلة والإجابات حول الحياة ومعناها ، والموت ، والحياة الآخرة ، والتي كانت في العادة من خصوصيات الكنيسة أو الدولة ، كانت موضوعات تدخل ضمن السيادة العامة .

والتجديد الكبير الذي أتت به الولايات المتحدة يتمثل في محاولة إعادة هذه الأمور إلى حظيرة الحياة الخاصة بكل فرد . ومافعله الإصلاح البروتستانتي في مجال العقائد والمشاعر الدينية فعله اتحاد الولايات المتحدة الأمريكية في المجال الدنيوي . إنه تجديد هائل ، وتغيير بلا سوابق في الماضي . فما الذي يبقى إذن لعمل الدولة أي للتاريخ ؟ .

إن المجتمع الأمريكي ، على عكس كل المجتمعات الأخرى المعروفة ، قد تأسس بهدف أن يستطيع مواطنوه تحقيق أهدافهم الخاصة في سلام وبحرية كاملة . إن الخير المشترك لا يتمثل في هدف جماعي أو فيما وراء التاريخ وإنما في التعايش المتناسق للأهداف الفردية . وهل تستطيع الأمم أن تعيش بدون عقائدَ مشتركةٍ وبدون إيديولوجية تتجاوز التاريخ ؟ فمن قبل كانت أحداث كل شعب وتحركاته تتغذى ويتم تبريرها بشيء يتجاوز التاريخ ، بمعنى أن ثمة هدفا مشتركا يعلو على الأفراد فضلا عن أنه كان يشير إلى قيم متعالية أو تستهدف أن تكون كذلك .

ومن الحق أن نقول : إن الأمريكيين يشتركون في معتقدات وقيم وأفكار مثل الحرية والديموقراطية والعدالة والعمل .. ولكن كل هذه الأمور مجرد وسائل من أجل بلوغ هذا أو ذاك . والأهداف الأخيرة لأعمالهم وأفكارهم ليست متصلة بالسيادة العامة وإنما

الذي اغتصبته منه الدولة منذ نشأته .

ولا أريد بذلك أن أقول إن الدولة الأمريكية هي الدولة الليبرالية الوحيدة . فتأسيسها تم على مثال هولندة وانجلترا وفلسفة القرن الثامن عشر . ولكن الأمة الأمريكية ، وليست الدولة فقط ، قد تميزت عن الأمم الأخرى بأنها تأسست ومعها هذه الأفكار والمبادىء . وعلى عكس ماحدث في أجزاء أخرى فإن الدستور الأمريكي لا يعدل أو يغير في وضع سابق ، كأن يكون هناك من قبل نظام ملكي به طبقات وارثة وأجهزة وتشريعات خاصة ، وإنما يقيم مجتمعا جديدا . إنها بداية مطلقة .

وقد قيل في كثير من الأحيان إنه في المجتمعات الديموقراطية الليبرالية ، وبالأخص في المجتمع الأمريكي نجد المجموعات والأفراد ، وبصورة خاصة المؤسسات الرأسمالية بل والبيروقراطيات العمالية والقطاعات الأخرى أيضا ، عندما تنمو بدون توقف تتحول سيطرة الدولة إلى نوع آخر من سيطرة المصالح الخاصة . وهذا النقد صحيح ، ومع ذلك يجب أن نضيف أن هذا واقع يشوه المشروع الأصلي بشكل خطر لكنه لا يلغيه . إن المبدأ الأساسي يظل حيا . والدليل على ذلك أنه يستمر في إلهامه لحركات النقد الذاتي والإصلاح التي تظهر في الولايات المتحدة من حين لآخر . وكل هذا يأتي وكأنه بمثابة عودة إلى الأصول .

إن الأصالة التاريخية للأمة الأمريكية ، فضلا عن جذور التناقض فيها ، مستلهمة من طريقة تأسيسها نفسه . إن الولايات المتحدة قد تأسست كي يتعايش مواطنوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، ويكونوا في النهاية أحرارا من ثقل التاريخ ، ومن الأهداف الماوراء تاريخية التي ألصقتها الدولة بمجتمعات الماضي . إنه إنشاء ضد التاريخ وضد نكباته ، موجه للمستقبل ، هذا الكائن المجهول الذي ارتبط به الأمريكيون . إن عبادة المستقبل تدخل بشكل طبيعي في المشروع الأمريكي ، وهي لذلك بمثابة شرط له أو نتيجة . إن المجتمع الأمريكي قد تأسس بفعل إلغاء الماضي . ومواطنوه ، على عكس الانجليز أو اليابانيين والألمان أو الصينيين والمكسيكيين أو البرتغاليين ، ليسوا أبناء وإنما هم بداية تراث . إنهم ليسوا استمرارا لماض ، وإنما يبدأون عصرا جديدا . إن حدث التأسيس (ومحضر

التأسيس أيضا) . بمثابة إلغاء للماضي ، وبداية شيء مختلف ، وهذا الشيء يتكرر بلا توقف على امتداد تاريخهم : فكل حدث من أحداثهم يتحدد بإزاء المستقبل وليس في مواجهة الماضي . إنه خطوة جديدة في المكان . ولكن إلى أين ؟ نحو لا مكان ، في كل مكان ماعدا هنا أو الآن . فالمستقبل ليس له وجه وهو مجرد إمكانية . لكن الولايات المتحدة ليست في المستقبل ، وهو منطقة غير موجودة ، وإنما هي هنا في اللحظة الراهنة موجودة بيننا ، إنها تلك الشعوب الغريبة على التاريخ . إنها امبراطورية ، أقل حركة فيها تهز العالم بكامله . لقد أرادوا أن يكونوا خارج العالم ، لكنهم في العالم ، بل إنهم العالم نفسه . ومن هنا يأتي التناقض في المجتمع الأمريكي المعاصر : لأنه يريد أن يكون امبراطورية ، وأن يكون ديموقراطية . وهذا التناقض يأتي نتيجة لتناقض آخر أكثر عمقا ، هو أن هذا المجتمع الأمريكي قد تأسس ضد التاريخ ثم إنه هو التاريخ نفسه .

وفي زيارة أخيرة قمت بها للولايات المتحدة فوجئت بغزارة الكتب والمجلات المعروضة في الفترينات وأرفف المكتبات في نيويورك وكامبردج والتي تعالج موضوع التدهور . وهذه المطبوعات ترضي من جهة الاتجاه الأمريكي إلى النقد الذاتي وإلى جلْد الذات ، كما أنها من جهة أخرى إنتاج لصناعة النشر . ففي مجتمع تحكمه عبارة الموضة ــ وهي عبارة تتحول أيضا إلى تجارة ــ نجد أن موضوعا مثل موضوع التدهور يصبح شيئا جديدا كما يصبح تجارة . وكثير من هذه الكتب والمقالات عن غروب شمس الولايات المتحدة مجرد تأملات وذلك بالمعنى المزدوج لهذه الكلمة . كما أنها في الوقت نفسه ، سواء كانت حسنة أم سيئة ، تؤدي وظيفة نفسية وأخلاقية لا أدري هل أسميها تعويضا أو تطهيرا . إن الأمريكيين يسلمون أنفسهم الآن بنوع من الشراهة المبهمة إلى اللذات المتقدة لتأنيب الضمير . فهل هذه علامة مرض أم أنها بحث عن الصحة ؟

ولا بد أن نميز بين الكتب والأبحاث والمقالات التي تتحدث عن تدهور الولايات المتحدة . فكثير منها مجرد تعمق أو تحوير متفاوت الذكاء لتلك الأوهام الجماعية التي يفرزها ، بين كل فترة وأخرى ، عالمنا المتعطش دائما للتجديدات والكوارث . وبعض الكتب الأخرى ، الأكثر جدية ، عبارة عن تحليلات محددة حول مشكلات محددة وقطاعات محددة مثل المسائل العسكرية ، والعلاقات الدولية ، والشؤون الاقتصادية . وكل هذه الكتب تقريبا مقنعة ، وبعد أن تقرأها من الصعب ألا توافق على أننا منذ عدة

سنوات نشاهد الانخفاض التدريجي في القوة العسكرية والسياسية للولايات المتحدة . فالجمهورية الامبريالية ، حسبما تنذرنا علامات كثيرة ، قد بلغت نصف يومها ، بل إنها قد بدأت فترة الهبوط . إنها عملية بطيئة ويمكن أن تستغرق قرنا مثلما حدث مع إسبانيا أو تستغرق أربعة أو خمسة قرون كما حدث مع روما . لكن ، على عكس ماحدث في الماضي ، لا يرى حتى الآن في الأفق التاريخي مطلع نجم جديد . إن الآلام والتناقضات لدى منافسها الأكبر (يقصد الاتحاد السوفييتي) أكثر خطورة وربما يستحيل شفاؤها . فالاتحاد السوفييتي مجتمع طوائف وهو إمبراطورية مكونة من أمم متعددة تقع تحت سيطرة روسيا العظمى . ولذلك فإنه يعيش بين تهديد التحجر ، وتهديد الانفجار .

أبيقورية أم كالفينية ؟(*) :

إن الولايات المتحدة تمر بمرحلة شك وبلبلة . إنها وإن لم تفقد الإيمان بمؤسساتها — ووترجيت كانت مثالا عجيبا لذلك — فإنها لم تعد تؤمن مثل ذي قبل بمصير أمتها . ومن المستحيل في إطار حدود هذا الكتاب أن نفحص أسباب ذلك ومسبباته : إنها أمور تخضع « للحساب الطويل » . ويكفي أن نقول إنه من المحتمل أن تكون الحالة الراهنة لروح الشعب الأمريكي مترتبة على ظاهرتين متعارضتين ، ولكن كما يحدث غالبا في التاريخ ، فإنهما قد تداخلتا . والظاهرة الأولى هي الشعور بالذنب الذي أحدثته حرب فيتنام في نفوس كثيرة ، أما الظاهرة الثانية فهي تآكل الأخلاقيات النقية وبلوغ التلذذية ذروتها . إن الشعور بالذنب ، وقد اختلط بذلّ الهزيمة ، عمل على تقوية الانعزالية التقليدية التي نظرت دائما إلى الديموقراطية الأمريكية على أنها جزيرة من الفضيلة وسط بحر من فساد التاريخ العالمي . أما التلذذية ، فإنها من جهتها تتجاهل العالم الخارجي ومن ثم فإنها تتجاهل التاريخ .

وبذلك فإن الانعزالية والتلذذية يتفقان في نقطة واحدة هي أن كلا منهما ضد التاريخ . وكلاهما تعبير عن صراع موجود في المجتمع الأمريكي منذ حربه مع المكسيك عام ١٨٤٧ ولكنه لم يصبح واضحا للعيان إلا في هذا القرن : إنه يتمثل في كون الولايات المتحدة ديموقراطية مع أنها في الوقت نفسه إمبراطورية . وأضيف : إنها إمبراطورية خاصة ، نظرا

(*) الابيقورية نسبة إلى أبيقور الفيلسوف اليوناني صاحب فلسفة كانت تنشد اللذة خالية من أي ألم . والكالفينية نسبة إلى كالفن ، وهي فلسفة إصلاحية كسبة تعد أحد فروع البروتستنتينية وقد ظهرت في عصر النهضة الأوروبي .

لأنها لا تتفق تماما مع التعريف الكلاسيكي للإمبراطوريات . إنها شيء مختلف عما كانت عليه الإمبراطوريات الرومانية والإسبانية والبرتغالية والإنجليزية .

إنهم في حيرة إزاء طبيعتهم التاريخية المزدوجة ، وهم الآن لا يعرفون أي طريق يسلكون . إن اللحظة الفاصلة قاتلة : ذلك لأنهم لو اختاروا الطريق الإمبريالي فسوف يتخلون عن صفة الديموقراطية ، وبذلك سيفقدون سبب وجودهم كأمة . ولكن ، كيف يتخلون عن القوة دون أن يصيبهم الدمار الفوري من قبل منافستهم الإمبراطورية الروسية ؟

ربما يقال إن بريطانيا العظمى كانت ديموقراطية وإمبراطورية . لكن الوضع المعاصر مختلف كل الاختلاف : فالإمبراطورية البريطانية كانت بصفة خاصة استعمارية وممتدة فيما وراء البحار ، كما أنها في سياستها الأوروبية والأمريكية لم تبحث عن التنسيق وإنما عن توازن القوى . والآن فإن سياسة توازن القوى تتوافق مع مرحلة أخرى من التاريخ العالمي ، لأنه لا بريطانيا العظمى ولا القوى الأوروبية العظمى الأخرى اضطرت أن تواجه دولة مثل الاتحاد السوفييتي حيث يرتبط توسعها الإمبريالي ارتباطا وثيقا بعقيدة عالمية . إن الدولة البيروقراطية الروسية لا تتطلع للسيطرة العالمية فقط وإنما هي عبارة عن عقيدة لا تسمح بوجود إيديولوجيات أخرى أو نظم حكومية أخرى .

ولو أننا بدلا من أن نقابل الوضع الدولي الذي تواجهه حاليا الولايات المتحدة بالوضع الذي ساد في أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الماضي ، فكرنا في روما في نهاية عصر الجمهورية ، فإن المقارنة حينئذ لن تصبح في صالح الديموقراطية الأمريكية . إن مشاكل روما من القرن الأول قبل المسيح كانت بالأخص ذات طابع داخلي وهذا يفسر في جزء منه وحشية المعارك بين الطوائف المختلفة . إن روما كانت قد وصلت إلى السيطرة على العالم المعروف في ذلك الوقت وكان منافسها الوحيد إمبراطورية في موقف الدفاع .

وبالإضافة إلى ذلك فإن كل القوى التي دخلت في معارك مع الرومان لم تكن مرتبطة بإيديولوجية عالمية . وفي مقابل ذلك نجد أن تناقض السياسة الخارجية الأمريكية ـــ وهو نتيجة للمعارك بين المجموعات والأحزاب ولعدم قدرة الزعماء على عمل خطة عامة ذات مدى طويل ـــ يتوافق مع وجود إمبراطورية عدوانية تحمل إيديولوجية عالمية ومن فيض السوء أن التحالف الغربي عبارة عن مجموعة من البلدان لا تتفق مصالحها وسياساتها باستمرار مع مصالح وسياسات الولايات المتحدة .

إن توسع الجمهورية الأمريكية كان نتيجة طبيعية ، وبشكل ما ، مأساوية لنموها الاقتصادي والاجتماعي ، أما التوسع الروماني فكان نتيجة الفعل المقصود من قبل الأوليجاركية الحاكمة وجنرالاتها على امتداد أكثر من قرنين . والسياسة الخارجية لروما نموذج واضح للتنسيق ووحدة الهدف والمثابرة والمهارة والعناد والإصابة ، أي كل الفضائل التي نفتقدها في الأمريكيين . وكان توكيفيل هو أول من رأى موطن الخطأ وأين يكمن . يقول : « فيما يتعلق بإدارة الشئون الخارجية للمجتمع فإن الحكومات الديموقراطية تبدو لي في مجال الحسم أدنى من الحكومات الأخرى .. إن السياسة الخارجية لا تتطلب استخدام معظم الصفات الخاصة بالديموقراطية ، لكنها على العكس تستدعي تنمية معظم الصفات التي تنقصها .. إن الديموقراطية تستطيع بصعوبة أن تنسق بين تفاصيل مشروع كبير ، وأن تضع خطة مسبقة وتمضي فيها بإصرار عبر كل العوائق . إن أهليتها محدودة في مزج كل الوسائل بسرية وانتظار نتائجها في صبر . فهذه صفات بالتحديد هي التي تجعل الشعوب باعتبارها فردا واحدا تنتهي بالسيطرة على المدى الطويل » .

إن أساس الديموقراطية الأمريكية ديني ، حيث نجده عند جماعات المنشقين البروتستانت الذين عاشوا في هذه البلد خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وهذه الاهتمامات الدينية تحولت فيما بعد إلى أفكار سياسية مخضبة بأفكار جمهورية وديموقراطية وفردية ، لكن الصبغة الأصلية لم تختف أبدا من الضمير العام . فالدين والأخلاق والسياسة لم تنفصل أبدا في الولايات المتحدة . وهذا هو الفرق الكبير بين الليبرالية الأوروبية ، التي هي في الغالب علمانية وضد الكنيسة ، وبين الليبرالية الأمريكية . فالأفكار الديموقراطية لها عند الأمريكيين جذور دينية مضمرة أحيانا ، وظاهرة في أكثر الأحيان .

وهذه الأفكار بررت المحاولة الفريدة في التاريخ بإقامة أمة تشبه « الميثاق » في مقابل ، بل في مواجهة الضرورة أو الحتمية التاريخية . ففي الولايات المتحدة لم يكن العقد الاجتماعي تلفيقا وإنما كان واقعا ، وقد تحقق بشكل لا يعد تكرارا للتاريخ الأوروبي . وهذا هو أصل الانعزالية الأمريكية : أي محاولة إقامة مجتمع يكون على مقاس الخطوب التي عانت منها الشعوب الأوروبية . وقد كان ومازال — كما ذكرت آنفا — تكوينا ضد التاريخ ، أو بمعنى أصح خارج التاريخ .

ومن هنا فإن التوسع الأمريكي حتى مرحلة الحرب مع المكسيك كان موجها لاستعمار الفضاء الفارغ ـ وكان الهنود ينظر إليهم دائما على أنهم جزء من الطبيعة ـ وهذا الفضاء مازال أكثر فراغا حتى الآن ، إنه المستقبل .

ولو استطاع الأمريكيون لأغلقوا على أنفسهم في بلدهم وأداروا ظهرهم للعالم باستثناء التعامل معه تجاريا أو زيارته . إن اليوتوبيا ـ الأمريكية التي تكثر فيها ، مثل كل اليوتوبيات ، كثير من العلامات المفزعة ـ مكونة من اختلاط أحلام ثلاثة وهي : حلم الناسك وحلم التاجر وحلم المكتشف . إنها ثلاثة أشياء فردية .

ومن هنا يأتي عدم الرغبة الذي يظهر لديهم عندما يضطرون لمواجهة العالم الخارجي ، وعدم قدرتهم على فهمه وعدم خبرتهم في التعامل معه . إنهم إمبراطورية ، ومحاطون بأمم متحالفة معهم ، وأمم أخرى تريد تدميرهم ، لكنهم كانوا يودون لو ظلوا بمفردهم : فالعالم الخارجي هو الشر والتاريخ هو الخسارة . إنهم على عكس روسيا ، وهو بلد آخر ديني ، وإن كان يطابق بين الدين والكنيسة ويجد الخلط بين الإيديولوجية والحزب أمرا مشروعا .

إن الدولة الشيوعية ـ كما شوهد بوضوح خلال الحرب الماضية ـ استمرار للدولة القيصرية وليست مجرد خلف لها . إن مصطلح العقد أو الميثاق **Convenant** لم يظهر أبدا في التاريخ السياسي لروسيا ، لا في التراث القيصري ولا في التراث البلشفي . كما لم تظهر أيضا فكرة الدين كشيء يدخل في إطار السيادة الوجدانية ، لأن الروس يرون أن الدين والسياسة لا ينسبان لدائرة الضمير الخاص وإنما الضمير العام . والأمريكيون أرادوا ويريدون إقامة عالم خاص هو عالمهم الواقع خارج هذا العالم ، بينما الروس أرادوا ويريدون السيطرة على العالم من أجل تغييره .

إن تناقض الولايات المتحدة يؤثر على الأسس نفسها التي تقوم عليها الأمة . ومن ثم فإن التأمل في وضع الولايات المتحدة ومكانتها الحالية يجرنا إلى هذا السؤال : هل سيستطيع الأمريكيون أن يحلوا مشكلة التناقض بين الإمبراطورية والديموقراطية ؟ إن حياتهم وهويتهم تكمن في ذلك . وبالرغم من أنه من الصعب الإجابة عن هذا السؤال فإنه لا بأس من التعليق عليه .

إن الشعور بالذنب يمكن أن يتحول ، إذا استخدم استخداما صحيحا ، إلى بداية للصحة السياسية ، أما التلذذية فعلى عكس ذلك لأنها لا تؤدي إلا إلى الاستقالة والخراب والهزيمة . فمن الحق أننا بعد حرب فيتنام وفضيحة ووترجيت شاهدنا نوعا من حمّى المازوكية ورأينا كثيرا من المثقفين ورجال الكنيسة والصحفيين يشقون ملابسهم ويضربون صدورهم تعبيرا عن الندم .

وهذا الاتهامات الذاتية لم تكن وليست زائفة لكنها أخذت ومازالت تأخذ شكل الهذيان في كثير من الأحيان ، وذلك مثلما حدث مع صحفي في جريدة « نيويورك تايمز » يتهم السياسة الأمريكية في الهند الصينية بأنها هي المتسببة في الفظائع التي ارتكبها فيما بعد الخمير الحمر والفيتناميون .

ومع ذلك فإن الشعور بالذنب ، بالإضافة إلى مافيه من تعويض يحتفظ بالتوازن النفسي ، يشتمل على قيمة أخلاقية : إنه يولد من اختيار الضمير والاعتراف بأن الشخص قد تصرف على نحو سيء . ومن ثم فإنه يمكن أن يتحول إلى نوع من الشعور بالمسئولية ، وهو الترياق الوحيد ضد نشوة التسلط سواء عند الأفراد أو عند الامبراطوريات .

وعلى عكس ذلك فإنه من الصعب تحويل التلذذية الوبائية عند الجماهير الحديثة إلى قوة أخلاقية . لكن ليس من الطموح أن نثق في الأساس الأخلاقي والديني للشعب الأمريكي ، فهو نبع مُعوّق لكنه غير مردوم .

إن السياسة الخارجية للولايات المتحدة كانت مذبذبة وخاطئة ومتناقضة في بعض الأحيان أو غير متناسقة في أحيان أخرى . والعيب الرئيسي لهذا التصرف ، وعدم تآلفه لا يكمن فقط في أخطاء القادة ، وهم كثيرون ، وإنما في كونها سياسة تتميز بحساسية أكثر تجاه ردود الفعل الداخلية عنها تجاه ردود الفعل الخارجية . وأهدافها هي ردع الاتحاد السوفييتي وقواته المتقدمة (في كوبا وفيتنام مثلا) ، وتعزيز التحالف مع اليابان والديموقراطيات الأوروبية ، وتوثيق الروابط مع الصين والتوصل إلى تسوية لمشكلة الشرق الأوسط تحافظ على استقلال إسرائيل وتضمن الصداقة مع مصر كما تكسب صداقات من الدول العربية الأخرى ودول أمريكا اللاتينية وأفريقيا وآسيا . هذه هي الأهداف المعلنة .. لكن الأهداف الحقيقية هي كسب الأصوات وتلبية طموحات أو تطلعات هذه المجموعة

أو تلك سواء كانت اليهود أو السود أو العمال أو المزارعين أو سكان الشرق أو التكساسيين . ومن الواضح أن سياسة أي قوة عظمى لا يمكن أن تظل تابعة للمصالح المتغيرة والمختلفة للمجموعات المختلفة . إن الصراعات بين الأحزاب قد تسببت في فقدان أثينا وذلك بأكثر مما فعلت أسلحة إسبرطة .

وكل هذا التعداد لأخطاء السياسة الأمريكية يجب أن ينتهي بهذه النقطة المخلّصة ، وهي أن هذه الأخطاء ، المبالغ فيها من قبل وسائل الإعلام والتطلعات السياسية ، تنم عن خطايا وأخطاء ملتصقة بالديموقراطية الجماعية لكنها لا تعني وجود ضعف جوهري . إن الولايات المتحدة قد لقيت هزائم وخسائر ، لكن قوتها الاقتصادية والعلمية والتقنية مازالت أعلى من قوة الاتحاد السوفييتي أيضا فإن نظامها السياسي والاجتماعي أقوى من نظام الاتحاد السوفييتي . إن المؤسسات الأمريكية قد أُهّلت لخلق مجتمع يظل في حركة دائمة بينما النظام السوفييتي يخلق مجتمعا ساكنا يتكون من الصفوة .

ولهذا فإن أي تغيير في الاتحاد السوفييتي يضع أسس النظام نفسه في خطر . إن المؤسسات الروسية لا تتحمل تجربة مثل تجربة انتخاب رئيس للولايات المتحدة كل أربع سنوات وظاهرة مثل ووترجيت كان يمكن أن تحدث ثورة في روسيا . ويدور حديث كثير حول دونية الأمريكيين في المجال العسكري . وبالأخص في مجال الأسلحة التقليدية . لكنها دونية مرحلية . إن الولايات المتحدة تملك من الموارد المادية والبشرية مايمكنها من إعادة التوازن العسكري . وماذا عن الإرادة السياسية ؟ إنه من الصعب تقديم إجابة صائبة عن هذا السؤال .

إن الأمريكيين عانوا ، في السنوات الأخيرة ، من عدم استقرار نفسي حملهم من طرف إلى طرف آخر . وهم لم يفقدوا الاتجاه فقط وإنما فقدوا السيطرة على أنفسهم . والولايات المتحدة لم تفتقر إلى القوة أبدا وإنما افتقرت إلى الحكمة . وبعيدا عن المبالغات الدعائية فإن كلمة « تدهور » تنطبق على الولايات المتحدة بالمعنى الأخلاقي والسياسي . فثمة هوة ملحوظة بين قوتها وسياستها الخارجية ، وبين فضائلها الداخلية وتصرفاتها الدولية . فالشعب الأمريكي وزعماؤه تنقصهم تلك الحاسة السادسة التي كانت عند كل الأمم العظمى تقريبا وهي الحذر . وهذه الكلمة منذ أرسطوطاليس حتى الآن تدل على أعلى فضيلة سياسية .

إن الحذر مصنوع من الحكمة والنزاهة ، والجسارة والاعتدال ، والتمييز والإصرار في العمل . إن أفضل تعريف للحذر قال به أخيرا كاستورياديس Castoriadis : « إنه ـ أي الحذر ـ هو القدرة على التوجه في التاريخ . وهي قدرة يفتقدها معظمنا في الولايات المتحدة » .

وعادة ما تقارن الولايات المتحدة بروما . والمقارنة ليست صحيحة في كل الوجوه : ففي روما لم يظهر العنصر اليوتوبي ـ الذي هو عنصر أساسي في الولايات المتحدة ـ وإنما كان نافعا . ويرى مونتسكيو Monstesquieu أن تدهور الرومان كان له سبب مزدوج هو سلطة الجيش وفساد الترف . والسبب الأول هو أصل قيام الامبراطورية . أما السبب الثاني فهو أصل انهيارها .

فالجيش خول لهم السيطرة على العالم ، ولكن بالجيش نفسه ترهلت اللامسئولية والإسراف . فهل سيكون الأمريكيون أكثر حكمة وقناعة من الرومان ويظهرون قوة أكبر في النشاط ؟ يبدو أن هذا أمر في غاية الصعوبة . ومع ذلك فثمة نقطة لعلها كانت تعمل على تشجيع مونتسكيو وهي أن الأمريكيين عرفوا كيف يدافعون عن مؤسساتهم الديموقراطية بل إنهم قد توسعوا فيها واستكملوا بعض ماينقصها .

وفي روما فرض الجيش السلطة المطلقة للقياصرة أما الولايات المتحدة فإنها تعاني من سيئات وخطايا الحرية لا من سيئات وخطايا التسلط . إن التقليد الأخلاقي الخاص بالنقد ، وهو الذي صاحب الولايات المتحدة على امتداد تاريخها ، مازال حيا وإن كان مشوها . وبالتحديد فإن هذه المظاهر المفرطة للمازوكية هي تعبيرات مريضة عن هذا المطلب الأخلاقي .

والولايات المتحدة في الماضي عرفت كيف تحل مشاكل أخرى من خلال النقد الذاتي . وهم الآن قد أظهروا قدرتهم على التجديد . فخلال العشرين سنة الأخيرة مضوا خطوات كبيرة في حل التناقض الآخر الكبير الذي يمزقهم وهو المسألة العنصرية . وليس من المستحيل أن تصبح الولايات المتحدة في نهايات القرن الحالي أول ديموقراطية متعددة الأجناس في التاريخ .

إن النظام الديموقراطي الأمريكي بالرغم من سيئاته وخطاياه الخطيرة ، يؤكد الرأي القديم وهو : « إنه وإن لم تكن الديموقراطية هي الحكومة المثالية فإنها هي الأقل خطأ » .

إن أحد المكاسب العظيمة للشعب الأمريكي هي أنه استطاع أن يحافظ على الديموقراطية في مواجهة تهديدين كبيرين معاصرين هما الأوليجاركيات الرأسمالية القوية والدولة البيروقراطية في القرن العشرين .

كما أن ثمة شيئا آخر إيجابيا وهو أن الأمريكيين قد أحدثوا تقدما كبيرا في فن التعايش الإنساني سواء بين المجموعات العنصرية المختلفة ، أو في مجال بعض الأمور المحرمة عادة من جانب الأخلاق التقليدية ، وبعض النقاد يأسفون على الإباحية وترهل العادات في المجتمع الأمريكي ، ولكن يبدو لي أن التطرف في الجانب الآخر أكثر سوءا مثلما يحدث في المعسكر الشرقي أو تلك الحشمة الدامية عند الخميني .

وأخيرا فإن تطور العلوم والتكنولوجيا هو نتيجة مباشرة لحرية البحث والنقد السائدة في الجامعات ومعاهد الثقافة في الولايات المتحدة . وليس من قبيل الصدفة تفوق أمريكا في هذه المجالات .

إذن كيف ولماذا نجد قلة ذكاء صارخة لدى ساسة هذه الديموقراطية التي لم تتوقف أبدا عن إظهار خصوبتها يوما بعد يوم في مجالات العلوم والتقنية والفنون ؟ وهل نقاد الديموقراطية عندهم حق في ذلك ؟. يجب أن نقبل أن إرادة الغالبية ليست مرادفة للحكمة ، فالألمان صوتوا لهتلر ، كما أن شامبرلين انتخب بطريقة ديموقراطية . إن النظام الديموقراطي معرض لنفس الخطر الذي تتعرض له الملكية الوراثية . إن أخطاء الإرادة الشعبية كثيرة مثل أخطاء قوانين الوراثة والانتخابات السيئة لا يمكن توقعها مثل مولد ورثة للعرش بهم نقيصة . والدواء يكمن في نظام التوازن والرقابة أي استقلال السلطة القضائية والسلطة التشريعية ، وثقل الرأي العام على القرارات الحكومية من خلال الممارسة الصحية العاقلة للنقد عن طريق وسائل الإعلام . ولسوء الحظ فإنه لا مجلس الشيوخ ولا وسائل الإعلام ولا الرأي العام أعطوا خلال السنتين الأخيرتين علامات تنم عن الحذر السياسي . وبهذا فإن عدم ثبات السياسة الخارجية للأمريكيين لا يعزي إلى حكامها وساستها فقط وإنما إلى الأمة بكاملها . وليست مصالح المجموعات والأحزاب هي التي تتعارض مع الأهداف الجماعية فقط وإنما ظهر أن الرأي العام الأمريكي غير قادر على فهم مايحدث بعيدا عن حدوده .

وهذا النقد ينسحب على الليبراليين مثلما ينسحب على المحافظين ، وينسحب على رجال الكنيسة مثلما ينسحب على زعماء النقابات . مع أنه ليس ثمة بلد مغطى إعلاميا بشكل جيد أكثر من الولايات المتحدة ؛ فصحفها رائعة وموجودة في كل مكان ، وخبراؤها ومتخصصوها لديهم كل البيانات والسوابق الخاصة بكل حالة ، ولكن نتيجة هذا الكم الهائل من المعلومات والأخبار تشبه ، في أغلب الأحوال ، فأر الحكاية الأسطورية . فهل الخطأ هنا فكري ؟ كلا . إنه خطأ النظرة التاريخية . وبسبب طبيعة المشروع الذي قامت عليه الأمة ــ أي وضعها على مقاس التاريخ وأخطائه ــ نجد أن الأمريكيين يعانون من صعوبة خِلقية في فهم العالم الخارجي والتوجه في دروبه .

وثمة خطأ آخر في الديموقراطية الأمريكية ، حذر منه أيضا توكيفيل ، هو أن اتجاهات المساواة لا تلغي الأنانية الفردية لكنها تشوهها . وبالرغم من أن هذه الاتجاهات لم تحل دون ظهور التفاوتات الاجتماعية والاقتصادية وتناميها ، فإنها قد أربكت الفضلاء وعاقت مشاركتهم في الحياة الاجتماعية . وأكبر مثال لذلك هو وضع الطبقة المثقفة ، إذ أن مكاسبهم الهائلة في العلوم والتقنية والفنون والتعليم تتناقض مع قلة تأثيرهم في السياسة . والحق أن كثيرا من المثقفين خدموا ويخدمون الحكومات لكن دورهم يقتصر في الغالب على كونهم فنيين وخبراء ، أي من أجل عمل هذا الشيء أو ذاك لا من أجل التلويح بغايات أو أهداف . وبعض المثقفين كانوا مستشارين للرؤساء ، وبذلك ساهموا في تخطيط وتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية . لكنها حالات قليلة جدا . فالطبقة المثقفة الأمريكية ، كجهاز اجتماعي ، لا تملك تأثير أقرانها في أوروبا وأمريكا اللاتينية . وهي لا تملكها في المقام الأول لأن المجتمع ليس مستعدا لأن يمنحها ذلك . ولعله من الضروري أن نذكر بمصطلحات التحقير التي يشار بها للمثقفين مثل **Egghead** و **Highbrow** . وهذه الصفات سُدت طريق عدلي ستيفنسن **Adlai Stevenson** السياسي ، وهذا مثال واحد فقط .

أما المثقفون الأمريكيون فقد أظهروا ، بدورهم ، قلة اهتمام بالمسائل الفلسفية والسياسية التجريدية الكبيرة التي أثارت اهتمام عصرنا . وهذا الفتور كان له مظهر إيجابي هو أنه حفظهم من شطحات كثير من مثقفي أوروبا وأمريكا اللاتينية . كما حفظهم أيضا من السقوط في الدناءة التي هوى فيها كثير من الكتاب الذين خلطوا ، دون أن يرتفع لهم رمش ، بين الشرف الجماهيري والجوائز الدولية وبين تملق أتباع ستالين وأتباع ماو وأتباع كاسترو .

وكان إزرا باوند وحده فقط من بين الشعراء الأمريكيين الكبار الذي أذعن لبريق الحكم الشمولي ، وقد اختار أن يكون مقرظا لأقل الديكتاتوريين العتاة عُتوا وهو موسوليني . وعلى عكس ماحدث لكتاب آخرين من أوروبا وأمريكا اللاتينية فإن باوند لم يحصل بعد جحوده على نياشين أو تشريفات جنائزية قومية وإنما رموا به لسنوات عديدة في مستشفى المجاذيب . كان هذا فظيعا لكن لعله أفضل من رش وحل أراجون .

إن عدم اكتراث الأمريكيين ليس أمرا مستنكرا في حد ذاته ، لكنه يصبح كذلك عندما يتعلق به المحافظون أو يدخل ضمن سذاجة مركب النقص عند الليبراليين . إنهما طريقتان لتجاهل وجود الآخرين وذلك بتحويلهم إلى شياطين أو إلى أبطال الروايات . ولعل عدم ثقة المثقفين الأمريكيين في العواطف الإيديولوجية مفهوم ، ولكن ليس مفهوما أن يتجاهلوا أن هذه العواطف قد حركت عدة أجيال من مثقفي أوروبا وأمريكا اللاتينية وبعضهم من أحسن المثقفين وأطيبهم عنصرا .
ولكي نفهمهم ونفهم التاريخ المعاصر لابد أن نفهم هذه العواطف .

وعندما يدور الحديث عن طابع الأمريكيين تظهر غالبا كلمة « السذاجة » . وهم أنفسهم يضفون قيمة خاصة على مصطلح « البراءة » . إن السذاجة ليست خصوصية تتوافق مع التأمل الباطني التشاؤمي عند المتشدد ومع ذلك فكلتا الصفتين تجتمعان فيهما . ولعل التأمل الباطني يفيدهم في رؤيتهم لأنفسهم ، واكتشافهم لآثار الله أو آثار الشيطان في أعماقهم ، والسذاجة ، بدورها ، هي طريقتهم لتقديم أنفسهم للآخرين أو إقامة علاقات معهم .

إن السذاجة هي ظاهر البراءة وبتعبير أصح فإنها لباسها . وبذلك فإن عدم الدفاع عن النفس عند الساذج سلاح نفسي يحفظه من تلوث الآخر ، وعندما يعزله يسمح له بالهروب أو الهجوم المضاد . إن سذاجة المثقفين الأمريكيين إزاء المناقشات الإيديولوجية الضخمة لعصرنا قد أدت هذه المهمة المزدوجة . فهي قد حفظتهم أولا من أن يقعوا في الضياع والشذوذ الذي سقط فيه مثقفو أوروبا وأمريكا اللاتينية ، ثم إنها سمحت لهم بأن يحكموا عليهم ويدينوهم دون أن يفهموهم . وكلتا الطائفتين الأمريكيتين ، المحافظين والليبراليين ، استبدلوا بالنظرة التاريخية الحكم الأخلاقي .

والحق أنه لا يمكن أن تتمخض نظرة من الآخر ، أي نظرة تاريخية ، بدون أخلاقيات ولكن الأخلاقيات لا يمكن أن تحل محل النظرة التاريخية الأصيلة . خاصة إذا كان هذا الحكم الأخلاقي نوعا من التشدد الإقليمي الممتزج بجرعات متعددة وإن كانت قوية ، من البراجماتية والتجريبية والوضعية .

ولكي نفهم جيدا في ماذا يتمثل استبدال النظرة الأخلاقية بالتاريخية لابد أن أشير من جديد إلى أصل الولايات المتحدة . ففي الماضي كانت الأخلاق الخاصة لا تنفصل عن العامة . وعند الفيلسوفين اليونانيين أفلاطون وأرسطوطاليس نجد اتحادا عميقا بين الميتافيزيقا والسياسة والأخلاق : فالأهداف الفردية العليا مثل الحب والصداقة والمعرفة والتأمل كانت غير منفصلة عن السياسة . ونفس الشيء حدث عند الرومان العظام ، ولعله من الضروري أن نذكر في هذا الصدد شيشرون وسينيكا ثم على وجه الخصوص ماركو أوريليو .

ومع ذلك فقد بدأ في الماضي الفصل بين الأخلاق والسياسة (أو كما نقول الآن بين الأخلاق والتاريخ) . فعند كثير من المدارس الفلسفية وبالأخص الأبيقوريين وأتباع مذهب الشك نجد الأخلاق قد تحولت أكثر وأكثر إلى شأن خاص .

ولكن هذه اللامبالاة أمام الحياة العامة لم تتحول إلى أشكال سلبية للفعل السياسي وهي العصيان المدني والتمرد السلبي . إن الأخلاق الأبيقورية لم تتمخض عن سياسة ، ولا كذلك الشكية بالرغم من أن بيرون **Pirron** لم يؤكد شيئا ، ولا حتى وجوده نفسه ، كما أن شكوكه لم تحل دون طاعته للقوانين والسلطات المدنية .

وبقدوم المسيحية حدث انفصال بين الأخلاق الخاصة والسياسة ، ولكن من أجل أن تصبح الأولى نوعا من السيادة الجماعية وهي سيادة الكنيسة . ومع عصر الإصلاح غدت التجربة الأخلاقية العميقة وهي الدينية أكثر التصاقا بالإنسان : إنها حوار المخلوق مع نفسه ومع الإله . والتجديد التاريخي الكبير للولايات المتحدة يتمثل — كما قلنا سابقا — في أنها قد أضفت طابعا دنيويا على العلاقة الحميمة للمسيحي بربه وبضميره كما عملت على تعميمها ، ثم إنها قلبت هذه العلاقة أي أخضعت العام للخاص ، ولعل هذا هو التجديد الجوهري .

وسوابق هذا التغيير الكبير تكمن في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، عند مفكرين مثل لوك وروسو ، اللذين رأيا في العقد الاجتماعي أصلا من أصول تأسيس المجتمع والدولة . ولكن فكرة العقد الاجتماعي عندهما تظهر إزاء مجتمع تشكل بالفعل ، وبهذا تصبح وكأنها نقد لحالة أشياء موجودة . فمثلا لوك اقترح نقض قاعدة الحق الإلهي للملوك ، وروسو ، من جانبه ، يفهم العقد الاجتماعي على أنه حدث سابق على التاريخ ، ومشوه بالتاريخ أيضا من خلال الذاتية الخاصة وعدم المساواة . وعند تأسيس الولايات المتحدة دخل تعديل جذري على هذه الأفكار .

لقد انعكس وضع المصطلحات : فالعقد الاجتماعي ليس قِبل التاريخ وإنما يتحول إلى مشروع . أو بتعبير آخر إنه ليس الماضي فقط وإنما هو برنامج يكون المستقبل مجالا لتحققه . كما أن المكان الذي يتحقق فيه العقد الاجتماعي ليس أرضا ذات تاريخ وإنما هو قارة عذراء . إن ميلاد الولايات المتحدة كان انتصارا للعقد الإرادي على الحتمية التاريخية ، أي عقد الأهداف الخاصة في مقابل الأهداف الجماعية ، وعقد المستقبل فوق الماضي .

ففي الماضي كان التاريخ يُدرك على أنه حدث جماعي موجه لتحقيق هدف يتعالى به الأفراد والمجتمع نفسه . وكان المجتمع يعلق أعماله على هدف خارج عنه ، كما كان تاريخه يجد معنىً وتبريراً فيما وراء التاريخ . وكانت الدولة والكنيسة هما المسئولتان عن هذه الأهداف . وفي العصر الحديث تغيرت طبيعة الفعل الاجتماعي واتجاهاته . والولايات المتحدة هي التعبير الكامل والخالص لهذا التغيير ، ومن ثم فليس من المبالغ فيه أن نقول إنها نموذج الحداثة .

إن أهداف المجتمع الأمريكي ليست بعيدة عنه وليست فيما وراء التاريخ . إنها كامنة في هذا المجتمع نفسه ولا يمكن تحديدها إلا بمصطلحات الضمير الفردي . ففي ماذا تتمثل هذه المصطلحات ؟ لقد ذكرت ذلك من قبل : إنها تتمثل بشكل جوهري ورئيسي في علاقة الفرد بربه وبنفسه على نحو متكافل أي مع الآخرين من مواطنيه . ففي المجتمعات البدائية لا توجد الأنا إلا بصفتها جزءا من الكل الاجتماعي الكبير ، لكننا في المجتمع الأمريكي نجد أن الكل الاجتماعي مشروع للضمائر والإرادات الفردية .

وهذا المشروع لم يكن أبدا هندسيا ، لأن الصورة التي نراه عليها هي صورة واقع

وهاتان النقطتان « التناقض والحركة » تعبران عن الحيوية الهائلة للديموقراطية الأمريكية وديناميتها الواسعة . كما أنها تظهر لنا أخطارها ، لأن التناقض إذا زاد عن حده يمكن أن يشل حركتها إزاء الخارج ، والدينامية يمكن أن تمضي في طريق بلا معنى . وكلا الخطرين واردان في الفترة الراهنة .

ومن منظور هذا التطور من السهل أن ندرك اتجاه المثقفين الأمريكيين إلى استبدال الحكم الأخلاقي بالنظرة التاريخية ، وأسوأ من ذلك أن تستبدل بهذه النظرة التاريخية اعتبارات نفعية (براجماتية) وظرفية . إن النظرة الأخلاقية والنظرة التجريبية هما شكلان توأمان لعدم فهم التاريخ . وكل واحد منهما يتفق مع الانعزالية الرئيسية للعقلية الأمريكية ، التي هي بدورها نتيجة طبيعية لمشروع تأسيس البلاد ، أي إقامة مجتمع بمنأى عن أخطاء وحوادث التاريخ العالمي . إن الانعزالية لا تشتمل على عناصر — اللهم إلا العناصر السلبية — لإعداد سياسة دولية . وهذه الملاحظة تنطبق على الليبراليين وعلى المحافظين بنفس المقياس . ومن المعروف أن معنى هذين المصطلحين ليس واحدا في الولايات المتحدة وفي أوروبا وأمريكا اللاتينية .

إن الليبرالي الأمريكي يؤيد تدخل الدولة في الاقتصاد ، وهذا يقربه أكثر من الاشتراكيين الديموقراطيين ، لا من الليبراليين في أوروبا وأمريكا اللاتينية ، أما المحافظ الأمريكي فهو ضد تدخل الدولة سواء في الاقتصاد أو في التعليم ، وهي مواقف بعيدة عن مواقف الليبراليين عندنا (أي في أمريكا اللاتينية) إذن فإن مواقف الليبراليين والمحافظين في المجال الدولي قابلة للتبادل ، وذلك لأن هؤلاء أو أولئك ينتقلون بسرعة من أكثر المواقف انعزالية إلى أكثرها تدخلا ، دون أن تعمل هذه التعديلات على تغيير نظرتهم للعالم الخارجي بشكل جوهري ، وبهذا فليس من الغريب أن يكون الليبراليون والمحافظون ، بالرغم من خلافاتهم ، انعزاليين أو تدخليين بالتناوب .

ووصفي لمواقف المثقفين الأمريكيين ليس كاملا ، وأنا معترف بذلك . إنني لا أتجاهل وجود اتجاهات قريبة جدا من التقاليد الأوروبية وأقل تلمسا ، ومن ثم فليس من المبالغ فيه أن نطلق عليها « شذوذ أنجلو ساكسوني » . فمثلا في الماضي القريب كان بعض الكتاب ، وعلى رأسهم ت .س . اليوت — وهم الذين يطلق عليهم هاربين — يحثون

في الجنوب الأسطوري عن نظام للحضارة ، لا يتعدى في أساسه أن يكون نقلا للمجتمع الأوروبي لعصر ماقبل الصناعة .

وكان هذا حلما أكثر منه واقعا ، لكنه حلم يقضي على الوحدة التاريخية للولايات المتحدة ويجمع هؤلاء الكتاب أصحاب الحنين بالتاريخ الأوروبي ، وقد قامت جماعة أخرى من المثقفين النيويوركيين ، تحت تأثير دافع مشابه وإن كان في اتجاه معارض ، بإصدار مجلة **Partisan Review** (١٩٣٤) .

وهذه المجلة تخطت الشيوعية إلى التروتسكية ثم تخطت الأخيرة إلى نظرة أكثر اتساعا وحيوية وحداثة للواقع المعاصر . وعبر هذه التحولات لم تنس مجلة **Partisan Review** العلاقة الأولية بين التاريخ والأدب والسياسة والأخلاق . إن ناشري مجلة **Partisan Review** وكتابها كانوا ، باهتماماتهم وأسلوبهم المثقف ، أقرب للكتاب الأوروبيين في تلك الفترة — وبالأخص كامي وسارتر وميرلوبونتي — منهم لمعاصريهم من الأمريكيين . ونفس الشيء يمكن أن يقال في أيامنا عن كتاب آخرين وشخصيات أخرى منعزلة . ومع ذلك فلا أحد منهم ، مهما كانت مساهماته ، ينسب إلى التقليد الرئيسي .

لقد نشر الفيلسوف جون رالس **John Rawls** منذ عدة سنوات كتاباً عنوانه نظرية العدالة **A Theory of Justice** (١٩٧١) وصفه العالمون بالامتياز . وبالفعل فإن هذا الكتاب يذكرنا ، في دقته ونبرته الأخلاقية العالية ، بأفضل مانجده في تراث الفيلسوف كانت أي بالوضوح العقلي وصفاء القلب . وأنا أذكر هذا الكتاب بصفة خاصة لأنه أفضل نموذج لنهوض الأمريكيين في التاريخ .

إن رالس يحاول تعميم نظرية العقد الاجتماعي التقليدية ويرفعها إلى مكانة عليا من التجريد على نحو ماعبَّر عنه من قبل لوك **Locke** وروسو **Rousseau** وكانْت **Kant** والكتاب يشتمل على بعض الفصول المشوقة حول موضوعات مثل شرعية العصيان المدني ، والحسد والمساواة ، والعدالة والإنصاف ، وينتهي بتأكيد ثنائي للحرية والعدالة : إنهما لا ينفصلان .

لقد أعدَّ رالس فلسفة أخلاقية تقوم على الارتباط الحر بين الناس ، لكنها تقبل بأن فضيلة العدالة لا يمكن أن تنتشر إلا في مجتمع منظم تنظيما جيدا . وهو لا يذكر لنا كيف يمكن أن نصل إليها ولا في ماذا تتمثل . إذن فإن المجتمع المنظم جيدا هو وحده الذي يمكن أن يكون مجتمعا عادلا . وفضلا عن شيوع هذا التفسير فإنه ليزعجني لا مبالاة

المؤلف — وهو الدقيق في المفاهيم والمعاني — إزاء الواقع الرهيب لخمسة آلاف سنة من التاريخ .

إن « نظرية العدالة » كتاب فلسفة أخلاقية يهمل السياسة ولا يفحص العلاقة بين الأخلاق والتاريخ . وبهذا فإنه يأتي في اتجاه مضاد للفكر السياسي الأوروبي . ولكي نتحقق من ذلك يكفي أن نذكر كُتَّابا شديدي الاختلاف مثل ماكس ويبر وكروتشه وأورتيجا إي جاسيت وحنا أرنت Hanna Arendt وكامي وسارتر وسيوران Cioran . وكل هؤلاء عاشوا مرحلة الفصل بين الأخلاق والسياسة (وسيوران مازال يعيشها حتى الآن) ، وبعضهم حاول إدخال الأخلاق في التاريخ أو أن يستخلص من التاريخ أسس فلسفة أخلاقية ممكنة .

والماركسيون أنفسهم — مثل تروتسكي وجرامشي Gramsci ، وسيرجه Serge — أدركوا هذا الفصل وحاولوا أن يبرروه أو يجعلوه متعاليا سواء بهذه الطريقة أو تلك . والدرس الذي أخذناه من أحد هؤلاء المفكرين وهو سيمون ويل Simone Weil كان رائعا ، لأنه برهن على أن الضرورة التاريخية لا يمكن أن تحل محل الأخلاق ، وأن الأخلاق تقوم على حرية الضمير ، كما أن سيمون ويل ، بحياته وأعماله ، قد علمنا أن الأخلاق لا يمكن أن تنفصل عن التاريخ .

إن جرح الغرب قد جاء من الفصل بين الأخلاق والتاريخ ، وفي الولايات المتحدة اتخذ هذا الانقسام تعبيرين متوازيين : التجريبية من جهة والتجريدات الأخلاقية من جهة أخرى . وهذه أو تلك لا يمكن أن تقف بفعالية ضد مرض الجذام الحديث ، وهو مصادرة الأخلاق بالحتمية التاريخية في الدول الشيوعية وفي أمم أخرى عديدة . إن سر بعث الديموقرطيات — ومن ثم الحضارة الحقيقية — يكمن في إقامة الحوار بين الأخلاق والتاريخ . وهذه هي مهمة جيلنا والجيل التالي لنا .

لقد كانت الولايات المتحدة أول أمة من بين أمم الأرض في الوصول إلى الحداثة الكاملة . والمثقفون الأمريكيون موجودون في أقصى نقطة لهذه الحركة . والتراث الذي وصفته في إيجاز شديد كان ، في جزء كبير منه ، عملا من أعمالهم ، كما أنهم بدورهم أحد نتائج هذا التراث . والمهمتان المنوطتان بالمثقف الحديث هما البحث والإبداع ونقل

المعارف والقيم والخبرات في المقام الأول ، ثم يأتي بعد ذلك مباشرة نقد المجتمع ووسائله ومؤسساته وسياسته . والمهمة الثانية الموروثة عن رجال الدين في العصر الوسيط ، ظلت أهميتها تتزايد منذ القرن الثامن عشر . وكلنا نعرف مافعله الأمريكيون في مجالات العلوم والأدب والفنون والتعليم ، كما أنهم كانوا أمناء وشجعانا في نقد مجتمعهم ونقد أخطائه . إن حرية النقد والنقد الذاتي كانت حاسمة في تاريخ الولايات المتحدة وفي عظمتها الحاضرة .

أما المثقفون فكانوا أوفياء للتراث الذي قامت عليه بلادهم والذي تشغل فيه عملية فحص الضمير مكانا رئيسيا . والآن فإن هذا التراث الدقيق عندما يحدث فيه انفصال يصبح ضد التاريخ وانعزاليا . وعندما تتخلى الولايات المتحدة عن عزلتها وتساهم في قضايا هذا العالم سيكون تحركها مثل تحرك المؤمن في أرض الكفار .

إن الكتاب والصحفيين الأمريكيين لديهم حب استطلاع هائل ومحيطون بكل مايدور في العصر الحاضر ، ولكنهم بدلا من أن يفهموا يحكمون . وإحقاقا للحق نقول إن أحكامهم الصائبة يقصرونها على مواطنيهم وحكامهم . إنه أمر يدعو للإعجاب لكنه مع ذلك غير كاف . ففي وقت تدخل بلدهم في الهند الصينية أعلنوا — بحق — إدانتهم لواشنطن ، ولكن هذا النقد كاد أن يقتصر على الجانب الأخلاقي ، وكان يستبعد بصفة عامة فحص طبيعة المشكلة .

لقد كان النقاد مهتمين بإدانة جونسون أكثر من فهمهم لكيف ولماذا وجدت قوات أمريكية في الهند الصينية . والكثيرون منهم قالوا إن هذه المشكلة لا تخصهم وكأن الولايات المتحدة ليست قوة عالمية وكأن حرب الهند الصينية كانت حدثا محليا .

إن الانعزالية كانت ، على التناوب ، سلاحا إيديولوجيا في أيدي المحافظين والليبراليين . ففي الفترة الثانية لروزفلت استخدمها الأولون والآن يستخدمها الآخرون . إن الأخلاق لا تحل محل الفهم التاريخي ولهذا فإن كثيرا من الليبراليين فوجئوا بنهاية المشكلة التي تمثلت في إقامة الدكتاتورية البيروقراطية — العسكرية لفيتنام ، ومذابح بول بوت واحتلال كمبوديا ولاوس بواسطة القوات الفيتنامية وحملة العقوبة التي قام بها الصينيون ، وفي هذه الأيام الأعمال العدائية بين فيتنام وتايلاند .

السذاجات بالنسبة لأمريكا الوسطى .. فالموقف

والآن يكرر الليبراليون نفس السذاجات بالنسبة لأمريكا الوسطى .. فالموقف الأخلاقي ـ بالإضافة إلى أنه ليس صريحا دائما وعادة مايصبح قناعا ـ لا يساعد في فهم الحقيقة الأخرى . كما لا تساعد على ذلك التجريبية أو حماقة القوة . إن الأخلاق في مجال السياسة يجب أن تكون مصحوبة بفضائل أخرى . وأهم هذه الفضائل هي التخيل التاريخي . القدرة التي تمتع بها فيكو Vico وميكافيللي ومونتسكيو وتوكيفيل . وهذه القدرة الفكرية لها مقابل في الإحساس هو التعاطف مع الآخر ومع الآخرين .

إن صورة الولايات المتحدة لا تدعو للاطمئنان . فالبلد مفكك ، وتمزقه مناقشات جدلية تنأى عن العظمة ، والشك ينخر عظامه ، كما أنه غارق في تلذذية (أو متعة) انتحارية ، وفاقد الوعي من كثرة صيحات الديماجوجيين . إنه مجتمع منقسم أفقيا أكثر منه رأسيا بفعل التصادم بين المصالح الأنانية الهائلة مثل الشركات الكبرى والنقابات والمزارعين وأصحاب المصارف والمجموعات العنصرية والصناعية الإعلامية القوية .

إن صورة هوبز (الفيلسوف الانجليزي) تنبض من جديد ، أي الجميع ضد الجميع . والعلاج هو استعادة وحدة الهدف ، التي بدونها لا توجد إمكانية الفعل ، ولكن ، كيف ؟ . إن مرض الديموقراطيات هو التمزق ، الذي هو أم الديماجوجية . والطريق الآخر ، طريق الصحة السياسية ، يمر بفحص الضمير والنقد الذاتي أي العودة إلى الأصول وإلى أسس الأمة . إنها حالة الولايات المتحدة : في نظر المؤسسين . والمطلوب ليس هو تكرارهم ، وإنما البدء من جديد . أعني أنه لا يجب أن يفعلوا مثلما فعل السابقون . وإنما أن يبدأوا من جديد مثلهم ، وهذه البدايات هي ، في الوقت نفسه ، عمليات تطهير وتعديل : فمعهم يبدأ دائما شيء مختلف .

إن الولايات المتحدة ولدت مع الحداثة ، والآن لكي تستمر يجب أن تواجه كوارث الحداثة . إن عصرنا فظيع ولكن شعوب الديموقراطيات الغربية ، وعلى رأسها الأمريكيون ، الذين خدَّرهم حوالي نصف قرن من الرخاء ، يصرون على ألا يروا البقعة الكبيرة التي تنتشر على ظهر الكوكب . فقد فتحت قناع الإيديولوجيات التي تستعير اسم الحداثة لتعود لعصرنا حقائق قديمة مرعبة ، كانت عبادة التقدم والتفاؤل الأبله بالوفرة تعطي انطباعا بأنها دفنت للأبد . إننا نعيش فى حالة تقهقر حقيقي للعصور . ومنذ أكثر

من قرن ، وأمام وضع أقل تهديدا من الوضع المعاصر ، كتب ملفيل Melville (*) عدة سطور يجب على الأمريكيين الآن أن يقرءوها ويتأملوا فيها . تقول :

حين تهب سحب المحيط فوق التلال الداخلية
عاصفةً في أخريات الخريف القاتم ،
والرعب يملأ الوادي المشبع بالماء
وتسقط ورقة عشب متحطمة في المدينة ،
أتحسر على أمراض بلدي —
والعاصفة المتدفقة من ضياع الوقت
على عالم آماله العادلة مرتبطة بآثام البشر الإجرامية
إن الجانب المظلم في الطبيعة ينطلق الآن .

□ □ □

(*) هو هيرمان ملفيل ، روائي أمريكي (١٨١٩ — ١٨٩١) من أكبر روائيي الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن أشهر أعماله موبي ديك Moby Dick أو « الحوت الأبيض » نشرت عام ١٨٥١ .

□ الفصل الثالث □

الإمبراطورية الشمولية

بوليفيم(*) وقُطعانه :

منذ مولد الاتحاد السوفييتي في عام ۱۹۱۷ والمناقشات دائرة حول طبيعته التاريخية الحقيقية . وأول من شككوا في كون النظام الجديد يمثل بحق دكتاتورية الطبقة العاملة بالمعنى الذي أعطاه لهذا التعبير ماركس وانجلز ، هم المنشفيكيون(**) والماركسيون الأوروبيون وبالأخص الألمان والنمساويون .

أما الفوضويون فلم يلبثوا أن أعلنوا من جانبهم إدانتهم لهذا النظام باعتباره يمثل الدكتاتورية الرأسمالية للدولة . ولم يقل لينين ولا تروتسكي أبدا إن الاتحاد السوفييتي دولة اشتراكية ، لكن هذا هو الذي أكده ستالين فيما بعد . وطبقا لرأي لينين فإنه مجرد نظام انتقالي : فالبروليتاريا كانت قد استولت على السلطة وأخذت في إعداد قواعد الاشتراكية . وكان لينين وتروتسكي والبلشفيون الآخرون ينتظرون أن تقوم الثورة العمالية الأوروبية

* في الأساطير القديمة : بوليفيم هو أحد أبناء العمالقة أبناء السماء والأرض الذين كان لهم عين واحدة في وسط الجبهة ، وهو ابن نبتون ، وقد سجن عوليس وزملاءه في أحد الكهوف ، وكان يلتهم كل يوم رجلين حتى قام عوليس بفقء عينيه ، وحصل بذلك على حريته .

** هم دعاة الاشتراكية المعتدلة الذين هزمهم البولشفيكيون في روسيا .

في النهاية وبالأخص في ألمانيا ، بتحقيق نبوءة ماركس وانجلز : فالاشتراكية كان يمكن أن تولد في دول الغرب الصناعية ، الأكثر تقدما ومع طبقة عمالية صاحبة تراث من المعارك الديموقراطية . ومع ذلك فإن لينين قال عام ١٩٢٠ في خطاب انتقد فيه تروتسكي بعنف شديد : « إن الرفيق تروتسكي يتحدث عن دولة عمالية . وهذا شيء تجريدي ! لقد كان من الطبيعي في عام ١٩١٧ أن نتحدث عن دولة عمالية .. ولكن الآن أصبحت دولتنا دولة ذات طابع بيروقراطي . وهذه هي البطاقة الحزينة التي يجب أن نلصقها بها . إنها كلمات قيلت عام ١٩٢٠ وهي الآن في عام ١٩٨٠ أصبحت ذات رنين خاص بعد الإضرابات والعمليات القمعية في هنغاريا (المجر) وتشيكوسلوفاكيا وبولندة » .

وبعد ذلك بسنوات أخذ تروتسكي النقد الذي قال به لينين ونسبه لنفسه . ففي عام ١٩٣٦ ، في ذروة الصراع ضد ستالين ونظريته عن « الاشتراكية في بلد واحد » — وهي نشاز من وجهة نظر الماركسية الحقيقية لكنها نشاز تكرر على لسان الآلاف من المثقفين الذين يطلقون على أنفسهم ماركسيين — أصدر (أي تروتسكي) كتابه « الثورة المخونة » . وكانت هذه هي أول محاولة جادة لكشف الطبيعة الحقيقية للحيوان التاريخي الجديد ، وهو الدولة السوفييتية . كان تروتسكي يرى أنها « مجتمع وسط بين الرأسمالية والاشتراكية » ، تحولت فيه البيروقراطية إلى طبقة غير محكومة ، وهي غريبة على الاشتراكية . وكان تروتسكي يعتقد أن الصراعات الاجتماعية يمكن أن تحل بمعنى أو بآخر ما في الدولة العمالية المتدهورة من إبهام : فإما أن تتكفل البيروقراطية بإعادة الرأسمالية ، وإما أن تنهزم البيروقراطية بواسطة البروليتاريا وتقوم الاشتراكية . وبذلك فإنه لا يقبل امتداد السيطرة البيروقراطية دون الوقوع في الرأسمالية . ومع ذلك فإنه بعد هذا بقليل ، في المناقشات التي جرت بينه وبين ماكس شاختمان Max Schachtman وجيمس بورهام James Burham (١٩٣٧ — ١٩٤٠) قبل على كره منه إمكانية امتداد هذا الوضع ، وفي هذه الحالة فإن البيروقراطية يمكن أن تتمثل في طبقة جديدة متسلطة وتشكل نظاما جديدا للاستغلال . وقد قارن هذا الاحتمال — ومعه الحق — بقدوم القرون المظلمة بعد سقوط العصر القديم(١) .

(١) ليون تروتسكي : « دفاع عن الماركسية » ، الطبعة الانجليزية عام ١٩٤٢ والطبعة الفرنسية أكثر اكتمالا ، وصدرت بتاريخ ١٩٧٦ .

وفي عام ١٩٣٩ نشر ماركسي إيطالي هو برونو ريثي Bruno Rizzi كتابه La bureaucratisation du monde ، وهو كتاب قلما يذكر لكنه هدف للانتحال الكثير . ويعرض ريثي في هذا الكتاب للمرة الأولى بشكل غير تام – وأكثر ميلا إلى الحدس منه إلى العلم – إمكانية أن تحدث في روسيا ستالين وفي ألمانيا هتلر ، على المدى القريب وليس على المدى البعيد ، فكرة نظام جديد يخلف الرأسمالية والديموقراطية البرجوازية هو الجماعية البيروقراطية . وهو افتراض كان له حظ كبير من الانتشار . فقد تبناه جيمس بورهام ، وبعد ذلك اكتشفه ميلوفان خيلاس Molivan Djilas وطوره في كتابه The New Class عام ١٩٥٧ ، أما مقالات كوستاس باباياتو Kastas Papaioannou المنشورة في مجلة « العقد الاجتماعي » Le Contract Social وفي مجلات أخرى فهي أقل تجريبية من كتابات ريثي وخيلاس ، وقد كتبت في إطار التراث العظيم لعلم التاريخ الحديث ، كما أنها مساهمة ملحوظة في دراسة تناسل الطبقة الجديدة . وقد خصص دانيل بيل Daniel Bell في كتابه عن مجتمع مابعد الصناعة صفحات نافذة وموضحة لهذا الموضوع . كما تبرز أيضا دراسات فرانسوا فيجتو François Fejto التاريخية . وفي مجال التأمل الفلسفي حول طبيعة الشيوعية تبرز بصفة خاصة أعمال ليزيك كولاكويسكي Leszek Kolakowski ، أما في مجال علم الاجتماع التاريخي والسياسي فنجد تحليلات رايموند آرون Raymond Aron التي أفسحت الطريق وأضاءت للجميع . وثمة كتاب آخرون مثل ويتفوجل Wittfogel ونافيل Navill وبتلهام Bettelheim توقفوا عند خصائص البنى الاقتصادية السوفييتية وهل هي رأسمالية الدولة أو الاحتكار البيروقراطي أو أنها طريقة إنتاج آسيوية ؟ .

ويرى حَنّا أرندت Hanna Arendt ومن بعده كلود ليفورت Claude lefort أن التجديد الحقيقي ذو طابع سياسي ، لأن التاريخ لم يعرف أبدا شيئا على مثال النظام الشمولي الحديث . وبالفعل فإن الأمثلة الوحيدة تأتي من مجتمعات موغلة في القدم مثل مصر الفرعونية ، فضلا عن الامبراطورية الصينية على وجه الخصوص . أما دراسات إتين بلاس Etienne Balazs « البيروقراطية السماوية » La bureaucratie Céleste ١٩٦٨ فتوضح لنا شيئين : فمن جهة نجد أن استمرار القادة في السلطة لمدة طويلة يدل على أن النظام البيروقراطي ليس انتقاليا ، على عكس ماكان يعتقد تروتسكي ، وأن هذا النظام يمكن أن يستمر قرونا بل وآلافا من السنين لا عشرات السنين فقط . ومن جهة أخرى فإن

الخلافات بين الإمبراطورية الصينية والاتحاد السوفيتي خلافات هائلة ، وكلها في صالح الصين تقريبا . ويُبرز ألن بيسانسون Alain Besancon تميز الفعل الإيديولوجي داخل النظام ــ وهو واقع طموح لكنه أكثر واقعية من الواقع الحقيقي المتواضع نفسه ــ ويقترح أن نطلق على النظام « إيديوكراثيا » Ideocracia . ويؤكد كورنيليو كاستورياديس Cornelio Castoriadis الطبيعة المزدوجة للرأسمالية البيروقراطية لهذا النظام : إنه مجتمع طائفي تسيطر عليه بيروقراطية إيديولوجية ، كما أنه مجتمع عسكري . ويقول كاستورياديس إن روسيا قد تحولت ، دون أن تحس ، من نظام سيطرة الحزب الشيوعي إلى نظام آخر تحظى بالأهمية الرئيسية فيه الحقائق والاعتبارات العسكرية ومن ثم يطلق عليه استراتوكراثيا Estratocracia[2] .

إن قائمة التفسيرات والتسميات يمكن أن تطول ولكن الحقيقة هي أن النزاع بين الأحياء يرتكز على اتفاق . وليس ثمة مؤلف جاد حاليا يؤمن بأن الاتحاد السوفيتي بلد اشتراكي . كما لا يؤمن أيضا ــ مثلما كان يعتقد لينين وتروتسكي ــ بأنه دولة عمالية شوهتها زائدة بيروقراطية . وإذا فكرنا في المؤسسات والوقائع السياسية نجد أنه سلطة مطلقة ، شمولية ، وإذا توقفنا عند الهياكل الاقتصادية نجد أنها عملية احتكار موسعة للدولة ذات أشكال خاصة في نقل الاستخدام والمتعة ، والتمتع بالثروات والمنتجات (ليس في حمل لقب الملكية وإنما هو أمر يشبه التصرفات الخاصة بالمجتمعات الرأسمالية غير المعلنة ، بمعنى أن يوضع الإنسان في قوائم اصطلاحية أو يحمل كارنيه « بطاقة » من الحزب الشيوعي الروسي) ، وإذا توقفنا عند التقسيمات الاجتماعية نجد أنه مجتمع الناس فيه درجات تتحرك ببطء شديد ، كما أن الطبقات فيه تتجه نحو التشرنق في طوائف وهي محكومة في القمة

---

(٢) إن هذا الموضوع ، كما نرى في هذا العرض الموجز ، شديد الاتساع ، وهو يثير باستمرار مزيدا من التأملات . وعندما كنت أتأهب لإرسال هذه الصفحات إلى المطبعة ، وصلني كتاب إدجار مورين Edgar Morin وعنوانه « عن طبيعة الاتحاد السوفيتي » De La nature de l' URSS ١٩٨٣ . ويرى مورين أن الشمولية الروسية بصفتها نظاما يقوم على السيطرات المتدرجة أي التي تعلو كل منها مانحتها ، يشتمل على شمولية أخرى على طريقة « الصناديق الصينية » : فالدولة تصادر المجتمع المدني والحزب يصادر الدولة ، واللجنة السياسية تصادر الحزب ، والجهاز (الأمانة العامة) يصادر اللجنة . وفي القمة نجد السيطرة مزدوجة : فالبوليس يحمي الجهاز والجهاز يسيطر على البوليس . والجهاز ليس هو نفسه البيروقراطية : إنه ليس طبقة من الداخل وإنما يعلو على الدولة . وبهذا فإن الجهاز إذ يصادر الأمة يستحوذ على القومية والإمبريالية الروسية . ومن ثم فإن الاتحاد السوفيتي يمثل الشمولية من جهة ، ومن جهة أخرى وبلا تناقض ، فإنه إمبريالية .

بواسطة رتبة جديدة إيديولوجية وعسكرية في الوقت نفسه : إنها الإيديوكراسيا Ideocracia والاستراتوكراثيا Estratocracia مجتمعتين . وهذا الوصف الأخير بصفة خاصة دقيق : فالاتحاد السوفييتي مجتمع مصنوع على صورة الحزب الشيوعي ومثاله . إذن فالنموذج المزدوج للحزب البلشفي كان هو الكنيسة والجيش ، وأعضاؤه هم الرهبان والجنود ، ومثاله للجماعة هو الدير والقشلاق ، وأسمنت الخلط بين النظام الديني والنظام العسكري هو الإيديولوجية .

وبالرغم من مظهر الاتحاد السوفييتي الذي يبدو وكأنه كتلة كبيرة من الثلج والحديد ، فإنه يواجه متناقضات لا تقل عمقا عن متناقضات الولايات المتحدة الأمريكية . والتناقض الأول أساسي وكامن في طبيعته نفسها ، لأن روسيا مجتمعٌ الطوائف فيه درجات ، فضلا عن أنه مجتمع صناعي . والخصوصية الأولى تحكم عليه بالسكون والثانية بالتغيير . إن الحركة الاجتماعية تكاد تكون مُلغاة ، ولكن التحولات الصناعية واضحة وبالأخص في مجال الصناعة الثقيلة والتكنولوجيا العسكرية ففي روسيا تتغير الأشياء ولا يتغير الناس . ومن هنا تأتي التكاليف الهائلة التي تسببها حركة التصنيع في أرواح الناس وفي أعمالهم . إن لا إنسانية الصناعة ، وهي سمة حاضرة في كل المجتمعات الحديثة ، تتركز في الاتحاد السوفييتي ، لأن الإنتاج فيه ليس موجها بالأساس للوفاء بحاجات الشعب وإنما لسياسة الدولة . والواقع أن الناس في خدمة هدف تجريدي إيديولوجي . وهذا شكل من أشكال الاستلاب لم يتوقعه ماركس .

فمن جهة يوجد تحجر اجتماعي وسياسي ، ومن جهة أخرى يستمر التجديد التقني والصناعي . وهذا التناقض النابع من الظلم وعدم المساواة يثير اضطرابات تحاول الدولة خنقها بكل وسائل الدكتاتوريات . ومن ثم يقوى الجهاز القمعي وتتجه السياسة نحو التوسع الخارجي . إنها إمبراطورية وبوليس . وهاتان الكلمتان تدلان على أن ثمة استمرارا تاريخيا بين الدولة البيروقراطية والدولة القيصرية برغم الاختلافات الواضحة بينهما . والدولة الروسية ، الواقعة في قبضة إيديولوجية لا تقل توسعية عن النزعة التبشيرية السلافية القديمة ، قد خلقت آلة حرب شديدة القوة تغذيها صناعة عسكرية هائلة . ولعل أكثر الأشياء إثارة من بين كل حالات عدم التساوي في هذا المجتمع ، هو ذلك التفاوت بين مستوى حياة الشعب ــ وهو مستوى منخفض حتى إذا قارناه بمستوى التشيكيين

والهنغاريين والبولنديين وبين القوة العسكرية الجبارة للدولة .

لقد انتشرت حاليا المناقشات في المقاهي والجامعات حول هل روسيا دولة اشتراكية أم لا ، وهذه المناقشات مصحوبة بتجاهل للماضي القريب . وقد حلّ انجلز هذه المسألة فيما سبق عندما أطلق على رأسمالية دولة بسمارك اسم « اشتراكية القشلاق » .

وبالرغم من أن الكتب والبحوث حول الواقع الفعلي لروسيا قد كثرت منذ عام ١٩٢٠ فإن كثيرين في الغرب وفي أمريكا اللاتينية ــ وبالأخص المثقفين وعدد غير قليل من السياسيين الليبراليين والمحافظين ، والبرجوازيين التقدميين ورجال الكنيسة والكاثوليك اليساريين ــ يفضلون أن يظلوا سنوات وسنوات دون أن يعلموا بشيء . إن بيان خروشوف قد كشف الإناء . وبعد ذلك بقليل ظهرت أول كتابات للمنشقين . ومنذ ذلك الحين لم يعد من الممكن الركون إلى التجاهل .

إن سولينتزين Solyenitzin استطاع أن يثير العالم ولعله كان أكثر حظا في ذلك من باسكال Pascal في مناقشاته الجدلية مع الجزويت . وكان تأثيره هائلا لدرجة أنه أحدث ردة عند مجموعة أدباء وفلاسفة باريس ، وفي أقل من خمس سنوات كنا شهودا على ردة جماعات متعددة من المدرسين الماركسيين الذين كانوا يسيطرون على الجامعات الأوروبية . وحتى الراديكاليون لم يعودوا يذكرون Grundisse ولا « رأس المال » Das Capital .

ومع ذلك فبالرغم من أن تأثير المنشقين ــ الروس والبولنديين والتشيكيين والرومان والهنغاريين (المجريين) والكوبيين ــ في الخارج كان كبيرا فإن إمكانيات تحركهم داخل بلادهم محدودة للغاية . لقد أظهر المنشقون أن ثمة هُوّة بين الواقع الفعلي والواقع الإيديولوجي . لقد كانت توصيفاتهم دقيقة لكن تشخيصاتهم كانت أقل دقة . أما وسائلهم فقد أصبحت مهمة .

وليس من السهل أن نعرف كيف سيكون تطور المجتمع الروسي . ولكن من الممكن أن نتوقع أن التناقض الذي تحدثت عنه بإيجاز سوف يتركز أكثر فأكثر في المستقبل القريب ، وسوف يزيد خطورة بمجرد اختفاء جيل القادة الطاعنين في السن الذين يحكمون الاتحاد السوفييتي حاليا(*) .

يلاحظ أن أوكتافيو باث كتب هذه السطور في أواخر عهد ليونيد بريجنيف . والآن بعد مجيء جورباتشوف انتهى بالفعل جيل القادة الطاعنين في السن ، أو أوشك على الانتهاء . وهناك محاولات للإصلاح تجري حاليا في الاتحاد السوفييتي ، والأيام كفيلة بتوضيح كل شيء .. المترجم .

إن المنشقين المثقفين المعروفين في الغرب هم مجرد مظهر سياسي وديني للتناقض القاعدي . إن أي شخص أتيحت له الفرصة لمعرفة الحياة الثقافية الروسية في الجامعات والمراكز العلمية ــ ونفس الشيء يمكن أن يقال عن البلاد الدائرة في فلكها ــ يكتشف فورا أن الإيديولوجية الرسمية ، الماركسية ــ اللينينية ، قد تحولت إلى كتاب قواعد يتلوه الجميع لكن لا أحد يعتقد فيه . إن تآكل استقامة الدولة هو مظهر للطلاق بين الواقع والإيديولوجية ، وثمة مظاهر أخرى لهذا التناقض تتمثل في ظهور الحلم السلافي من جديد Paneslavismo (مذهب وحركة تتطلع لوحدة كل الشعوب السلافية ، وقد ولد نتيجة للحروب الروسية ــ التركية) ، والحنين إلى الأوتوقراطية (الحكم المطلق) القيصرية والقومية الروسية . إن ماضي روسيا مازال حيا وعلى استعداد للعودة .

وهناك تطلعات أخرى تضطرب بعمق أكثر مما يحدث بالنسبة للتوجهات الإيديولوجية ، وهي وإن كان لها متطلبات أكثر اتساعا ، وأكثر تحديدا من متطلبات المثقفين إلا أنها لم تعبر عن نفسها بعد . فمثلا كل الذين سافروا للاتحاد السوفييتي لاحظوا شراهة أهالي المدن في تبني طرق الحياة في الغرب وبالأخص في أمريكا . وليس من المبالغة أن يتحدث عن « أمركة » الشباب في المدن الكبرى . إن انبهارهم بالمجتمع الغربي لا يتوقف عند تقليد أسوأ مظاهره مثل النزعة الاستهلاكية . ولعله من الضروري أن نذكِّر بأن العمال الروس لا يتمتعون بحقوق نقابية قاعدية مثل حقوق الإضراب والترابط والاجتماع وحرية الانضمام . فهل من الممكن إنشاء دولة صناعية قوية على أكتاف طبقة عاملة سلبية ذات روح معنوية منهارة ، وليس لديها إلا طريقة واحدة للكفاح هي اللجوء إلى الكحوليات والكسل والتخريب ؟ وماذا سيفعل النظام الروسي الساكن في مواجهة الطلب المزدوج من جانب من يطلبون حرية أكثر (وهم المثقفون) ومن يزداد طلبهم على أفضل الأدوات الاستهلاكية (وهم الشعب) ؟ .

إن تمرد العمال البولنديين سوف يكون له تأثير ضخم سواء في روسيا أو في البلاد التي تدور في فلكها . وليس مهما أن الجيش البولندي قد سحق تمرد بولندة ، فمنذ أن حدث اضطراب كرونستاد CRONSTADT الذي قمعه لينين وتروتسكي عام ١٩٢١ حتى اضرابات بولندة في عام ١٩٨١ لم تنقطع سلسلة الاضطرابات والانتفاضات الشعبية ضد البيروقراطية الشيوعية . وليس لدينا أخبار عن الاضطرابات في الاتحاد السوفييتي ــ بالرغم من أن حكايات سولينتزين Solyenitzin والمنشقين الآخرين خففت قليلا من

جهلنا بهذا الموضوع ــ لكن أحداث هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة راسخة في أذهان الجميع ، مثل رسوخ خبر هروب مائة ألف كوبي من ميناء بورتو ماريل Puerto Mariel .

وبالإضافة إلى هذا التناقض الداخلي ، فإن النظام البيروقراطي الروسي يواجه تناقضا آخر يمكن أن نصفه بأنه خارجي بالرغم من أنه يحدث داخل حدوده . والاتحاد السوفييتي مثل الولايات المتحدة عبارة عن خليط من مجموعات ذات أصول مختلفة . لكن المشابهة تنتهي عند هذه النقطة . فسكان الولايات المتحدة يتكونون من المهاجرين (ماعدا أصحاب البشرة الحمراء وجزء قليل منهم أصله مكسيكي) ، وقد خضعوا لنظام من التكامل والاستيعاب يطلق عليه Melting - Pot . وقد كان لهذه التجربة نتيجتها وهي أن الولايات المتحدة بلد له طابعه الخاص وأصالته المتميزة . والحق أن نظام Melting-Pot قد ترك السود وعناصر أخرى خارج الدائرة ، بالإضافة إلى أنه لم يُذب الخصائص القومية لكل مجموعة . ومع ذلك فإنه من الواضح أن عملية التوحيد والتكامل متقدمة جدا ولا مناص منها . فكل المواطنين الأمريكيين ــ دون استثناء أكثرهم تضررا بالتفرقة العنصرية ــ يحسون بالانتماء لبلدهم ، ويتحدثون لغة واحدة ، كما أن غالبيتهم العظمى تدين بدين واحد .

أما التوسع الامبريالي القيصري فقد استولى عسكريا على أراض كثيرة وأخضع كثيرا من الشعوب . وبالرغم من أن الوضع قد تغير فإن الأمم لم تختف ، فالاتحاد السوفييتي عبارة عن مجموعة من الشعوب المختلفة كل منها له لغته وثقافته ودينه . وفي إطار هذا التجمع نجد أن روسيا بمعنى الكلمة (أي الجمهورية الاشتراكية الفيدرالية السوفييتية الروسية) تسيطر على باقي الأمم . وبذلك فإن ثمة طابعين يميزان الاتحاد السوفييتي من وجهة نظر القوميات هما : عدم التجانس والسيطرة . إن الاتحاد السوفييتي إمبراطورية بكل معنى الكلمة : إنه تجمع أمم مختلفة ليس بينها رابطة ــ لأن كلا منها لها لغتها وثقافتها وتراثها الخاص ــ تخضع لسلطة مركزية .

إن الاضطرابات القومية داخل الامبراطورية الروسية ــ كما هو معروف ــ متكررة ومستمرة . فقومية الأوكرانيين مازالت موجودة حتى الآن بالرغم من كثرة الاضطهاد ، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن البلطيق balticos والتتار Tartaros والأمم الأخرى . وطبقا لرأي الكاتبة الفرنسية هيلين كارير دينكاوس في كتابها L'Empire Eclaté

(١٩٧٩) فإن التناقضات القومية في الاتحاد السوفييتي كفيلة بأن تلعب دورا أكثر حسما من التناقضات الاجتماعية والإيديولوجية ، وربما كان معها الحق في هذا الرأي ، فإن تاريخ القرن العشرين لم يكن تاريخ صراع الطبقات وإنما تاريخ القوميات المتناحرة . ثم إن حالة الأمم السوفييتية التي تدين بالديانة الإسلامية لها معنى خاص . إنها شعوب مازالت تحتفظ بهويتها القومية والثقافية ، وتزايدها الديموجرافي (السكاني) هائل ، لدرجة أنها خلال السنوات القليلة القادمة سوف تمثل خُمس سكان الاتحاد السوفييتي . والآن فإن نهضة الإسلام ، وهو دين محارب ، أصبحت حدثا يتميز به عصرنا ، ومن المستحيل أن يتوقف الإسلام عند أبواب الاتحاد السوفييتي . إن الدولة البيروقراطية الروسية لم تتوصل إلى حل لا للمسألة القومية ولا للمسألة الدينية ، وهما مسألتان متحدتان بالنسبة للتراث الإسلامي . وسوف تجد حكومة موسكو نفسها في مستقبل ليس بالبعيد في حالة مواجهة داخل حدودها مع التحدي الإسلامي بمظاهره الثلاثة : الديني والقومي والثقافي .

وداخل هذين التناقضين الكبيرين ــ الاجتماعي والاقتصادي ، ثم العنصري والديني ــ تنمو تناقضات أخرى ذات طابع لغوي وثقافي وسياسي . وتراكم هذه التناقضات معقد ومتفجر في الوقت نفسه . إن الدولة الروسية قد تجنبت حتى الآن حدوث الانفجار وذلك باستخدام وسيلتين معروفتين في كل الدكتاتوريات هما القمع وتحويل الأنظار نحو الخارج لتناسي المشاكل الداخلية . إن الرعب الذي حدث في عهد ستالين كان شيئا فريدا في التاريخ ولا يمكن مقارنته إلا بالرعب الذي أحدثه معاصره ومنافسه هتلر .

إن كبار المهلكين في الماضي مثل جنكيز خان وعطيل Atila وتامرلان **Tamerlan** ، وملوك الآشوريين الذين أنزلوا الدمار والرعب بآسيا الصغرى .. كل هؤلاء كانوا أشكالا متواضعة بجانب هذين الطاغيتين الجبارين في القرن العشرين . ومن المستحيل أن نقيس التأثير الذي أحدثه الرعب في استئناس الروح الروسية العامة . وبعد ستالين جاءت مرحلة هدوء تمثلت في السياسة الإصلاحية لخروشوف . وقد وقفت هذه السياسة عند المنتصف واستغرقت فترة قصيرة . ثم جاء بريجنيف فجمدها . إن النظام الروسي ــ حتى بدون تطرف ستالين ــ مازال نظاماً بوليسيا استبداديا .

المسيطرة دون أن تصبح الطبقة المسيطرة

ومن جهة أخرى فإنه ليس من السهل جعله ليراليا دون أن تصبح الطبقة المسيطرة وامتيازاتها في خطر. ففي روسيا لا يوجد ذلك الفضاء السياسي الحر – وهو مكان تتواجد فيه الطبقات والمجموعات وتتقدم وتتقهقر وتتعاقد – والذي أدى إلى إمكانية حدوث الفتوحات العمالية منذ أكثر من قرن. وفي مقابل الضغط الاجتماعي المتزايد تفرض طبقة الصفوة Nomenklatura (الاسم الذي يطلق في روسيا على الطبقة المتميزة) صرامة متزايدة هي الأخرى، وبهذا فإن المجتمع يعيش تحت تهديد مزدوج : فإما التحجر أو الانفجار.

ومنذ أكثر من عشر سنوات اتبعت الحكومة السوفيتية سياسة توسعية صريحة. وهذا التحرك نتيجة لأخطاء وتذبذبات السياسة الخارجية الأمريكية من جهة، ومن جهة أخرى فإنه صمام تنفيس للاضطرابات والمشاكل الداخلية. وفي السنوات القادمة، سوف تضطر حكومة روسيا أمام التناقضات الاجتماعية والقومية المستعصية أن تبحث عن مخرج يتمثل في التوسع نحو الخارج. وحتى الآن فإن التوسع السياسي كان مصحوبا باحتلال عسكري أو في حالات أخرى مثل بولندة وتشيكوسلوفاكيا وكوبا وفيتنام يجعل استمرار حكومات هذه البلاد معتمدا على المعونة العسكرية الروسية.

إن الاتحاد السوفيتي قد عاد إلى المفهوم القديم للإمبريالية، الذي يطابق بين السيطرة وبين السلطة المباشرة على الأرض والحكومات والشعوب. والمفارقة هنا هي أن الاتحاد السوفيتي ليس في حاجة للأراضي ولا للثروات الطبيعية في البلاد الأخرى (إنه يحتاج ماعندها من تكنولوجيا ولكن هذه يحصل عليها بسهولة من خلال القروض الائتمانية والتجارة مع أوروبا واليابان والولايات المتحدة).

وبهذا فإن السبب الرئيسي للتوسع السوفيتي هو نقل الصراعات الداخلية للخارج. فضلا عن سبب آخر يتمثل في الإيديولوجية الامبريالية – أو كما يقول الصينيون شوفينية القوة العظمى Chovinismo – الموروثة عن القيصرية والمختلطة بالتبشيرية الماركسية – اللينينية.

ويجب أن نضيف إلى هذه الأحوال شيئا آخر أشار إليه كورنيليو كاستورياديس Cornelio Castoriadis في مقال مهم له عنوانه « إزاء الحرب » Devant La guerre، ١٩٨١. وكما ذكرت من قبل فإن الاتحاد السوفيتي في نظر كاستورياديس قد تحول إلى

استراتوكراتيا (استراتو Stratos معناها جيش) ، فضلا عن أن البيروقراطية الشيوعية ، وفي يدها سلاح الإيديولوجية ، فرضت الرعب على المجتمع المدني ، والآن فإن الإيديولوجية ، كما نعرف جميعا ، قد تبخرت تاركة مخلفات في الضمير الاجتماعي وفي الممارسة تتمثل في الوقاحة والرشوة والنفاق . إن الفراغ الإيديولوجي ــ طبقا لما يقول كاستورياديس ــ حلت محله اعتبارات ذات طابع عسكري ، ومن ثم فإن الجيش يتجه أكثر وأكثر إلى الإحلال محل الحزب . إن المجتمع العسكري يمثل مجتمعا داخل المجتمع الروسي . وبالمعنى الشامل للكلمة أو بمعنى التركيبة التقنية والعلمية والاقتصادية والصناعية فإن الجيش هو القطاع الوحيد الحديث بحق في المجتمع الروسي وهو الوحيد الذي يعمل بالفعل . إن الدولة العسكرية الروسية ، مثل كل الدول العسكرية تعرف فقط أو تستطيع فقط أن تفعل جيدا شيئا واحدا هو الحرب . والاختلاف مع الماضي يكمن في أن الدول العسكرية القديمة لم تكن تملك أسلحة ذرية .

الحلفاء والدائرون في الفلك والمنافسون :

إن علاقة الولايات المتحدة بأصدقائها وحلفائها أصبحت حرجة وذلك نتيجة لتحركاتها الفاشلة الأخيرة ولطابع السيطرة عندها . ولوصف الكلمة الأخيرة يُستخدم مصطلح الإمبريالية والحق أنه يناسبها أكثر مصطلح الهيمنة **HEGEMONIA** . والقواميس تحدد معنى الهيمنة بأنه سيادة دولة على دول أخرى ، وذلك بأن تفهم هذه السيادة على أنها تأثير كاسح . والإمبراطورية ، على العكس من ذلك ، تطبق السيادة على الأراضي وعلى الشعوب الخاضعة لها . إن السيطرة الأمريكية على أمريكا اللاتينية كانت هيمنة : ذلك أن هذه الهيمنة لم تمارس أبدا بشكل مباشر ، كما هو الحال بالنسبة للإمبراطوريات وإنما من خلال التأثير على الحكومات . وهذا التأثير ، كما هو معروف ، مختلف من حالة لأخرى ويترك هامشا للمفاوضات يتفاوت ضيقا واتساعا .

وبالرغم من أنه في حالات كثيرة لم تتردد الولايات المتحدة في التدخل عسكريا ، فإن هذه التدخلات نُظر إليها دائما على أنها انتهاك للقانون . ومن الحق أن الولايات المتحدة الأمريكية في بداية صعودها أسرعت إلى التدخل العسكري الإمبريالي بكل معنى الكلمة ، واستولت على أراض كانت تابعة للمكسيك أو كانت لا تزال تحت السيطرة الإسبانية .

ولكن منذ بدايات القرن الحالي والهيمنة الأمريكية لها أهداف اقتصادية في المقام الأول ، ثم تليها الأهداف السياسية والعسكرية . وخلال السنوات الأخيرة تغير الوضع ، فقد اضطرت الولايات المتحدة إلى أن تقبل أكثر من مرة حكومات في أمريكا اللاتينية ليست على هواها . ففي أحد الأطراف كوبا ، وفي الطرف الآخر جواتيمالا ، وبينهما شبكة تمتد من نيكاراجوا إلى شيلي .

وفي القارات الأخرى لا يختلف الوضع عن ذلك . فأوروبا الغربية واليابان أظهروا أنهم أنداد لواشنطن وليسوا خدما لها . فالسياسة الدولية لفرنسا كانت في العادة قومية ، كما ظلت غيورة على استقلالها إزاء الولايات المتحدة . وألمانيا الاتحادية منذ عهد فيلي برانت أخذت تبحث عن طريقها المستقل .

ويمكن مناقشة ما إذا كانت سياسة حكومتي فرنسا وألمانيا تتسم بالحذر أم أنها كانت مستلهمة ، على الأقل في جزء منها ، من فكرة معاداة التوجه الأمريكي ، وهي فكرة تزداد نموا سواء بين القوميين الفرنسيين أم بين الاشتراكيين والاشتراكيين الديموقراطيين في كلا البلدين . وبعضهم ، في اليمين ، ذكّروا بسابقة الجنرال ديجول الذي اتخذ منذ سنوات مضت سياسة مشابهة . ومع ذلك فإن أهدافه كانت مختلفة : لقد كان يستهدف قدر الإمكان إقامة توازن في القوى .

وكانت تلك هي سنوات التفوق الأمريكي بينما نجد اليوم أن علاقات القوى قد تغيرت ولكن مالا يقبل المناقشة هو أن السياسة الخارجية لباريس وبون تقوم على النظر الحر سواء كان صحيحا أم خاطئا ، للمصالح القومية في كل من جمهورية ألمانيا الاتحادية وفرنسا .

وفي الشرق الأوسط وآسيا نجد الظروف مشابهة . فالعلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل متساوية ولا يمكن وصفها بالتبعية . فالإسرائيليون في أمس الحاجة للأسلحة الأمريكية مثلما الرؤساء الأمريكيون في أمس الحاجة لصوت اليهود الأمريكيين ونفوذهم . ويحدث الشيء نفسه مع مصر والعربية السعودية : فحاجة كل طرف للآخر متبادلة . والهند ، بين الباكستان والصين ، تمارس سياسة مستقلة ، وهي عادة ماتكون أقرب لموسكو منها لواشنطن . والباكستان لا تعتمد بالكامل على الولايات المتحدة ، ومنذ وقت طويل تربطها علاقة خاصة بالصين .

وفيما يتعلق ببؤرة النظام أي الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان واستراليا وكندا نجد أنه تحالف يقوم على المصالح ، واتفاق حول قيمة مؤسسات ومبادىء معينة مثل الديموقراطية النيابية ، واحترام الأقليات والحقوق الإنسانية . وهذا الاتفاق ليس عقيدة متشددة .

ولهذا فإن مشكلة السياسة الدولية للولايات المتحدة هي نفسها مشكلة سياستها الداخلية : كيف تجد وحدة الهدف والحركة من بين جماعية الإرادات والمصالح واختلافها ؟ .

أما العلاقة التي تربط الاتحاد السوفييتي بالدول الدائرة في فلكه فمختلفة تماما . إن العلاقة هنا سياسية وعسكرية وإيديولوجية أي الكل مجتمعا ومصهورا في حقيقة واحدة . وكل هذه البلاد متحدة حول مذهب واحد . والتفسير القانوني لهذا المذهب تتكفل به موسكو ، القوة المركزية . صحيح أن الدولة السوفييتية أصبحت أكثر تسامحا منها في عهد ستالين ، وقد سمحت بتحركات رومانيا المتعجرفة ، ورفعت وصمة العصيان عن تيتو ، ومع ذلك فإن هوامش تفسير المذهب مازالت ضيقة جدا ، وكل اختلاف سياسي يتحول فورا إلى اتهام بالهرطقة . والنظام الشيوعي مثل ثيوقراطيات الماضي يدمج بين السلطة والفكرة . وبهذا فإن أي نقد للفكرة يصبح تآمرا ضد السلطة ، وكل اختلاف مع السلطة يُعد تدنيسا لأشياء مقدسة . إن الشيوعية محكوم عليها بإحداث انشقاقات ، وهي إما أن تضاعفها وإما أن تقمعها .

إن المذاهب المتزمتة ذات التوجهات العالمية المحصورة تنحو بالتوالي نحو الشقاق ثم تطارده . وسابقة المسيحية واضحة الدلالة في ذلك . فدولة الكنيسة بزعامة قسطنطين وخلفائه منعت أن يتفرق المذهب في كثير من الشُعب ، لكن التكلفة كانت هائلة : لقد كانت الدولة اللاهوتية أيضا دولة تفتيشية . والدولة السوفييتية تطارد كل التحولات بشراسة أكثر من شراسة المطارنة والرهبان . وعلاقاتها بالحكومات الدائرة في فلكها تستحدث من جديد هذا المفهوم الثيوقراطي للسياسة .

وكل واحدة من هذه الحكومات التابعة تحمل بدورها تفسيرا للمذهب لا يقل قانونية وعالمية .. داخل حدودها . والمذهب ، مثل الصورة في مرآة مكسورة ، يتضاعف ، وكل جزء يبدو وكأنه هو التفسير الأصلي ، والوحيد والأصيل .

وبذلك تكون العالمية في خطر دائما لالتصاقها بهذا التفسير القومي أو ذاك . وقد استطاعت موسكو أن تمنع ، لحد ما ، انتشار التفسيرات الخارجة وذلك باستخدام المداهنة والتهديد ، فضلا عن القوة إذا دعت الضرورة . وإذا كانت الدولة الشيوعية تعتمد اعتمادا كاملا على المساعدة العسكرية والاقتصادية كما هو الحال في كوبا وفيتنام فإن مشكلة التزمت لا تكون واردة . ويحدث نفس الشيء عندما تحتاج الحكومات إلى الدبابات السوفييتية للبقاء في السلطة مثل هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة .

إن حالة أفغانستان تنم عن اتجاه الدولة الروسية لأن تجعل من الإيديولوجية جوهر السياسة نفسه . (وهو شذوذ مثالي غريب لأنه يعني أنه لا واقع إلا في الإيديولوجية) . إن المغامرة الروسية في أفغانستان هي الظهر المتماثل لما كانت عليه سياسة الإمبراطورية البريطانية .

فعلى امتداد القرن الماضي حاول الانجليز أن يسيطروا على الأفغان ، وبالرغم من أنهم لم يستطيعوا ذلك بالكامل ، فإنهم حالوا دون أن تقع البلد في قبضة روسيا القيصرية . والحكومة الوحيدة التي كان لها الحق في بعثة دبلوماسية بكابول هي بريطانيا العظمى . ولكن الانجليز لم يحاولوا أبدا تحويل الأفغان إلى ديانتهم أو إلى ملكية دستورية . وفي عام ١٩١٩ استعادت أفغانستان استقلالها وانفتحت على العالم .

لكن تصفية الإمبراطورية البريطانية ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أسرعت بالأحداث . إذ حلَّ الأمريكيون محل الانجليز . وهؤلاء لم يستطيعوا أن يكبحوا جماح الروس لفترة طويلة . كانت الظروف التاريخية قد تغيرت تغيرا جذريا ، فضلا عن أن واشنطن لم تدافع عن هذا الوضع بالحماس المطلوب ، إذ أنها لم تعتبر أفغانستان أبدا نقطة استراتيجية مهمة . وهو خطأ خطير : فمنذ عهد الاسكندر كان هذا البلد مدخلا لشبه القارة الهندية .

والحكومة السوفييتية ، الأكثر حظا من الحكومة القيصرية ، أخذت تتسلل أكثر فأكثر داخل البلد ، وبالأخص بين ضباط الجيش الشبان . وقد كانت السياسة الداخلية لأفغانستان في صالح الروس . فمحمد ظاهر شاه ملك أفغانستان اعتلى عرش البلاد في عام ١٩٣٣ بعد قتل والده . كان الملك في ميعة الصبا ، ومن ثم ترك شئون الحكم

لأقاربه وبالأخص صهره داود خان ، الذي لم يلبث أن أصبح رئيسا للوزراء والرجل القوي في النظام . وحاول الملك أن يتخلص من وصاية صهره ، فقام بانتفاضة سلمية على رأس مجموعة من الساسة البارزين . وقد تحولت أفغانستان إلى مملكة دستورية ، وصدر قانون يستبعد أقارب الملك من الحكومة . وعهد الملك بالحكومة إلى ممثلي الطائفة المستنيرة التي قررت أن تحول البلد إلى مجتمع حديث . وفي مجال السياسة الدولية كان نظام ظاهر شاه حياديا ، وذلك تحت قيادة رئيس الوزراء هاشم ماوندال ، ومن بعده تحت قيادة الذكي الآخر أحمد اعتمادي وكلاهما ليبرالي . كان ذلك في الوقت الذي لم تكن فيه حركة عدم الانحياز قد تحولت إلى وكالة للدعاية السوفييتية(*) .

وكان داود رجلا من الماضي . وبمكره وقسوته وحزمه قرر أن ينشد صداقة الاتحاد السوفييتي . فتحالف مع الضباط ذوي النزعة السوفييتية (وجميعهم تقريبا كانوا قد درسوا في الأكاديميات العسكرية الروسية) ، وتم إسقاط ظاهر شاه في انقلاب عسكري أبيض . ثم أعلنت الجمهورية وعين داود رئيسا لها . وكان لهذا الانقلاب أثر في تعزيز الوجود الروسي في أفغانستان ، كما أنه قضي على بقايا النفوذ الأمريكي والغربي في البلاد . وبذلك أصبحت أفغانستان فنلندة شرقية .

ولكن الحكومة السوفيتية لم تكتف بهذا الانتصار الاستراتيجي والسياسي . ومرة أخرى ظهرت الإيديولوجية : فلكي تصبح السيطرة الروسية أمرا واقعا كان لابد من تحويل أفغانستان — وهي بلد شديد التدين ، مقسم إلى أجناس وقبائل وإقطاعيات متنافسة — إلى جمهورية شعبية ، ثم وقع انقلاب عسكري آخر قضى على سلطان داود وعلى حياته .

وما حدث بعد ذلك معروف ومشهور : الصراع بين الطوائف الإيديولوجية ، والرعب وما يسفر عنه من آلاف الضحايا ، وانقلابان عسكريان جديدان ودمويان ، والثورة الشاملة ضد الدكتاتورية الشيوعية ثم التدخل العسكري .

لقد قارن بعضهم الموقف الروسي بموقف الولايات المتحدة في فيتنام وهي مقارنة خادعة ، لأن الاختلاف بين الموقفين هائل . فالأمريكيون كانت حربهم مدانة شعبيا في جميع أنحاء العالم بما في ذلك بلدهم نفسه ، وقد حاربوا في أرض تقع على بعد آلاف الأميال

(*) ربما يختلف الكثيرون مع هذا الرأي لكنه ، على أية حال ، يعكس رأي الكثيرين من مثقفي أوروبا وأمريكا في حركة عدم الانحياز في فترة من الفترات ، وإن كان الكثير من دول عدم الانحياز حاليا قد أصبحت تدور في فلك المعسكر الغربي . فالمسألة إذن تابعة لظروف التحولات الدولية .. المترجم .

من قوتين عظميين هما روسيا والصين .
من أرضهم ، وضد عدو مجهز ويتلقى مساعدة من قوتين عظميين هما روسيا والصين . أما الروس فعلى العكس كما أن القضية الفيتنامية كانت مؤيدة بواسطة رأي عام قوي . أما الروس فعلى العكس من ذلك يقومون بعملياتهم في بلد مجاور لهم وأمام عدو معزول ، وغير منظم وأعزل من السلاح ، ثم إن الحكومة الروسية لا تواجه في بلدها رأيا مستقلا يجب عليها أن تقدم له حسابات ، كما أنها لا تواجه استنكارا دوليا : وأين هم المثقفون ، ورجال الكنيسة ، والطلاب الذين يتظاهرون لصالح البؤساء الأفغان مثلما فعلوا من قبل من أجل الفيتناميين ؟ .

إن التدخل الروسي في أفغانستان هو مثال جديد لوضع معروف جيدا ، وهو أن الدولة السوفييتية تتبع ، في خطوطها العامة ، نفس السياسة الخارجية للنظام القيصري . إنها سياسة تمليها ، كالعادة ، دوافع الجغرافيا ، وهى أم التاريخ ، كما تستجيب أيضا لتراث إمبريالي توسعي . وفي الماضي كانت الإيديولوجية التي تغذت عليها هذه النزعة التوسعية هي فكرة الوحدة السلافية **Pan-eslava** ، أما اليوم فالإيديولوجية هي الماركسية — اللينينية .

وهذا التغيير في الإيديولوجية يتوافق مع تغيير آخر مادي وتاريخي ، ذلك أن روسيا قد تحولت من قوة أوروبية إلى قوة عالمية . وهو مصير كانت موجهة نحوه منذ نشأتها ، على نحو ما تنبأت بذلك بعض عقول القرن التاسع عشر النافذة ومن بينهم أحد الإسبان وهو دونوصو كورتيس **Donoso Cortés** . ففي عام ١٩٠٤ تنبأ هنري آدمز **Henry Adams** بأنه في القريب سوف تحدث مواجهة بين قوتين متعارضتين هما الجمود الروسي والكثافة الأمريكية . ولم يخطىء بالرغم من : هل يمكن اليوم ونحن نشير إلى روسيا أن نتحدث عن الجمود ؟ إن الصفتين اللتين تنطبقان على سياستهما هما العناد والصبر . وآدمز نفسه ، في فقرة أخرى من سيرته الذاتية ، يصيب عندما يقول : « ينبغي على روسيا أن تخرج من جمودها الفادح وأن تكتسح كل ما يقف عقبة في طريقها مهما كان حجمه » .

نعم إنه تقرير مدهش . إن تغير الإيديولوجية لم يُعدِّل الطابع العميق لهذه الأمة الكبيرة ، ولا وسائل السيطرة عند حكومتها . فمنذ القرن التاسع عشر لم تعد الإمبريالية تحمل إيديولوجية ، وإنما كان التوسع سياسيا وعسكريا وبصفة خاصة اقتصاديا . فالانجليز

والفرنسيون والهولنديون لم يحاولوا بجدية تغيير هوية المواطنين المستعمَرين مثلما فعل من قبل المسلمون والكاثوليك الإسبان والبرتغاليون . وموسكو تعود إلى عملية المزج القديمة بين السلطة والفكرة ، وذلك على النحو الذي كانت عليه الامبراطوريات السابقة على العصر الحديث . إن الاستبداد البيروقراطي الروسي هو إيديوكراثيا إمبريالية .

وقد شعر ميلان كونديرا(*) بالخزي إزاء الاستخدام الشائع لتعبير « أوروبا الشرقية » ، وهو التعبير الذي يطلق على الدول الأوروبية المحكومة بأنظمة تدور في فلك الروس . وهذه الدول ، حسبما يذكر القصاص التشيكي ، جزء من أوروبا الغربية ، وتعيش في وضع لا يختلف كثيرا في أساسه عن الوضع الذي جرّبوه خلال الحرب تحت سيطرة حكومات شكلية مفروضة من قبل النازيين . ولديه الحق في هذا الكلام . بل يجب أن نضيف : إن السيطرة الروسية على هذه الشعوب أوقفت مسيرتها التاريخية .

فمثلا تشيكوسلوفاكيا كانت بلدا حديثا بكل معاني الكلمة ، ليس فقط بسبب نموه العلمي والتقني والاقتصادي الملحوظ وإنما بنمو مؤسساته الديموقراطية وبثراء ثقافته وحيويتها . ففي هذه الأمم الأربع (تشيكوسلوفاكيا ، ورومانيا وهنغاريا وبولندة ، مع أن حالة بلغاريا مختلفة وحالة النظام الشيوعي الألماني مجرد نتيجة للاحتلال الروسي) تم التحرر من النازيين بمشاركة القوات السوفييتية . وفي رومانيا وهنغاريا قامت الشيوعية تحت إدارة العسكريين الروس ، وفي تشيكوسلوفاكيا وبولندة ، حيث كانت توجد حركات شعبية معادية للنازية وذات توجهات ديموقراطية ، نجد أن العملية كانت أكثر تعقيدا لكن تأثير موسكو كان عاملا حاسما في توجيه هذه الأمم نحو الشيوعية . ومنذ ذلك الحين وظل الاتحاد السوفييتي يغطي أرض هذه البلاد كلها ، وقادتها مسئولون في المقام الأول أمام السلطة المركزية « موسكو » ، ثم يلي ذلك المسئولية أمام شعوبهم .

(*) كاتب تشيكوسلوفاكي منشق ، ولد في برنو عام ١٩٢٩ ، وعمل أستاذا في مدرسة الدراسات السينمائية في براغ ، وطرد من وظيفته بعد الغزو السوفييتي لبلاده عام ١٩٦٨ . وأول قصة كتبها وهي « المزاج » (١٩٦٧) ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة ، ثم توالت أعماله القصصية بعد ذلك ولقيت اهتماما كبيرا في الأوساط الأدبية ومنذ عام ١٩٧٥ وهو يعيش في فرنسا ، وقد نزعت حكومة بلاده الجنسية التشيكية عنه عام ١٩٧٩ .. المترجم

إن حكومات ألمانيا الشرقية ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة وهنغاريا وبلغاريا تعيد إنتاج النموذج الشمولي للعاصمة الأم ، بالرغم من أنه توجد بالطبع اختلافات بين كل منها : فرومانيا أقل اعتمادا على موسكو من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ، ونظام هنغاريا أكثر ليبرالية من الأنظمة الأخرى وهكذا دواليك . ولكن تظهر في الجميع العلامات التي تحدد النظام الشيوعي مثل المزج بين الدولة والحزب أو بتعبير أصح مصادرة الحزب للدولة ، والاحتكار السياسي والاقتصادي من جانب الأوليجاركية البيروقراطية ، ووضع الإيديولوجية في المقام الأول ، وتحويل البيروقراطية إلى استراتوكراتيا ، بالمعنى الذي أعطاه كاستورياديس لهذا المصطلح . والنقطة الحاسمة المشتركة بين كل هذه الأنظمة هي اعتمادها على الخارج . إن الطبقة البيروقراطية ــ العسكرية تظل في السلطة بفضل القوات الروسية .

إن الكفاح الذي تقوم به الشعوب الأوروبية منذ عدة سنوات ضد السيطرة الروسية والحكومات المفروضة بواسطة موسكو له مميزات خاصة . إنها في المقام الأول بلاد ذات ماض قومي قديم وشديد الثراء . وكلها ــ ماعدا بلغاريا ــ كانت قد وصلت إلى الحداثة الاقتصادية والثقافية . وبعضها ، وبالأخص تشيكوسلوفاكيا ، كانت تعيش تحت قيادة مؤسسات ديموقراطية متقدمة ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه أمم أوروبية أخرى مثل إيطاليا وألمانيا تعاني من حكم أنظمة فاشية . ثم إنه من الواضح أن هذا الكفاح ضد الأوليجاركية الشيوعية قد بدأته الطبقة العاملة .

وإذا كانت حدة صراع الطبقات في مجمعات تطلق على نفسها « اشتراكية » ، قد أصبحت فضيحة ، فماذا نقول عن القمع الذي قامت به الأوليجاركية الشيوعية في كل منها بتأييد من الاتحاد السوفييتى ؟ . كما أنه من العجيب أن نفكر في أن العمال الهنغاريين والتشيكيين والبولنديين يكافحون من أجل حقوق معترف بها للعمال في باقي أنحاء العالم ، بما في ذلك بلاد أمريكا اللاتينية التي تعيش تحت نير ديكتاتوريات عسكرية رجعية .

وثمة شيء آخر وهو أن الكفاح من أجل حرية الانضمام وحق الاضراب هو مجرد مظهر لحركة أكثر اتساعا تشمل الشعب كله . إنه كفاح من أجل الحصول على الحريات الأساسية . وفضلا عن ذلك فإن المعركة من أجل الديموقراطية لا تنفصل عن الحركة

المطالبة بالاستقلال القومي . إن الانتفاضات ضد الأوليجاركية الشيوعية لا تستهدف إقامة نظام رأسمالي وإنما تستهدف إقامة حياة ديموقراطية واستعادة الاستقلال . إن الانتفاضات التي وقعت في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة كانت محاولات للبعث القومي .

إن عددا غير قليل من المثقفين في أوروبا وأمريكا اللاتينية حاولوا أن يساووا بين سياسة الولايات المتحدة وسياسة الاتحاد السوفييتي وكأنهما وحشان توأمان . أهذا نفاق أم بلاهة أم استهتار ؟ . يبدو لي أن الوحشية تكمن في المقارنة نفسها . إن أخطاء الأمريكيين وعيوبهم وخطاياهم هائلة ولست أنوي غفرانها لهم . كما أني لا أغفر للديموقراطيات الرأسمالية الأخرى في الغرب واليابان . إن سياسة كل هذه الحكومات إزاء روسيا كانت غير متناسقة وضعيفة في غالب الأحيان ، بالرغم من أنه تخللتها اتجاهات عدوانية كلامية ، كما أن تجاهل هذه الحكومات لأمم أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية كان ولا يزال تجاهلا كبيرا لا يقل في شيء عن أنانيتهم المفرطة .

وغالبا ماكانت هذه الحكومات الغربية متواطئة مع دكتاتوريات عسكرية رهيبة ، كما أنها في الوقت نفسه كانت تبدو غير عابئة بالحركات الشعبية الأصيلة (وآخر مثل لذلك هو موقفهم إزاء القائد الثوري النيكاراجوي الديموقراطي عدن باستورا **Edén Pastora** المعروف باسم « القائد صفر ») . وبالإضافة إلى ذلك لابد أن نشير إلى أن الديموقراطيات الرأسمالية قد حافظت داخل حدودها على الحريات الأساسية . وعلى العكس من ذلك فإن النظام السوفييتي — وحلفاء النظام أيضا — يقوم على ركيزتين هما الحرب الإيديولوجية في الخارج والاستبداد الشمولي في الداخل . ولا يوجد شيء من هاتين الركيزتين في البلاد الديموقراطية الغربية .

وبهذا فإن ما أقوم به الآن ليس محاولة للدفاع عن الرأسمالية أو عن الامبريالية وإنما هو دفاع عن بعض الأشكال السياسية التي تقوم على الحرية والديموقراطية والتي لازالت موجودة حتى الآن في الغرب . كما توجد بعض بذور الحرية ، بالرغم من العقبات التي لا تحصى ، في بعض بلاد أخرى من آسيا وأمريكا اللاتينية مثل الهند وسيلان وفنزويلا وكوستاريكا ، وبيرو وكولومبيا وبلاد أخرى قليلة . وكانت بلبنان ديموقراطية ، فهل ستعود إليها في يوما ما ؟ .

وبولندة باحتجاجات كلامية وتهديدات مبهمة باتخاذ عقوبات . وبالنسبة للاتحاد السوفييتي فإن أخطار سياسته القائمة على القوة لا تكمن في ردود الفعل المصلحية الهيابة من جانب حكومات الغرب وإنما تكمن في رد فعل الشعوب الخاضعة لسيطرته .

إن موسكو تعمل على تقوية الروابط بين الطبقات الشيوعية التي تمارس السلطة لكنها تحد من القدرة على المناورة والحركة عند كلا الطرفين . إن الهيمنة الأمريكية مهددة بالتفرق بينما الهيمنة الروسية مهددة بالصلابة ، ومن هنا تحدث الانفجارات بين كل حين وآخر .

وفي قليل من الأحيان بدا أن الدولة السوفييتية عاجزة عن حذف التفسيرات الخارجة على المذهب . والسبب هو أن هذه التفسيرات كانت قد تحولت إلى عقيدة عند بعض الدول المستقلة والقادرة على مواجهة موسكو . وأول مثل لذلك ، كان يوغسلافيا . كما تشبه ذلك حالة ألبانيا . أما الانشقاق الأكثر خطورة وحسما فهو انشقاق بكين . إن الصراع مع الصين لم يلبث أن تحول إلى مناوشات على الحدود ، ثم انتقل فيما بعد إلى الهند الصينية . ففي البداية دارت المعارك بين القوتين من خلال حليف كل منهما : أي فيتنام وكمبوديا ، وبعد العدوان الفيتنامي وهزيمة بول بوت **Pol Pot** قام الصينيون بحملة تأديبية ضد فيتنام كي يلقنوها درسا .

لقد ظهرت الماركسية على أنها مذهب يقضي على الطبقية ويفرض السلام العالمي ، لكن واقع الشيوعية الراهن يقدم لنا صورة متعارضة تماما : عبودية الطبقة العاملة والمنازعات بين الدول « الاشتراكية » .

وأيا كان تطور الأوضاع في الصين فإنه ليس منظورا أن تختفي خلافاتها مع الاتحاد السوفييتي . بل على العكس من ذلك فإن الاحتمال الأكبر هو أن تزيد حدة . وبالرغم من أن المتخاصمين يدَّعون العكس فإن النزاع الصيني ـــ الروسي ليس إيديولوجيا ، وإنما هو صراع بين قوتين لا بين فلسفتين . إنه تبخر غير عادي وذو دلالة للإيديولوجية ولذلك فإن أشباح ميكافيللي وكلوسويتز **Clausewitz** لابد وأنها تبتسم .

إن الصين تعرف أنها مهددة من روسيا ، وهذا هو لب المسألة . ومخاوفها لها ما يبررها ، ذلك لأن حدودها مع الاتحاد السوفييتي واسعة جدا ، فضلا عن وجود جار عدو لها وهو فيتنام ، وجار آخر كانت علاقاتها به سيئة في غالب الأحيان وهو الهند .

إن المنافسة بين الصين وروسيا بدأت في القرن السابع عشر . لقد استقر الروس على ضفاف الآمور Amur عام ١٦٥٠ ، وفي العام التالي أقاموا حصنا في ألباسين Albazin . أما في الصين فقد سقطت مملكة مينج Ming بعد سلسلة من الاضطرابات وأقام الغزاة المنغوليون (المغول) مكانها مملكة أخرى هي تشينج Ch'ing . ولما كان المغول مشغولين بسلام البلد وتعزيز سيطرتهم عليه فإنهم لم يستطيعوا في البداية أن يقفوا في وجه الروس . ثم تغيرت الأوضاع بعد ذلك بربع قرن .

وفي عام ١٦٦١ اعتلى العرش الملك كانشي K'ang-hsi . وكان معاصرا لثلاثة ملوك مشهورين هم أورانجيب Aurangzeb كبير ملوك الهند ، وبطرس الأكبر ملك روسيا ولويس الرابع عشر ملك فرنسا . وطبقا لما ذكره المؤرخون فإن كانشي لم يكن أقوى هؤلاء جميعا فقط وإنما كان كذلك أفضلهم حكما وأكثرهم عدالة وإنسانية .

لقد كان عسكريا بارزا وعاهلا مستنيرا ، كما كان شاعرا متميزا ومثقفا حقيقيا في التراث الكونفوشي . لكن هذا لم يمنعه من الاهتمام بالعلوم الأوروبية الحديثة . وقد عرفها عن طريق العلماء المبشرين الجزويت الذين كانوا يعيشون في تلك الأيام في بكين تحت قيادته . ويحكي إيتميبل Etiemble في كتاب جيد عن تدخل الجزويت في الصراع بين الصين والموسكوفيين وهو الاسم الذي كان يطلقه مؤرخو العصر على الروس (انظر كتاب إيتيمبل ، الجزويت في الصين ، جاليمار ، ١٩٦٦) .

وكان أول إجراء اتخذه كانشي هو إرسال قوات إلى الآمور ، والاستيلاء على الحصن ثم تخريبه . ولكن الموسكوفيين عادوا بقوات أكبر ، فطردوا الصينيين ثم أقاموا الحصن من جديد . وعندئذ استدعى كانشي الأب فيربيست Verbiest . وكان هذا الرجل اليسوعي هو صانع أدوات المراقبة الفلكية للامبراطورية . وقد طلب منه الملك أن يصهر ثلاثمائة مدفع ، وقد رفض الراهب في البداية هذا الطلب ، لكنه اضطر أن ينزل على رغبة الملك بعد ذلك ، وصنع قطع المدفعية المطلوبة في ظرف عام . وبمساعدة هذه المدافع تمت

إزاحة الروس ، وبعد ذلك بأشهر قلائل في عام ١٦٨٩ ، وُقعت معاهدة سلام نيرشينك Nerchinsk بين امبراطور الصين وامبراطور موسكوفيا . وتم التفاوض بشأن هذه المعاهدة بواسطة اثنين آخرين من اليسوعيين هما الأب جيربيون Gerbillon الفرنسي والأب بيريرا Pereira البرتغالي . وقد حررت المعاهدة باللغة اللاتينية . ويقول إيتيمبل إن هذه الوثيقة تضمن في جزء كبير منها طلبات الصين من الاتحاد السوفييتي بخصوص الحدود . وكان الرئيس ماو يعتبر أن معاهدة نيرشينك هي آخر ماوقع بين الاتحاد السوفييتي والصين على قدم المساواة .

إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هما مركزا نظامين للتحالف . والمقارنة بينهما تظهر من جديد وجود تعارض سيمتري . إن النظام Sistema الذي يربط الأمريكيين ببلاد الغرب وباليابان وكندا واستراليا نظام سيَّاب وفي حركة مستمرة . وهو كذلك في المقام الأول لأنه يقوم على الاستقلال وحرية التصرف النسبية لدى كل واحد من أعضاء هذا التحالف ، وثانيا : لأن كل الدول التي يتكون منها هذا النظام تنتهج الديموقراطية التي يحكمها مبدأ تعاقب الناس والأحزاب والأفكار على السلطة : وكل تغيير في الحكومة ، في كل بلد من هذه البلاد ، يحدث تغييرا متفاوت الدرجة في سياسته الخارجية .

أما النظام السوفييتي فليس سيابا وإنما هو ثابت ، ولا يقوم على استقلال الدول وإنما على التبعية . أولا كل واحدة من الحكومات الحليفة تعتمد على المركز ، وبما أنها موجودة في السلطة بفضل الدعم العسكري الروسي فإنها لا تملك الحرية للخروج عن الخط المفروض عليها من قبل موسكو (بالرغم من أنه توجد بالطبع درجات من التبعية : فرومانيا تتمتع بحرية حركة أكبر من بلغاريا ، وهنغاريا تتمتع بحرية حركة أكبر من تشيكوسلوفاكيا) ، وثانيا لأنه لا روسيا ولا أعضاء الكتلة الآخرون يعرفون التعاقب المرحلي للناس والأحزاب على السلطة ، بحيث نجد أن التغييرات قليلة جدا .

إذن فالانسياب والثبات نتيجة لطبيعة العلاقة السياسية التي تربط أعضاء كل من النظامين بالمركز . فالسيطرة التي يمارسها الأمريكيون يمكن أن نطلق عليها هيمنة بالمعنى المستقيم للكلمة أما هيمنة الروس فتدخل في إطار الامبراطورية بالمعنى الواسع للكلمة . فالولايات المتحدة لديها حلفاء أما الاتحاد السوفييتي فلديه دول تدور في فلكه .

والوضع يتغير بمجرد أن ندقق النظر في محيط كل من النظامين. فالولايات المتحدة تجد صعوبات كبيرة في تعاملها أمم آسيا وأفريقيا. صحيح أن هناك بلادا في هاتين القارتين تعتمد على صداقة الأمريكيين ،معوناتهم ، ولكن العلاقة ليست علاقة تبعية. فلا يمكن أن نقول إن حكومات مصر والمغرب والعربية السعودية واندونيسيا وتايلاند وتركيا تدور في فلك واشنطن ، فضلا عن إسرائيل ونيوزيلندة. والصعوبات التي تجدها الولايات المتحدة تأتي في جانب كبير منها من أنه ينظر إليها على أنها وريثة القوى الاستعمارية الأوروبية. وكان أكثر الأمثلة وضوحا ــ وأكثرها تبريرا أيضا ــ لهذا الوضع هو حرب فيتنام.

كما أن الوضع في أمريكا اللاتينية مازال حتى الآن في غير صالح الأمريكيين سواء بسبب تدخلاتهم وتغلغلهم في بلادنا أو بسبب مساعدتهم للدكتاتوريات العسكرية الرجعية. ومع ذلك فإن علاقاتهم بهذه الدكتاتوريات لم تكن دائما متناسقة. وكثير من هؤلاء الجنرالات لزموا جانب الوقاحة والخشونة والعصيان.

وأخيرا فإنه بالرغم من وجود الولايات المتحدة في كل أنحاء العالم بثروتها وقوتها العسكرية فإنها لا تحمل عقيدة عالمية وليس لها في كل بلد حزب يرى فيها تجسيد لهذه الإيديولوجية. فكل سياستها تتمثل في وقف تقدم الشيوعية الروسية وهذا قد حولها إلى مدافعة عن حالة الأشياء القائمة. وهي حالة ظالمة. فالولايات المتحدة وأوروبا الغربية لم تكن قادرة على وضع سياسة صالحة في البلاد المحيطة بها. إنها تفتقر للتصور السياسي، وليس ذلك فقط وإنما أيضا للحساسية والكرم.

والاتحاد السوفييتي يواجه وضعا شديد الاختلاف. إنه لا ينظر إليه على أنه وريث للإمبريالية الأوروبية في آسيا وأفريقيا ، كما أنه لم يتدخل في أمريكا اللاتينية فيما عدا السنوات الأخيرة ، وهو لا يفعل ذلك بطريق مباشر وإنما عن طريق كوبا. وأعني بذلك نيكاراجوا والسلفادور. (الروس والكوبيون ينفون هذا التدخل. وهذا أمر طبيعي. ولكن أقل منه طبيعية أن عدة حكومات من بينها حكومة فرنسا وحكومة المكسيك ، وكثير من المثقفين والصحفيين الليبراليين ــ أمريكيين وفرنسيين وألمان وسويديين وطليان ــ يعتقدون في هذا الكذب ويعملون على نشره). وثمة ميزة أخرى لروسيا هي أن جزءا

من الرأي العام في هذه البلاد ، وبالأخص المثقفين من الطبقة المتوسطة ، لا ينظرون إليها على أنها إمبراطورية في حالة توسع وإنما على أنها حليف ضد الإمبريالية الأمريكية . صحيح أن الحكومة السوفييتية تفعل كل ما في وسعها لتبديد هذه الطموحات ، لكن تصرفها في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة وأفغانستان لم يحدث أي شرخ في إيمان هؤلاء المؤمنين . وثمة شيء آخر وجوهري وهو أن موسكو هي العاصمة الإيديولوجية والسياسية لعقيدة تخلط التبشيرية الدينية بالتنظيم العسكري . وفي كل بلد نجد المؤمنين ، المتجمعين في أحزاب تشبه الكنائس العاملة ، يزاولون نفس السياسة .

إن الأمم الديموقراطية تمارس نوعا من التوقير الخرافي للتغيير ، ولذلك فإنه عندها مرادف للتقدم . ومن ثم فإن كل حكومة جديدة تستهدف اتخاذ سياسة دولية مختلفة عن سياسة الحكومة السابقة . ويضاف لهذا التقلب المرحلي ظهور وهم جديد هو التوصل إلى حالة تفاهم نهائي مع الاتحاد السوفييتي .

وعادة مايعتقد الغربيون في الممكن وفي المستحيل أيضا ، أي التقسيم النهائي لمناطق النفوذ والتأثير بما يؤكد السلام العالمي على الأقل وإن لم يؤدّ إلى العدالة . لكن روسيا عادة ماتقضي على هذه التسويات باستخدام القوة . إن الروس لا يعرفون هذه التغييرات وليسوا ضحايا لهذه الطموحات . إن سياستهم واحدة منذ عام ١٩٢٠ ، والتعديلات التي حدثت فيها لم تكن في العمق أو في التوجه وإنما كانت ذات طابع تكتيكي مرحلي .

ويرى كاستورياديس في رأي نافذ أن الروس لا يريدون الحرب لكنهم لا يريدون السلام أيضا ، بل يريدون الانتصار . فالسياسة الروسية متطابقة ، مثابرة ، ذات أمد طويل وعديمة المرونة ، وبالاضافة إلى ذلك فإنها تخلط بين عنصرين عادة مايظهران عند قيام الإمبراطوريات الكبرى وهما الإرادة القومية والفكرة العالمية . ويتناقض هذا المنطق القائم على الحسم والدهاء والصبر والعناد مع تذبذبات وعدم تناسق السياسة الأمريكية ، ومع تهاون الأمم الأوروبية الكبرى وإرهاقها .

ولو أننا بدلا من أن نفحص مزاج الدول المتصارعة ، توقفنا عند طبيعة مؤسساتها ، ونوعية المشاكل الداخلية التي تعاني منها لاتضحت لنا الرؤية . ففي الولايات المتحدة والغرب أقيمت المؤسسات من أجل دعم عمليات التغيير وتوجيهها واستيعابها ، أما في

روسيا والدول الدائرة في فلكها فقد أقيمت المؤسسات لتحول دون ذلك . إن المسافة بين المؤسسات والواقع كبيرة جداً في الغرب ، أما في روسيا فإن هذه المسافة تتحول إلى تناقض : فلا توجد علاقة بين المبادىء التي تلهم النظام الروسي وبين الواقع الاجتماعي . وهذا التناقض يزداد حدة إذا انتقل من المركز إلى البلاد الدائرة في فلكه .

إن صلابة الاتحاد السوفييتي خادعة ، لأن الاسم الحقيقي لهذه الصلابة هو « عدم الحركة » . فروسيا لا تستطيع أن تتحرك ، أو بتعبير أصح إذا تحركت فمن أجل أن تسحق الجار ،أو تسقط على نفسها مفككة .

□ □ □

□ الفصل الرابع □

التمـــرد والبعـــث

مناوشـــات في الخـــارج :

« العالم الثالث » تعبير يحسن إلغاؤه . وهذا العنوان ليس مُخلاً فقط ، بل هو فخ لغوي . فالعالم الثالث عبارة عن عوالم كثيرة ، وكلها مختلفة فيما بينها . وأفضل مثال لها هو منظمة البلاد غير المنحازة ، وهي مجموعة من الأمم غير المتجانسة ، المتحدة فيما بينها عن طريق السلب . والمبدأ الذي استلهمه مؤسسوها ــ نهرو وتيتو وعبدالناصر ــ كان صائبا ، وقد كان عملها داخل الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وإزاء تعسف القوى العظمى حرجا وأخلاقيا . ولم تستمر في ذلك لأنها تركت نفسها فريسة للعواطف الإيديولوجية ، ولأنه لا أحد من كل هذه الحكومات تقريبا يستطيع أن يقدم دروسا في الأخلاق السياسية لباقي الأمم .

والواقع أن الشيء الوحيد الذي جمع بينها هو العداوة التي أحس بها كثير من أعضائها تجاه الغرب . وهو إحساس له مايبرره : فكل هذه البلاد تقريبا وقعت ضحية للإمبريالية الأوروبية ، إما لأنها كانت مستعمرات تابعة للغرب أو لأنها عانت من تدخلاته وابتزازه . كما أنه من الطبيعي أيضا ألا تنظر بعين الرضا لحليف المستعمرين القدامى ورأسهم الآن

وهو الولايات المتحدة . وقد أفاد الاتحاد السوفيتي بحكمة من هذه المشاعر وحاول ، المرة تلو الأخرى بمزيد من النجاح ، أن يحول المنظمة إلى منبر هجمات ضد الولايات المتحدة وأوروبا الغربية .

وأفدح خطأ وقعت فيه هذه المنظمة هو قبولها لبلاد منحازة علنا مثل كوبا . وإذا لم تستعد المنظمة استقلالها القديم فإنها لن تفقد مبرر وجودها فقط ، وإنما سينتهي بها الحال إلى أن تصبح ، مثل ذلك المعهد العالمي للسلام في عصر ستالين ، مجرد مكتب للدعاية(*) .

إن نهاية الامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية ، وتحول المستعمرات القديمة إلى دول جديدة ، يمكن أن ينظر إليه على أنه انتصار كبير للحرية الإنسانية . وللأسف الشديد فإن كثيرا من الأمم التي حصلت على استقلالها وقعت في قبضة حكام ظالمين مستبدين بنوا شهرتهم على غرابة الأطوار والقسوة أكثر منها على عبقريتهم بصفتهم حكاما . إن غروب العهد الاستعماري لم يكن فجرا للديموقراطية . كما أنه لم يكن بداية للرخاء .

فهناك في الهند مثلا حيث لا تزال الديموقراطية باقية يوجد أيضا البؤس . إن الفقر هو أحد الأسواط في الدول المتخلفة . والكثيرون يعتقدون أنه هو العقبة الرئيسية التي تمنع دخول هذه الشعوب ساحة الديموقراطية . وهي حقيقة غير مكتملة : فالهند بصفة خاصة تعتبر مثالا على أنه ليس ثمة تناقض كبير بين التخلف والديموقراطية . ومع ذلك فمن الواضح أن المؤسسات الديموقراطية تعيش بصعوبة في المناطق التي لم تكتمل فيها عملية التحديث ، ويسود فيها الفقر ، ومازالت المجموعات التي تشكل قاعدة الديموقراطيات الحديثة غير مكتملة النضج فيها ، وهي الطبقة المتوسطة والبروليتاريا الصناعية . ولكن الديموقراطية ليست مترتبة على التنمية الاقتصادية وإنما على التربية السياسية .

إن التقاليد الديموقراطية ــ وهي أكبر مساهمة انجليزية في العالم الحديث ــ قد استوعبتها الهند بعمق وبشكل أفضل من استيعاب ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا لها ، وذلك إن لم نتحدث عن أمريكا اللاتينية .

---

* رغم اختلافنا مع أوكتافيو باث في توصيفه لظاهرة عدم الانحياز ، فإنه قد صار واضحا للعيان الآن أن هذه المنظمة ــ مثل معظم الأشياء في دول العالم الثالث ــ أصبحت حبرا على ورق وأن التحالفات مع القوى العظمى غربية كانت أم شرقية هي التي تحكم كل التوجهات ... المترجم .

والفساد الذي عانت منه الماركسية خلال السنوات الأخيرة يضطرني للتذكير بأن ماركس وانجلز قد فهما الاشتراكية دائما على أنها مترتبة على التنمية وأنها ليست منهجا مستهدفا للتوصل إليه . وإحدى فجوات الماركسية ــ وأنا أشير بذلك للماركسية الحقيقية وليس للهراء الذي يدور حاليا في بلادنا ــ هي فقر مفاهيمها بشأن التخلف الاقتصادي وعدم كفايتها . والمؤلفون الكبار لم يقولوا إلا القليل بخصوص هذا الموضوع : وجميعم ، بدءا من ماركس وانجلز ، وضعوا أعينهم على البلاد الرأسمالية الأكثر تقدما .

وعلى كل حال فإن ثمة أمرا لا يحتمل الشك هو أن المؤسسين وأتباعهم ــ دون أن نستبعد لينين وتروتسكي وروسا لوكسمبرج فضلا عن كاوتسكي والمنشفيين ــ قد اعتقدوا دائما أن الاشتراكية ليست سابقة على التنمية وإنما تأتي بعدها . ومع ذلك فإن كثيرا من مثقفي الدول المتخلفة قد اعتقدوا ومازالوا يعتقدون أن الاشتراكية هي أسرع الوسائل وأكثرها فعالية إن لم تكن هي الوسيلة الوحيدة للخروج من دائرة التخلف . وهو اعتقاد مشئوم أدى إلى ظهور أفكار تاريخية مهجنة ربما فجع بها ماركس نفسه ، فضلا عن أن الاسم نفسه ينطوي على كثير من التناقض وهو « الاشتراكيات المتخلفة » .

إن فكرة استخدام الاشتراكية بصفتها عاملا للتنمية الاقتصادية استلهمت من النموذج الروسي . والحق أن هذا البلد قد تحول إلى قوة صناعية بالرغم من أن الوسائل التي اتخذها ستالين للوصول إلى ذلك كانت سلبا للاشتراكية . ولكن لا يوجد أي سر في هذا التغير . فربما تصبح الصين أيضا في الغد قوة صناعية عظمى . والشيء نفسه سيحدث مع البرازيل وربما مع استراليا . والتحول الاقتصادي لهذه البلاد ليس له صلة كبيرة بالاشتراكية : فكل هذه البلاد بها ثروات طبيعية وبشرية تحتاج إلى أمة لكي تصبح قوة عالمية .

ومن المدهش أن بلادا أخرى بها موارد وسكان أقل استطاعت في وقت أقل أيضا وببذل دماء ومعاناة أقل أن تقوم بتنمية هائلة مثل اليابان وإسرائيل وتايوان وسنغافورة .. إلخ . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن فروق التنمية بين الدول الأوروبية الواقعة تحت سيطرة روسيا مثل ألمانيا الشرقية ، وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبولندة ورومانيا ، وهذه الفروق لا تعود لوجود طبقات اشتراكية مختلفة وإنما لظروف اقتصادية وتقنية وثقافية وطبيعية مختلفة .

إن كوبا هي الدليل على أن الاشتراكية ليست إكسيرا عالميا ضد التخلف الاقتصادي .

وأنا أذكر هذه الحالة لأنها تجمع عدة ظروف تجعل منها أنموذجا .

فهي أولا : شعب متجانس بالرغم من تعدد أجناسه ، وموزع في مساحة قليلة من الأرض يسهل الاتصال فيما بينها ، وكان مستواهم المعيشي والتربوي العام ، قبل تولي فيدل كاسترو السلطة من أعلى المستويات في أمريكا اللاتينية (لم يكن يقل تقريبا عن أوروجواي والأرجنتين) .

وثانيا : فإن كوبا ، على العكس من فيتنام وكامبوديا ، لم تستهلكها الحروب . صحيح أن المقاطعة الأمريكية أوجدت صعوبات في الاقتصاد الكوبي ، ولكن كان ثمة تعويض لجزء من هذه الصعوبات في التجارة مع باقي العالم وبالأخص عن طريق المعونة السوفييتية .

وأخيرا فإن نظام كاسترو قد استكمل ربع قرن ، بحيث أصبح من الممكن تقييم مكاسبه وخسائره من بعيد .

لقد قيل كثيرا خلال سنوات كثيرة — وبالأخص من جانب الماركسيين — إن السبب الرئيسي في التخلف الكوبي وفي اعتمادها على الولايات المتحدة هو اقتصارها على السكر ، الذي كان يربط اقتصاد الجزيرة بتذبذبات السوق العالمي ومضارباته .

وأنا أعتقد في صحة هذا الرأي . ومع ذلك فإن هذا الأمر لم يختف في نظام كاسترو وإنما مازال يمثل محور اقتصاد البلد . والاشتراكية لم تستطع أن تغير من اقتصاد كوبا ، والذي تغير هو طريقة الاعتماد .

ومأساة أخرى : أن آسيا وأفريقيا تحولتا إلى أراضٍ للمعارك وبما أن الحرب الحديثة سهلة الانتقال ، فربما لا يكون مستحيلا أن تنتقل غدا إلى أمريكا الوسطى . وكل حروب هذه الفترة نشبت في الدول المرتبطة بالمعسكرين ، ويمكن أن نلاحظ فيها جميعا اختلاط عناصر ثلاثة هي : مصالح القوتين العظميين ، والمنافسات بين دول القوى العظمى ، والصراعات بين دول المنطقة فضلا عن صراعاتهما الداخلية .

وبهذا يتكرر النموذج التقليدي . ويكفي أن نلقي نظرة على تاريخ الغزوات الكبرى — سواء غزوات قيصر أو كورتيس أو الاسكندر أوكليفي Clive — حتى نجد العناصر نفسها : ذلك أن الغازى يستغل دائما الصراعات بين الدول والانقسامات الداخلية .

وغالبا ما تستغل القوة الإمبريالية دولة دائرة في فلكها من أجل تحقيق أهدافها مثل فيتنام في جنوب شرق آسيا ، وكوبا في افريقيا وأمريكا الوسطى .

كما أن الولايات المتحدة تفيد هي الأخرى من الأنظمة العسكرية في أمريكا اللاتينية ومناطق أخرى ، وتجعل منها أدوات لتنفيذ سياستها . ولكنها لا تعتمد على حلفاء نشيطين

وأذكياء مثل الطبقات الثورية التي استولت في بلاد كثيرة على حركات الاستقلال والبعث الوطني . وفي حالات أخرى تستغل الامبراطوريات الانقسامات الداخلية في بعض البلاد حتى تتدخل عسكريا مثلما حدث في أفغانستان .

وفيما يتعلق بالصراع بين إسرائيل والدول العربية نجد العناصر نفسها ، بالرغم من أن الخيوط التاريخية هنا أكثر تعقيدا وتشابكا وهذه العناصر هي مصالح القوى الكبرى وطموحاتها ، والصراعات بين دول المنطقة ، وهو وضع معقد بشكل خاص نظرا لأن الجانب العربي لا يوجد به اتجاه واحد أو اثنان وانما عدة اتجاهات ، فضلا عن وجود الانقسامات الداخلية في كل واحدة من هذه البلاد مثل اليهود والفلسطينيين في إسرائيل ، والمسيحيين والمسلمين في لبنان ، والبدو والفلسطينيين في الأردن ، والشيعة والسنة في بلاد أخرى ، بالإضافة إلى الأقليات العنصرية والدينية مثل الأكراد . فالمشكلة إذن عبارة عن عقدة تشتبك حولها المصالح الاقتصادية والسياسية والتطلعات القومية والعواطف الدينية والطموحات الفردية . وكان الصلح بين مصر وإسرائيل انتصارا للواقع مثلما كان انتصارا لصحوة السادات وقيمته . لكنه كان نصرا غير كامل . فلن يوجد سلام في هذه المنطقة طالما لم تعترف إسرائيل من جهتها ، بدون أي مواربة ، بأن الفلسطينيين لهم الحق في وطن قومي ، وطالما لم تقبل الدول العربية من جهتها ، وبالأخص القادة الفلسطينيون ، بوجود إسرائيل .

إضـــافـــة :

بعد أن نشرت الصفحات السابقة في يناير عام ١٩٨٠ اصطبغت خيوط التاريخ بلون الدماء . إن قتل السادات لم يعط المتعصبين هدفهم ، فقد استمرت المفاوضات بين مصر وإسرائيل وانسحبت القوات الاسرائيلية من سيناء . ولكن موت الرئيس المصري زاد من حدة الإحباط المعاصر : فلا أحد من الزعماء الحاليين ــ سواء من العرب أم اليهود أم الفلسطينيين ــ يقاس بالسادات في جسارته ورؤيته وكرمه حتى يكرر حركته ويمد يده للخصم . إن اليهود والعرب غصنان لجذع واحد ، ليس بالنظر إلى أصلهم فقط ، وإنما بالنظر إلى اللغة والدين والتاريخ ، وإذا كانوا قد استطاعوا التعايش جنبا إلى جنب في الماضي ، فلماذا يقتتلون الآن ؟ ففي هذا الصراع المخيف تحول العناد إلى نوع من العمى الانتحاري . إنه لا أحد من الخصمين يستطيع أن يحرز النصر النهائي أو يقضي على خصمه . إن اليهود والفلسطينيين محكوم عليهم بالعيش معا .

لم يكن كريما مع الفلسطينيين ومن ثم ذهب إن شعب الهولوكاوست (المجازر الجماعية) هؤلاء إلى الأردن لاجئين . وهناك قامت حرب أهلية مما جعل إخوانهم في الدم والدين وهم البدو يسحقونهم . وقد هربوا من جديد ولجأوا إلى لبنان ، وهو بلد اشتهر بعذوبة عاداته وبالتعايش السلمي الحضاري بين المسلمين والمسيحيين . وقد أعاد الفلسطينيون تنظيم صفوفهم وحولوا لبنان إلى قاعدة عمليات ضد إسرائيل . وفي الوقت نفسه ساهموا مع قوات سوريا في تمزيق البلد الذي رحب بهم وقامت بينهم وبين اللبنانيين المسيحيين معارك شرسة ، مما جعل هؤلاء يبحثون عن دعم إسرائيل . وبعد السلام مع مصر استطاع الإسرائيليون أن يتفرغوا للجبهة الأخرى . ثم قرروا القضاء على المقاومة الفلسطينية فغزوا لبنان ووضعوا القوات السورية في موقف الحياد ، وهزموا المقاومة الفلسطينية بمساعدة الميليشيات المسيحية اللبنانية . وأثناء العمليات اعتدت الميلشيات المسيحية ، بالتواطؤ مع القيادة الاسرائيلية ، على مخيمين للاجئين الفلسطينيين وقتلوا آلافا من الناس الأبرياء .

كان هذا انتقاما شنيعا تحول به المسيحيون اللبنانيون من ضحية للفلسطينيين إلى جزارين لهم . وأصبح الإسرائيليون متواطئين في تنفيذ هذه الجريمة البشعة . وبهذا أقفلت الدائرة ، وتحول الشهداء إلى جلادين .

إن نجاح العملية الإسرائيلية في لبنان لا يعود إلى تفوقهم العسكري فقط . لقد اعتمد اليهود على مساعدة المسيحين وقطاع كبير من المسلمين الذين تعبوا من الاحتلال السوري ومن تطرف الفلسطينيين الذين جعلوا من بيروت « قشلاقا » عاما لهم . لقد تشكلت حكومة لبنانية جديدة ومن المتوقع أن تنسحب القوات الأجنبية – السورية واليهودية – من لبنان خلال الشهورالقادمة(*) .

وبهذا تظهر إمكانية أن يعود السلام إلى المنطقة طالما قرر الجميع – يهود وأردنيون وفلسطينيون – أن يتفاوضوا فيما بينهم . وعلى الأطراف المهتمة أن ترفض تدخل أمم تحركها موسكو ، ولا تريد إلا إشعال النيران . وأعني بذلك سوريا ، وكذلك ليبيا التي يحكمها جبار ديماجوجي متعصب دينيا وحامي للإرهابيين .(**) . ومن جهة أخرى فإن انتصار إسرائيل يمكن أن يتحول إلى انتصار متهالك إذا خضع حكامها لمحاولة أعتباره حلا

---

* يبدو أن أوكتافيوباث كان متفائلا جدا وهو يكتب هذه السطور بعد الغزو الإسرائيلي للبنان ، وتوهم أن الإسرائيليين صادقون في وعدهم بالانسحاب من لبنان فور الانتهاء من عملياتهم ضد الفلسطينيين . وهو ماأثبتت الأيام عكسه ، وأوضحت نوايا إسرائيل التوسعية في المنطقة ... المترجم .

** لا شك أننا نختلف مع باث في هذه الأوصاف التي يطلقها على حاكم عربي ، ولكن للاسف هذه هي صورة الزعيمين العربيين الليبي والسوري في الغرب .. المترجم .

نهائيا للمشكلة . إن الحل لا يمكن أن يكون عسكريا وإنما لابد أن يكون سياسيا ، ويجب أن يقوم على المبدأ الوحيد الذي يضمن السلام والعدل في وقت واحد وهو أن الفلسطينيين لهم الحق ، مثل اليهود ، في وطن .

ولا شك أن وسائل كفاح الفلسطينيين كانت في الغالب بغيضة ، وأن سياستهم كانت متعصبة ومتصلبة ، وأن أصدقاءهم وحماتهم كانوا ومازالوا حكومات عدوانية ظالمة مثل حكومة ليبيا والحكومات العسكرية الشمولية . ولكن لا شيء من ذلك ، مهما كانت خطورته ، يلغي شرعية تطلعهم . وصحيح أن الفلسطينيين قد ساروا وراء قادة متعصبين ووراء أناس ديماجوجيين أوصلوهم إلى النكسة ، ولكنهم إذا أرادوا الاستقلال والسلام فعليهم أن يبحثوا عن قادة آخرين .

ولكن لا بد أن نقبل أيضا بأن عقد الديماجوجية والتعصب لدى القادة الفلسطينيين تولدت من التصلب الإسرائيلي والأنانية الأردنية والعذاب السياسي الذي مارسته ضدهم بعض الأنظمة العربية وبالأخص سوريا وليبيا .

فخلال الحرب العالمية الثانية كتب اندريه بريتون هذه العبارة : « إن العالم يدين بتعويض للشعب اليهودي » ، ومنذ أن قرأت هذه العبارة آمنت بها . ولكن بعد ذلك بأربعين عاما أقول : « إن إسرائيل تدين بتعويض للفلسطينيين » .

إن مشاحنات ونكسات الشرق الأوسط تتكرر وتتضاعف في آسيا وأفريقيا . فبالإضافة إلى الحرب الحمقاء بين إيران والعراق كنا شهودا عاجزين للصراعات بين اثيوبيا واريتريا وليبيا والسودان ، والصين وفيتنام . وهذه هي أشهرها فقط . لقد امتدت هذه الصراعات من المناوشات على الحدود إلى الحروب المفتوحة ، ومن قتل الابرياء إلى المذابح الجماعية . وفي جميعها تترابط بأشكال مختلفة العوامل التي ذكرتها فيما سبق أي المنافسات القبلية القديمة سواء كانت قومية أو دينية ، وظهور طبقات جديدة مسيطرة تحمل إيديولوجيات عدوانية متسلطة ، ومنظمة وفقا لنموذج عسكري ، فضلا عن التدخل العسكري من جانب القوى الكبرى . وفي كل هذه البلاد كان يقوم الكفاح ضد سيطرة القوى الاستعمارية بقيادة مجموعة من الثوريين المحترفين .

---

٠ يبدو أوكتافيو باث في هذه السطور حالما أكثر منه محللا وراصدا لواقع التاريخ والأحداث . إنه يتمنى أن تحل المشكلة الفلسطينية وأن يصبح للفلسطينيين وطن إلى جوار اليهود ، وأن يتعايش الطرفان المتنازعان في سلام . ولكن منطق التاريخ لا يبيح الاغتصاب تحت أي ظرف من الظروف .. فالوطن الفلسطيني مغتصب وهذا هو لب القضية .... .. المترجم .

وفي كثير من الحالات درس بعض هؤلاء القادة الإيديولوجيات الثورية في جامعات العواصم الكبرى. لقد كانت المدارس العليا في العالم القديم بمثابة «مشاتل» للثوريين مثلما كانت مدارس اليسوعيين في القرن الماضي أماكن لتربية الملاحدة والمفكرين المتحررين. لقد نقلت أوروبا الأفكار الثورية للطبقات القائدة في مستعمراتها، ونقلت معها المرض الذي دهمها منذ القرن الماضي وهو «القومية».

ويجب أن نضيف إلى هذين الأمرين الانفجاريين ــ اليوتوبيات الثورية والقومية ــ عنصرا آخر أكثر فاعلية وهو ظهور طبقة جديدة مميزة. وأفكار هذه الطبقة وتنظيمها ووسائل كفاحها تعمل على مضاعفة النموذج الشيوعي للحزب ــ الميليشيا. إنها أقليات مدربة ومعدة للحرب، فضلا عن أنها تحمل إيديولوجيات عدوانية ولا تحترم أفكار الآخرين، بل إنها لا تتحمل وجود الآخرين.

وهذه المجموعة الثورية المحترفة استطاعت أن تركب موجة الانتفاضات الشعبية الأصيلة وتصادر التطلعات المشروعة لشعوبها. وعندما أمسكوا بزمام السلطة أصبح النموذج الوحيد عندهم هو الحرب الإيديولوجية. وكان ماركس يعتقد أن الاشتراكية سوف تقضي على الحرب بين الأمم، أما الذين اغتصبوا اسمه وميراثه فقد جعلوا من الحرب ظرفا دائما للأمم.

إن تصرفهم في الداخل هو عين الاستبداد وفي الخارج هو لهجة الحرب بلا انقطاع. وقد كان أكثر الأمثلة حزنا ورعبا هو حالة الهند الصينية: إن هزيمة الولايات المتحدة وحلفائها تحولت مباشرة إلى قيام نظام بيروقراطي عسكري في فيتنام.

فالحكومة الشيوعية، المفرطة في قوميتها، ابتعثت ادعاءات الهيمنة القديمة لفيتنام، وقد فرضت سيطرتها بالسلاح، بدعم من الاتحاد السوفييتي، في لاوس وكامبوديا. أما الصينيون، وقد اتبعوا بدورهم السياسة التقليدية لبلدهم في هذه المنطقة، فقد وقفوا ضد توسع فيتنام واستطاعوا أن يوقفوا تقدمها، لكنهم لم يستطيعوا إجبارها على الانسحاب من لاوس وكامبوتشيا.

وفي كامبوتشيا البائسة خلفت القوات الفيتنامية وعملاؤها الداخليون حكم بول بوت الظالم الإجرامي الذي كان يحميه الصينيون. وبول بوت هذا ومجموعته هم الذين نفذوا واحدة من أفظع العمليات وأكثرها إجراما في عصرنا، ولا يقارنها إلا عمليات هتلر وستالين.

لكن سقوطه ــ بول بوت هذا درس ف باريس ــ لم يكن تحريرا وإنما حل محله جبروت قتلة متحذلقين ، ونظام استبدادي مدعم بقوات أجنبية . ومثال الهند الصينية فيه كثير من الإثارة لأنه يظهر لنا بوضوح مصير الانتفاضات الشعبية التي تصادرها الجماعات الثورية المحترفة والمنظمة عسكريا . وهذه العملية نفسها تكررت في كوبا وأثيوبيا والآن في نيكاراجوا .

ثورة المصالح الخاصة :

منذ حوالي قرن من الزمان دار الحديث عن ثورة العلوم والتقنية كما تحدثت مجموعات أخرى ، بنفس الحماس ، عن ثورة البروليتاريا الدولية . وهاتان الثورتان تمثلان عند مُنظري الإيديولوجيات والمؤمنين بها وجهين متناقضين وإن كانا متكاملين لمعبود واحد هو التقدم . ومن هذا المنظور فإن عمليتي العودة للوراء والبعث التاريخي ليستا واردتين بل إنهما مستنكرتان . وأنا لا أنفي أن العلم والتقنية قد غيرا طرق معيشة الناس بشكل جذري ، بالرغم من أنهما لم يغيرا من طبيعتهم العميقة ولا من عواطفهم ، أيضا فإني لا أنفي أننا كنا شهودا على كثير من التقلبات والتغييرات الاجتماعية ، برغم أن مسرحها لم يكن في البلاد المشار إليها في المذهب الشيوعي (أي البلاد المتطورة) كما أن صانعيها لم يكونوا هم البروليتاريا الصناعية وإنما كانوا مجموعات وقطاعات أخرى . ومع ذلك فإن مايميز نهاية هذا القرن هو عودة المعتقدات والأفكار والحركات التي كان يعتقد أنها اختفت من ساحة التاريخ . إن كثيرا من الأشباح قد تجسدت وكثيرا من الحقائق المدفونة قد ظهرت من جديد .

ولو أن ثمة كلمة تُعرَّف بها هذه السنوات لكانت هذه الكلمة هي الانتفاضة وليست الثورة . لكنها انتفاضة لا تعني فقط الشغب أو الانتقال العنيف من دولة لأخرى وإنما تعني أيضا التغيير الذي هو عودة إلى الأصول . إنها انتفاضة تشبه البعث . فكل الاضطرابات الاجتماعية الكبيرة تقريبا في السنوات الأخيرة كانت عمليات بعث . وأبرزها جميعا هو انتفاضة الشعور الديني ، المصحوبة عادة بحركات قومية مثل نهضة الإسلام ، وعودة النزعة الدينية إلى روسيا بعد أكثر من نصف قرن من الدعاية ضد الدين ، وعودة جماعة من الطبقة المثقفة في هذا البلد (روسيا) للتفكير ولفلسفات كان يعتقد أنها اختفت

باختفاء القيصرية ، وإحياء الكاثوليكية التقليدية في مقابل تحول جزء من رجال الكنيسة إلى تبشيرية ثورية دنيوية مثلما حدث في المكسيك وبولندة وإيرلندة ، وموجة عودة الشباب الأمريكي إلى المسيحية ، وانتشار الطقوس الشرقية .. الخ . وهو أمر عجيب ، لأن الأديان بالنسبة لنا مثل اللغات بالنسبة لإيسوب : إنها أفضل وأسوأ ماوجده البشر . لقد أعطتنا بوذا وسان فرانثيسكو دي أسيس ، لكنها أعطتنا أيضا توركيمادا ورهبان ويتزيلوبوشتلي **Huitzilopochtli** (ممن لعبوا أدوارا سيئة في تاريخ الكنيسة) .

إن أحداث إيران تدخل بدقة ضمن هذا المفهوم للانتفاضة التي تشبه الثورة . إن سقوط الشاه لم يترجم إلى انتصار للطبقة المتوسطة الليبرالية ، ولم يكن انتصارا أيضا للشيوعيين ، وإنما الذين كسبوا هم الشيعة ، لقد كان حدثا أدى إلى بلبلة في كل أنحاء العالم ، وبخاصة عند الخبراء كما هي العادة .

والشيعة أكثر من أن تكون مذهبا إسلاميا ، وأقل من أن تكون دينا منفصلا ، وأتباعها يعتبرون أنفسهم المتدينين الحقيقيين ويرون أن عقائد وشعائر الأغلبية السنية مختلطة بالوثنية وأنهم (أي السنيين) على حافة الإلحاد . ويشتهر مذهب الشيعة بالتزامه بالأصول وعدم سماحته ، وبوجود مرشد روحي هو الإمام (والإمام عند أهل السنة هو مجرد شخص مكلف بإمامة الصلاة في المساجد) .

أما الإمام الشيعي ففيه أهلية مختلفة عن أهلية الخليفة عند أهل السنة . فالخلافة دخلت فيها القيادة الدينية والملكية الوراثية بينما الإمامة نسب روحي . فضلا عن أن الأئمة كانوا من أحفاد الإمام علي صهر الرسول وأحفاد ابنه الحسين ، شهيد كربلاء . كما أنهم مختارون من قبل الله . واجتماع هذين الشرطين اي الاختيار الإلهي والوراثة يحددان الطابع الثيوقراطي للشيعة . وعدد الأئمة اثنا عشر آخرهم هو الامام المستور الذي اختفى وسيعود في يوم ما ، وهو المهدي . وهذا الأمر الذي يشبه نزول المسيح في آخر الزمان ، يعطي مذهب الشيعة طابعا يتجاوز التاريخ **METAHISTORIA** .

وثمة طابع آخر ملحوظ ، وهو أن كل الأئمة قُتلوا ، ولم يكن قتلهم على يد بعض المسيحيين أو الوثنيين ، وإنما قتلوا بيد بعض المسلمين من أهل السنة . لقد كانوا ضحايا حروب أهلية كانت في الوقت نفسه حروبا دينية . وإذا كان ثمة شيء يميز الشيعة بين باقي النحل الإسلامية فهو ممارسة طقوس الشهادة : إن الأحد عشر إماما في التراث الشيعي كانوا ضحايا مثل المسيح .

ولكن هناك اختلافا كبيرا وذا معنى هو أنهم جميعا ماتوا وسلاحهم في أيديهم أو بواسطة السم الذي دسه لهم أعداؤهم . إن الإسلام دين الجهاد والمجاهدين . ومايميز الشيعة هو أنها ، على عكس الأغلبية السنية ، دين المهزومين والشهداء . وفي كل الأديان يوجد عنصر سادي وآخر يميل نحو تعذيب النفس والشهادة .

وفي المذهب الشيعي ينتصر الاتجاه الثاني . ومع ذلك فإن الانتقال من المازوكية إلى السادية يكون فجائيا وسريع الانفجار . وهذا هو ماحدث حاليا في إيران .

والاختلاف الكبير بين مذهب الشيعة وباقي المذاهب الإسلامية هو أن المذهب الشيعي به طبقة رجال دين منظمة ، تقوم على حماية التراث الديني والقومي معا .

وقد تطابق المذهب الشيعي مع التراث الفارسي ، ولذلك فإن بعض فروعه ، وعلى الأخص الإسماعيلية تحمل آثارا من الديانات الإيرانية القديمة مثل المانوية . وهنا من المناسب أن نذكرً بأن العبقرية الإيرانية ابتدعت نظما دينية كبيرة . وخلال العصر الإسلامي ازدهرت الصوفية التي هي استدراك روحي للمذهب الشيعي ، وهناك ظهر متصوفة كبار . إنه شعب به فلاسفة وملهمون وشعراء ، لكن به أيضا دعاة سفاكين للدماء مثل ذلك المدعو حسن صباح ، مؤسس مذهب الحشاشين **Los Hashshasin**(اصل كلمة القتلة) وهم محاربون يدخنون الحشيش كانوا يقومون بإرهاب المسيحيين والمسلمين السنيين في القرن الثاني عشر .

وباختصار فإن الشيعة مذهب ديني له أتباع ينحل في عقيدة تتجاوز التاريخ هي تقديس المهدي ، الإمام المستور . وهذا التجاوز الشيعي**Metahistoria** يصب بدوره في ماض ألفي قومي وديني وجهادي في الوقت نفسه ، مفتون بتقديس الشهادة .

إن الانتفاضة التي قضت على الشاه ونظامه هي ترجمة لمصطلحات متفاوتة الحداثة لكل العناصر التي ذكرتها فيما سبق . وإني أؤكد مرة أخرى أننا لسنا شهودا على ثورة بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، سواء كانت ثورة ليبرالية أم ماركسية ، وإنما نحن شهود على انتفاضة : إنها عودة إلى أحشاء الشعب ، واستخراج للتراث المطمور وعودة إلى المنبع الأصلي .

فإيران رفضت عمليات التحديث التي كان الشاه ونظامه الاستبدادي ، يريد أن يفرضها على البلاد من عل بمعونة الولايات المتحدة . وبسقوط محمد رضا بهلوي تساءل الكثيرون منا : هل سيكون الزعماء الجدد قادرين على استيعاب مشروع آخر للتحديث يتوافق مع التراث الخاص ؟ .. وهل سيستطيعون تحقيقه من الأسفل للأعلى ؟ وفي البداية كان الشك مباحا . فوجود شخصيات مثل بني صدر في حكومة طهران كان يمكن أن يفتح طريقا للأمل .

لقد بدا أن هذا الشاب السياسي كان لفترة قصيرة بمثابة جسر بين الجماعة الداعية إلى الإصلاح في الطبقة الوسطى وبين أتباع آية الله الخميني المفعمين بالحميَّة السياسية ـ الدينية . وبني صدر ينحدر من أسرة دينية ، حيث كان أبوه آية الله ، وقد رأس الخميني نفسه مراسم جنازته . فبني صدر إذن بصفته رجل دين واقتصاد حاول أن يحدث ائتلافا بين التراث الإسلامي وبين الفكر السياسي والاقتصادي الحديث . لكنه لم يجد وقتا لوضع أفكاره موضع التنفيذ .

لقد أزاحته قوات صديقه القديم وأبيه الروحي الخميني ـ مشهد مؤسف : ففي الانتفاضة الفارسية كانت هناك بذور نهضة تاريخية[1] . ولعل هذه البذور مازالت موجودة وإن كانت غارقة في الأمرين اللذين يهددان كل الانتفاضات الشعبية وهما الديماجوجية والاستبداد . فالديماجوجي يثير الفوضى ، وعندئذ يأتي المستبد بمشنقته وجلاديه .

فلماذا إذن نجد الانتفاضة الإيرانية بدلا من أن تفتح الأبواب مثل الثورة المكسيكية أغلقتها ؟ لقد كان تدخل الطبقة المتوسطة البارزة حاسما في الحركة التي قامت ضد نظام محمد رضا . وهي ظاهرة تتكرر في التاريخ المرة تلو الأخرى : ذلك أن المعارضة ضد الشاه بدأتها مجموعة اجتماعية ظهرت نتيجة لسياسة التحديث الاقتصادي والفكري التي قام بها العاهل نفسه . وكان اتجاه هؤلاء المثقفين ، المنفتحين على الثقافة الحديثة ، وكثير منهم تعلموا في الخارج ، هو القومية الديموقراطية المصبوغة بدعوة إصلاحية اشتراكية ،

---

(١) إيران ، الاسم الرسمي ، يدل على الأصل الآري لهذه الأمة . لكن كلمة فارس تعني بالنسبة لنا ثلاث آلاف سنة من التاريخ .

وبعضهم . مثل بني صدر كانوا يحاولون التوفيق بين الفكر الحديث وبين التراث الإسلامي (مثلما فعلت بعض الحركات المسيحية عندنا) . ولكن هذه الطبقة المتوسطة بعد أن عجزت عن الصمود أمام أتباع الخميني اضطرت لأن تنسحب وتتخلى عن السلطة للمتطرفين . وقد أعدم كثير منهم بينما يعيش آخرون في المنفى .

إن أتباع الخميني توحد فيما بينهم إيديولوجية تقليدية بسيطة وقوية تنطبق على الأمة نفسها ، وذلك مثل الكاثوليكية في بولندة وفي المكسيك . ونظرا لإخلاصهم لتراث الإسلام ــ وهو دين المجاهدين ــ فقد نظموا أنفسهم عسكريا منذ البداية . وبذلك فإن العناصر الرئيسية التي تحدد الأحزاب الشيوعية قد ظهرت لدى الجماعات الشيعية التابعة للخميني وآيات الله ، مثل الخلط بين الجانب العسكري والجانب الإيديولوجي .

إن المضمون متعارض لكن العناصر ــ والخلط بينها ــ واحدة . إن رجال الدين الشيعة الذين أحسوا بجرح في مصالحهم الاقتصادية من جرَّاء الإصلاح الزراعي الذي قام به الشاه ، كماأحسوا بجرح في إيديولوجيتهم بسبب سياسة التحديث ، هؤلاء جعلوا من قضية دعاة الإصلاح من الطبقة الوسطى قضيتهم لكنهم لم يلبثوا أن استولوا على الحركة التي تحولت شيئا فشيئا إلى تمرد .

لقد تحول المذهب الشيعي من كونه عقيدة سلبية للأغلبية ، إلى قوة فعالة في الحياة السياسية بإيران . ولكن رجال الدين الشيعة ، سواء بإيديولوجيتهم ونظرتهم للعالم أم بتكوينهم وتنظيمهم ، لا يمكن أن يصبحوا أداة لفتح أبواب الحداثة الحقيقية للشعب الإيراني . إن حركتهم ماهي إلا عودة للوراء . إحباط شديد الوطأة : ذلك أن الانتفاضة قد انتهى بها الحال إلى أن أصبحت سيطرة متشنجة من جانب رجال الدين ، كما سقطت عملية البعث في هوة .

إن عمليات الظلم والاستبداد تحتاج ، لتبرير سيطرتها ، إلى تهديد عدو خارجي . وعندما لا يكون هذا العدو موجودا فإنها تخترعه . إن العدو هو الشيطان . إنه ليس شيطانا نكرة وإنما هو شخصية نصف واقعية ونصف أسطورية ، يجتمع فيها عدو الخارج وعدو الداخل . وتطابق العدو الداخلي مع القوة الأجنبية له قيمة عملية ورمزية في الوقت نفسه .

إنه غريب عنا ، وإنما خارج الجسد الاجتماعي :

إن الشيطان لا يوجد إذن في داخلنا وإنما خارج الجسد الاجتماعي : إنه غريب عنا ، وعلينا جميعا أن نتحد حول الزعيم الثوري حتى ندفع شره عنا . وفي حالة إيران كان الشيطان كارتر يمثل عامل الوحدة الثورية . وكان من الضروري للخميني أن يحصل على هذه الوحدة . ولو لم يكن الشيطان موجودا ، ولو لم يكن العدو الخارجي موجودا لما سهل على الخميني تبرير المعركة ضد الأقليات العنصرية والدينية مثل الترك والأكراد والبلوشستان وأهل السنة ، وضد أعداء النظام أو المنشقين عليه . ولا أود أن أقول إن حنق الإيرانيين على الولايات المتحدة لم يكن له مايبرره .

فالحق أن الأمريكيين يمثلون بالنسبة للضمير الإسلامي استمرارا للسيطرة الغربية ، وهم ليسوا فقط الوارثين للإمبرياليات الأوروبية في القرن الماضي ، وإنما هم كذلك ورثة مغامرين ومحاربين من عصور أخرى . وبالإضافة إلى هذه الأفكار التاريخية الملتصقة بالذهن توجد حقيقة أخرى معاصرة وهي أن حكومات واشنطن لم تكن أصدقاء للشاه فقط بل كانت متواطئة معه وتحمي نظامه .

ولذلك فإن كل شيء كان يجعل من الولايات المتحدة شيطانا عند الإيرانيين ولا يمكن أن نقول إنهم (أي الأمريكيين) لا يستحقون هذا الشرف الخاطىء . فوجود الشاه في نيويورك حقق عملية المزج بين الخيال والواقع ، وبذلك فإن الشيطان لم يعد مجرد مفهوم وإنما تحول إلى حضور نابض عند المؤمنين . وكان الرد على ذلك هو الاستيلاء على السفارة الأمريكية واحتجاز الدبلوماسيين الأمريكيين .

وهذا العمل يبدو وكأنه قطعة مسرحية صنعتها الصدفة ، وهي مؤلف يتسم باللامبالاة أكثر من اتسامه بسوء النية . إنها الصدفة التي تحل محل القدر الإغريقي والعناية المسيحية كما هو الحال في أعمال شكسبير ومارلو . والفرق بين هذه القوى القديمة وبين الصدفة الحديثة يتمثل فيما يلي : يفترض في أفعال العناية الإلهية والقدر أن لها معنى وإن كان مستورا ، بينما أفعال الصدفة ليس فيها منطق أو دلالة أو معنى . لقد ارتبط كل عنصر من عناصر هذه الأزمة بما يليه بنوع من عدم الانسجام الصارم أو عدم سبق التأمل : مرض الشاه ، وقراره المندفع بألا يعالج في المكسيك وإنما في نيويورك ، وقرار الحكومة الأمريكية الذي لا يقل اندفاعا أيضا بقبول الشاه . وكان حضور الشاه إلى نيويورك بالنسبة

للقادة الإيرانيين بمثابة هبة لم تنزل من السماء وإنما جاءت على يد خصومهم أنفسهم .

إن الاستيلاء على السفارة واحتجاز الدبلوماسيين كان انتهاكا للأعراف الدولية . وفي الحركات الثورية يتحد مفهوم التضحية بصفة شبه دائمة مع مفهوم الانتهاك . فالضحية ترمز للنظام الذي يموت ودمها يغذي العصر الذي يولد : لقد مات الملك شارل الأول بضرب عنقه ، ومات لويس السادس عشر على المقصلة .

إن مهمة الانتهاك تشبه مهمة الشيطان الأجنبي ، لأنها تجمع الثوريين حول أخوة الدم المسفوك . وكان القصاص الفرنسي بلزاك من أوائل من برهنوا على أن الجريمة الجماعية هي نوع من القربان (قصة الثلاثة عشر) .

ولكن الانتهاك بالإضافة إلى ذلك يرفع القداسة عن الشخص وعن المؤسسة المنتهكة حرمتها ، أي أنها عملية انتهاك حقيقية لشيء مقدس ، وبذلك يصبح دنيويا ماكان من قبل مقدسا .

إن الاستيلاء على سفارة الولايات المتحدة كان انتهاكا لقداسة مكان ، تعتبره المعاهدات والقوانين والأعراف الدولية عادة غير قابل للانتهاك ، وهو انتهاك يؤكد في الوقت نفسه أن ثمة قانونا أعلى هو القانون الثوري . وهذا التعليل ليس قانونيا وإنما هو ديني . إن الانتفاضات والثورات ماهي إلا أساطير مجسدة .

وفي إيران كانت التضحيات ـ ومازالت ـ هائلة ، وإن كانت لم تأخذ الطابع اللاشخصي لمذابح هتلر وستالين وبول بوت الذين استخدموا في إفناء نظرائهم من البشر وسائل جهنمية من إنتاج الصناعة في عصر كل منهم . إن قسوة الخميني وأتباعه من رجال الدين قسوة تقادم بها العهد . وفي التضحية ، كما في طقوس الشيطان الأجنبي ، تضاف الفائدة السياسية أو ترتبط بالرمزية المتعلقة بالطقوس . وكل الحركات الثورية تستهدف إقامة نظام جديد أو تأسيس نظام لا يغيب عن الذاكرة .

وفي كلتا الحالتين نجد الثورات ، في حرصها على المعنى الأصلي للكلمة ، تمثل عودة إلى البداية عودة حقيقية ، وهذه العودة للبداية كما تعلمنا الأنثروبولوجيا ، تصبح معاصرة أو تتحقق من خلال التضحية . وبين الوقت الذي ينتهي والوقت الذي يبدأ توجد وقفة ،

خلاله يبدأ الوقت في السير من جديد

وبذلك تكون التضحية هي الحدث الذي من خلاله يبدأ الوقت في السير من جديد، وإن كانت تأخذ في كل زمان ومكان شكلا مختلفا. إنها ظاهرة عالمية حاضرة في كل المجتمعات والعصور، فمثلا في بعض المناطق المعزولة في الهند يبدأ تأسيس البيت حتى الآن بنوع من الطقوس يتمثل في ترطيب المقابر بدم عنزة صغيرة، بحيث تحل محل الضحية البشرية القديمة.

ومن العجيب أن تنتقل هذه الشعيرة القديمة إلى بعض المصطلحات السياسية الحديثة: فمنذ سنوات كنت في زيارة دبلوماسية للسيدة بندرانيكا رئيسة وزراء سيلان في ذلك الوقت (سيريلانكا) وقد قالت لي وهي تحكي عن تجارب إحدى زياراتها لبكين: « إن تفوق الصينيين علينا يأتي من أنهم اضطروا لأن يقاتلوا بالفعل. لقد كان من سوء حظ سيلان أننا حصلنا على استقلالنا بدون كفاح مسلح، وحتى بدون إراقة دماء تقريبا. وحتى نقيم بناء في التاريخ لابد من ترطيب القراميد بالدماء».

وفي حادث الرهائن لم تتم الطقوس الدينية إلا بصورة رمزية. فبالرغم من وجود انتهاك للقداسة لم تحدث التضحية. كما لم يوجد أيضا حكم عام: فالحكومة الإيرانية لم تنفذ تهديدها بمحاكمة الدبلوماسيين ومعاقبة من تثبت إدانتهم. وبذلك فإن الأمر لم يعْدُ كونه مزاولة لبعض الطقوس. ذلك لأن الثورات تستهدف إقامة النظام الدقيق للبداية، ومن ثم تحتاج إلى الاستعانة بوسائل تجعل من الشخص المحصَّن (مثل الملك والراهب والدبلوماسي) فردا عاديا، وتجعل من الضحية مجرما. وفي المجتمعات البدائية كان يتم اللجوء إلى السحر لتغيير طبيعة الضحية، أما في المجتمعات الحديثة فيكون اللجوء إلى المحاكمة الجنائية. كان هذا هو مبرر محاكمة شارل الأول ولويس السادس عشر، أما في زماننا فهو مبرر محاكمات بوخارين Bujarin، ورادك Radek وزينوفيف Zinoviev والبلشفيين الآخرين.

لقد حول نظام الخميني الصراعات مع جيرانه إلى حرب إيديولوجية وإلى صليبية دينية ضد إخوانه السنيين. وبهذا يكون قد أدى فريضة كل الثورات، وكان مخلصا للتراث الشيعي وذلك بالجهاد المذهب الشيعي يميل للحرب. ففي عام ١٩٨٠، في أول مسوّدة لهذا المقال كتبت أقول: « إن ومن ثم فإنه بالطريقة نفسها التي أثار بها استنكار الأقليات

العنصرية والدينية في إيران سوف يضطر لمواجهات دامية مع البلاد الإسلامية الأخرى في المنطقة .

فعند رجال الدين الشيعة كما عند أئمة الماضي نجد أن الدين والسياسة والحرب شيء واحد والشيء نفسه . ولذلك فإن الشيعة ، سواء من جهة إخلاصهم لتراثهم أو بدافع من ضرورات الحاضر ، سوف يحاولون إعادة حالة الحرب الأهلية التي عانى منها العالم الإسلامي لعدة قرون . وهذا تعرفه حكومات العراق وسوريا والعربية السعودية أفضل مما تعرفه حكومتا واشنطن وموسكو » . وقد أكدت الحرب مع العراق توقعاتي .

وعندما بدأت الاشتباكات ، توقع الخبراء أن تحرز العراق انتصارا سريعا على أمة منقسمة على نفسها وتراق فيها الدماء . ولكن ذلك لم يحدث حتى الآن . ذلك أن الجيش الإيراني مدفوع بالإيمان . إنها تضحية من جديد في سبيل مبدأ .

وأبرز مافي المشكلة التي وقعت بين الولايات المتحدة وإيران ، أو بتعبير آخر الظاهرة التي جعلت منها شيئا بارزا ، هي عدم قدرة أي من الطرفين على فهم مايقوله الطرف الآخر . كان من المستحيل أن يفهم الخميني الأسباب القانونية والدبلوماسية التي تذرع بها الأمريكيون . كانت تتملكه (أي الخميني) حمية دينية وثورية ــ وكلا الهدفين ليسا متناقضين ــ ولذلك كان لابد أن تبدو له لغة كارتر علمانية دنيوية ، أي شيطانية ومستلهمة من الشيطان ، مخترع الكذب .

أيضا لم يكن من المستطاع أن يفهم الأمريكيون ماكان يقوله الخميني وأتباعه : كانت تبدو لهم لغة جنون . وقد وصفوا تعبيرات آية الله أكثر من مرة بأنها هذيان غير منسجم . إذن فإن اللامعقولية والهذيان تمثلان بالنسبة للضمير الحديث ماكان يمثله الاستحواذ الشيطاني عند القدماء .

وبهذا وجد نوع من التماثل بين مواقف الأمريكيين والإيرانيين . فكارتر كان يستحوذ عليه الشيطان ، أي أنه كان مجنونا ، والخميني كان يهذي أي أن الشر كان يركبه . وبتعبير آخر فإن لغة الخمينى هى لغة قرون أخرى أما لغة الأمريكيين فهى حديثة . إنها لغة الليبرالية العقلانية المتفائلة ، ولغة البراجماتية ولغة الديموقراطيات البرجوازية الفخورة بفتوحاتها في مجالات العلوم الفيزيقية والطبيعية ، تلك الفتوحات التي أهلتهم للسيطرة على

الطبيعة وعلى الحضارات الأخرى . ولكن لا العلوم ولا التقنية تنقذنا من المصائب الطبيعية أو التاريخية . ومن ثم فإن على الأمريكيين والأوروبيين أن يتعلموا كيف يستمعون إلى اللغة الأخرى ، اللغة المدفونة .

إن لغة الخميني قديمةُ ، لكنها في الوقت نفسه شديدة الحداثة .

إنها لغة البعث . إن تعلم هذه اللغة يعني إعادة اكتشاف تلك المعرفة التي نسيتها الديموقراطيات الحديثة ، ولكن الإغريق لم ينسوها أبدا ، كل ما في الأمر أنهم عندما تعبوا نسوا أنفسهم : إنه البعد المأساوي للإنسان . إن عمليات البعث رهيبة ، وإذا كان السياسيون والحكام يجهلونها الآن فإن الشعراء قد عرفوها دائما . يقول كيتس Yeats :

.... هناك في رمال الصحراء ،
يوجد شكل – جسم أسد ، رأس إنسان –
النظرة فارغة وهي مثل الشمس قاسية ،
إنها تتقدم ، بأطراف ثقيلة ، وتدور من أعلى
ظلال هائجة لبعض العصافير ....

□ □ □

□ الفصل الخامس □

تحـــــولات ...

تطعيمات وعمليات بعث :

توقفت طويلا جدا أمام حالة إيران . لأنها تبدو لي بمثابة إنذار من الأزمنة . إن بعث التقاليد القومية والدينية ليس إلا مظهرا من تلك المظاهر التي يجب أن يطلق عليها « الانتقام التاريخي للمصالح الخاصة » . كان هذا هو الموضوع الحقيقي للسنوات الحاضرة وسيظل كذلك طوال السنوات القادمة . فالسود ، والشيكان ، والنساء ، والباسكيون . والبريتون (جنس ينسب لبريطانيا في شمال فرنسا) ، والإيرلنديون ، والبلجيكيون الجنوبيون ، والأوكرانيون ، والليتونيون ، والليتوانيون ، والاستونيون ، والتتار ، والأرمينيون ، والتشيك ، والكروات ، والكاثوليك المكسيكيون ، والبولنديون ، والبوذيون ، وسكان التبت ، وشيعة إيران والعراق ، واليهود والفلسطينيون ، والأكراد الذين يقتلون بين الفينة والفينة ، ومسيحيو لبنان والمهرات والتمبل والخمير .. كل واحد من هذه الأسماء يشير إلى خصوصية عنصرية ودينية وثقافية ولغوية وجنسية . كلها حقائق لا تقبل المناقضة ، ولا يمكن أن تحلها أية عملية تجريدية . إننا نعيش ثورة الاستثناءات ، التي لا تؤخذ على أنها أشياء غير معتادة أو مخالفات لقاعدة عالمية افتراضية وإنما تؤخذ

وكانت الماركسية قد وضعت مرتبة عالمية هي على أنها حقيقة خاصة ، وعلى أنها مصير . وإنما حاولت صنع المستقبل : الطبقات ، وبهذه المرتبة لم تحاول تفسير التاريخ الماضي فقط ، أما البروليتاريا الدولية فعليها أن تصنع فالبرجوازية هي التي صنعت العالم الحديث ، المستقبل . ومن جهة أخرى فإن الوضعية والفكر الليبرالي قد قصرا التاريخ الجماعي للبشر على عملية أحادية الخط لا شخصانية هي التقدم الذي هو وليد العلم والتقنية . وكل هذه المفاهيم منسوجة بعنصرية متمركزة ، وقد نهضت ضدها المصالح الخاصة القديمة والجديدة . إن العالمية التي دعت إليها النظم التي أُعدت في الغرب خلال القرن التاسع عشر قد تحطمت وولدت عالمية جماعية أخرى .

ولعل بعث الشعوب القديمة وثقافاتها وأديانها كان مستحيلا بدون حضور الغرب وتأثير أفكاره ومؤسساته . إن حداثة أوروبا هي المفاعل الذي أحدث هزات في مجتمعات آسيا وأفريقيا . والظاهرة ليست جديدة ، فالتاريخ مصنوع من الفروض والتبادلات والاقتباسات وتحولات الأديان والتقنيات والفلسفات الأجنبية .

وعادة ماتكون الصلات مع الأجانب حاسمة في عمليات التغيير الاجتماعية . وقد أصبح هذا بشكل خاص في آسيا وشمال أفريقيا وهي مناطق ذات ثقافات قديمة : ففي الصين لا يحكم الآن « ابن السماء » وإنما يحكم السكرتير العام للحزب الشيوعي ، واليابان حاليا مملكة ديموقراطية ، والهند جمهورية ، ومصر جمهورية أخرى . إذن فالأنظمة والإيديولوجيات والأعلام قد تغيرت . ولكن ماذا عن الحقائق العميقة ؟

إننا إذا توقفنا مثلا عند نطاق العلاقات بين الأمم والدول ، فماذا نجد ؟ يكفي أن نعيد قراءة عمل فني مثل كيم **Kim** ، وهي القصة التي أَلَّفها كبلنج **Kipling** ونشرت عام ١٩٠١ لنرى كيف أن العمق التاريخي الذي يستخدم ستارة لعقدة القصة لا يختلف كثيرا عما هو حادث الآن : فالصراعات محتدمة في منطقة واسعة تمتد من أفغانستان حتى جبال الهملايا تؤججها طموحات الإمبريالية الروسية وإمبرياليات الغرب .

إن المنافسة بين الصين والروس بدأت في القرن السابع عشر . والعلاقات بين الصين والتبت كانت منذ القرن الثالث عشر مضطربة وعاصفة ، حيث تخللتها حروب وعمليات احتلال وتمرد . إن العداء بين الصينيين والفيتناميين بدأ في القرن الأول قبل المسيح .

وتاريخ كمبوتشيا كان صراعا مستمرا مع جارتيها تايلاند وفيتنام منذ القرن الرابع عشر . وهكذا دواليك . إذن فليس ثمة جديد . على العكس ، فالفرق بين آسيا عام ١٨٨٠ وآسيا عام ١٩٨٠ هائل . فمنذ قرن كانت البلاد الآسيوية مسرحا لصراعات وطموحات القوى الأوروبية ، والآن استيقظت هذه الشعوب القديمة ، ولم تعد مجرد أشياء ، وإنما أصبحت فاعلة للتاريخ .

وأول إنذار للتغيير جاء عام ١٩٠٤ ، ففي هذا العام هزم الروس على يد اليابانيين . ومنذ ذلك الحين والظاهرة تتبدى في أشكال سياسية وإيديولوجية متعددة ، من سياسة عدم العنف عند غاندي إلى شيوعية ماو ، ومن الديموقراطية اليابانية إلى جمهورية الخميني الإسلامية .

إن التغيير الكبير في القرن العشرين لم يكن ثورة البروليتاريا في الدول الصناعية في الغرب وإنما هو بعث الحضارات التي كانت تبدو متجمدة مثل اليابان والصين والهند وإيران والعالم العربي . وقد كان لاتصالهم العنيف ــ وإن كان منشطا ــ بالإمبريالية الأوروبية أثر في أنهم فتحوا عيونهم ونفضوا عن أنفسهم التراب ، وأخذوا في السير . والآن تواجه هذه الأمم مشكلة مشابهة وكل واحدة منها تحاول حلها على طريقتها الخاصة : إنها مشكلة الحداثة . وأول بلدٍ حل هذه المشكلة هو اليابان . وأبرز مافي الأمر هو أن تفسيرها للحداثة لم يهدم ثقافتها التقليدية .. وعلى العكس من ذلك ، فإن خطأ الشاه كان في أنه حاول فرض التحديث من عل ، وذلك بالقضاء على الأدوات والمشاعر الشعبية . إن التحديث لا يعني النسخ آليا من الولايات المتحدة ومن أوروبا ، وإنما التحديث هو التبنّي والملاءمة والتحديث أيضا هو الإبداع من جديد .

إن نجاح اليابانيين كان في الحقيقة شيئا فوق العادة : ففي عام ١٨٦٨ عند بدء فترة ميجي Meji قرروا أن يدخلوا مجال التحديث ، وبعد ذلك بنصف قرن أصبحوا بالفعل قوة اقتصادية وعسكرية . والتحديث الأكثر صعوبة وهو السياسة نفذوه ببطء وإن كان مع بعض التقهقر . وخلال هذه العملية ــ حوالي قرن من الزمان ــ عرفت اليابان الأمراض الثلاثة للمجتمعات الحديثة في الغرب وهي القومية والعسكرية والإمبريالية .

وبعد هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية ووقوعهم ضحية للهجوم الأمريكي المجرم ضد

هيروشيما وناجازاكي قام اليابانيون بإعادة بناء بلدهم ، وحولوه في الوقت نفسه إلى ديموقراطية حديثة . والتجربة اليابانية فريدة سواء بالسرعة التي استوعبوا بها العلوم والتقنية والمؤسسات الغربية وجعلوها ملكا لهم أم بالطريقة الأصيلة البارعة التي لاءموا بها هذه الأشياء مع عبقرية البلد .

وهذا الانتقال من عصر لآخر أثار بالطبع مجموعة من المشاكل والتمزقات في النسيج الاجتماعي وفي أرواح الأفراد . وهناك الكثير من القصص والمقالات والدراسات الاجتماعية والنفسية التي تعالج هذا الموضوع ، ومع ذلك فإنه بالرغم من عمق هذه التغييرات الاجتماعية والاختلالات النفسية فإن اليابان لم تفقد تماسكها ، كما لم يفقد اليابانيون هويتهم . وبالاضافة إلى ذلك فإن التراث الياباني يشتمل على أمثلة أخرى مأخوذة من الخارج لكن العبقرية المحلية استوعبتها وأعادت إبداعها في سعادة . وبتعبير أصح فإن التراث الياباني ، منذ القرن السابع ، عبارة عن مجموعة أفكار وتقنيات ومؤسسات أجنبية ، وهي صينية في المقام الأول ــ مثل الكتابة والبوذية والفكر الأخلاقي والسياسي لكنفوشيوس وتابعيه ــ وقد أعيد صنع هذه الأشياء ، وتحولت إلى إبداعات أصيلة وإلى أمور يابانية خالصة . إن تاريخ اليابان يؤكد فكرة أرسطو طاليس التي تقول « إن كل إبداع حقيقي يبدأ بكونه تقليدا » .

وفي الطرف الآخر تقع الهند . وعلى عكس اليابان التي هي أمة مشكَّلة بدقة ، نجد الهند مجموعة من الشعوب كل منها له لغته وثقافته وتراثه الخاص . وحتى عصر السيطرة الانجليزية لم تعرف الهند دولة قومية حقيقية . وذلك لأن الإمبراطوريات الكبيرة في الماضي مثل الماورا **Maurya** والجوبتا **Gupta** والمغول **Mongoles** لم تحكم شبه القارة الهندية بصفة خاصة ولم تكن قومية في الواقع . وفي لغات شمال الهند لا تظهر أي كلمة تحمل معنى الواقع التاريخي الذي يدل عليه في لغات الغرب مفهوم الأمة . إن وحدة شعوب الهند لم تكن سياسية وإنما كانت دينية واجتماعية مثل الهندوسية ونظام الطبقات .

ومن ثم فقد قيل إن الهند ليست أمة وإنما هي حضارة . إن أساس المجتمع الهندي هو « هندي أوروبي » . وهذا هو الشيء الجوهري المحدد ، ذلك أن الهندوسية ــ وهي مجموعة العقائد والممارسات التي تشبع بها الهنود منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ومنحتهم الوحدة

والوعي بأنهم ينسبون لجماعة أوسع من أممهم الخاصة ـــ من أصل هندي آري Indoario . كما أن اللغة المقدسة والفلسفية هندية أوروبية أيضا وهي السنسكريتية . ونظام الطبقات هندي أوروبي أيضا ، ذلك لأنه تعديل للتقسيم الثلاثي للدين ، والفكر ، والثقافة والمجتمع عند الهنود الأوروبيين القدماء ، كما برهن على ذلك جورج دوميزيل Georges Dumézil في نصاعة وعمق ومعرفة واسعة . وأنا أؤكد على أن التقسيم الرباعي للطبقات الهندية ليس تغييرا وإنما هو تعديل فيه إضافة للنظام الآري الأصلي . لكل هذا يمكن القول بأن الهند ، الواقعة بين الشرق الأقصى وآسيا الغربية ، تمثل القطب الآخر للغرب . إنها التفسير الآخر للعالم الهندو أوروبي أو بتعبير أكثر دقة هي صورته المقلوبة(١) .

إن أصالة الهند إزاء الجماعتين الهندوأوربيتين الكبيرتين الأخريين ـــ وهما الجماعة الإيرانية وأوروبا بمعنى الكلمة ـــ أصالة مزدوجة ، فمن جهة تظهر في الهند كثير من المؤسسات والأفكار الأصيلة المأخوذة عن الهنود الأوروبيين بصورتها الحقيقية تقريبا ، مع بعض الثبات وهو وإن لم يكن ثبات الموت فإنه ليس ثبات الحياة الحقيقية . ومن جهة أخرى فإن الهند المشركة ، على عكس الأوروبيين والإيرانيين ، قد عاشت منذ حوالي ثمانية قرون في حالة تعايش صعبة مع ديانة توحيد قوية صارمة . ففي أوروبا حدث تأليف بين الوثنية الهندية الأوروبية القديمة ـــ بآلهتها ونظرتها للكائن والكون على أنهما حقائق كافية ـــ وبين ديانة التوحيد اليهودية وفكرتها عن الله الخالق . وبدون هذا التأليف في الكاثوليكية المسيحية وبدون النقد المترتب على هذا التأليف الذي بدأ في عصر النهضة وعصر الإصلاح واستمر حتى القرن الثامن عشر ، بدون هذا وذاك لم يكن في الإمكان أن يحدث ماحدث في الغرب من تطور . إننا ندين للفكر النقدي الأوروبي بإدخال مفاهيم

---

(١) لقد طرقت موضوع التعارض المتناسب بين الغرب وحضارة الهند في كتابي « التيار المتردد » (١٩٦٧) وفي « اقتران وانفصال » (١٩٦٩) . وفي هذين الكتابين ارتدتُ أيضا المشابهات والتعارضات بين الفكر التقليدي الهندي وفكر الغرب (مثل مفاهيم الكائن والجوهر والزمن والهوية والتغير ، الخ) . وقد درست نظام الطبقات في كتابي « كلود ليفي استراوس أو مأدبة إيسوب الجديدة » (١٩٦٧) ، وكذلك في الكتابين المذكورين ، وفي هامش إحدى النقاط في كتاب « أبناء يمو » (١٩٧٤) . وفيما يتعلق بالهندوسية فبالرغم من أنها تأتي بشكل جوهري ومباشر من ديانة الفيدا القديمة ، وهي ديانة هند أوروبية ، فإني لا أريد أن أتجاهل تأثيرات بعض عقائد الدرافيديا (وهي الشعوب الأصلية في الهند قبل قدوم الهنود الأوربيين) مثل عبارة الإلهة العظمى أو بروتوشيفا .

وهما الإيديولوجيتان الافتراضيتان لتحرك التاريخ تدريجيا على أنها تغيير متتابع وتقدم ، في الغرب في العصر الحديث . وفي إيران أيضا انتصرت ديانة التوحيد السامية ولكن في صورتها الإسلامية . وعملية التأليف الإيرانية كانت أقل خصوبة من التأليف المسيحي سواء بسبب الطابع المتميز للإسلام أو لأن التراث الإيراني كان أقل ثراء وتعقيدا من التراث الإغريقي الروماني . إن الرصيد الإيراني القديم تكون في جزء منه بواسطة الإسلام والباقي ظل في أغلب الأحوال مستورا أو مقهورا . وفي إيران لم توجد حركة تشبه عصر النهضة الأوروبي التي كانت ، في الوقت نفسه ، عودة إلى العصر القديم الوثني وبداية للعصر الحديث.

وعلى عكس أوروبا فإن الهند لم تعرف فكرة التاريخ ولا فكرة التغيير ، أريد أن أقول : حدثت بعض التغييرات ، لكن الهند لم تفكر فيها ولم تستبطنها ، وكانت هوايتها هي الدين والميتافيزيقا ولم تكن الفعل التاريخي ولا سيطرة القوى الطبيعية . وعلى العكس من إيران أيضا فإن الهندوسية قد تعايشت مع ديانة التوحيد الإسلامية لكنها لم تتداخل معها بالفعل ، فلم يصبح الإسلام ديانتها الأولى كما أنه لم يتسلم زمام التوجيه . ولعل هذا ــ في رأيي ــ هو سبب اختلاف التطور بين الهند وبين المنطقتين الهندوأوربيتين الكبيرتين الأخريين .

والنتيجة هي مانراه أمامنا : ففي عام ١٩٧٤ بلغ عدد سكان الهند خمسمائة مليون نسمة ، منهم ١٢٪ على الأقل من المسلمين ، أي حوالي أكثر من ٦٥ مليون نسمة . ولكن هذه النسبة خادعة لأننا لابد أن نحسب شعوب البلدين اللذين انفصلا عن الهند واللذين هما هنديان أيضا باللغة والثقافة والتاريخ ؛ أي الخمسة والستين مليونا في بنجلاديش والخمسة والستين مليونا في باكستان ، وبذلك يبلغ عدد مسلمي الهند أكثر من مائتي مليون شخص[٢] ، وهو رقم هائل . إن استقلال شبه القارة الهندية قد تزامن مع انفصال باكستان الدامي ، وهذا التقسيم كان في الأساس نتيجة لاستحالة تعايش الهندوس والمسلمين معا . وقد حدثت مذابح بشعة وانتقلت مراكز سكانية بأكملها من أرض لأخرى . والسبب التاريخي لهذه الكارثة ــ التي مازالت مفتوحة حتى الآن ــ هو ماذكرناه آنفا : ذلك أنه لم يحدث تأليف في الهند مثلما حدث مع الكاثوليكية المسيحية في أوروبا ، كما لم يحدث استيعاب دين لآخر مثلما حدث في إيران .

---

(٢) هذه الأرقام تقريبية ــ وقد جاءت في دائرة المعارف البريطانية ، طبعة ١٩٧٤ .

ومنذ عام ١٩٤٧ وسياسة الهند الخارجية خاضعة للفكرة السياسية ـ الدينية الناجمة عن مشكلتها مع باكستان . ويحدث نفس الشيء مع الباكستانيين . ولكن هل يتعلق الأمر فعلا بالسياسة الخارجية ؟ إن التنافس بدأ في وقت لم تكن موجودة فيه دولة هندية ولا دولة باكستانية ، لقد كان صراعا دينيا وسياسيا بين جماعتين داخل مجتمع واحد ، وكانا يتحدثان لغة واحدة ويشتركان في أرض واحدة وثقافة واحدة . وليس من المبالغة أن نقول إن الصراع بين الهند وباكستان كان ومازال بمثابة حرب أهلية بدأت بصفتها حربا دينية .

إن احتلال الهند لجزء من كشمير ، وصداقة باكستان أولا للولايات المتحدة وبعد ذلك للصين ، والتحركات الودية من الهند تجاه الاتحاد السوفيتي وتذبذب سياستها الحيادية وانضمامها إلى عدة قرارات محزنة صدرت عن منظمة الدول غير المنحازة ، فضلا عن إغماض عينها نفاقا إزاء قيام القوات الفيتنامية باحتلال كامبوديا ، كل هذا ليس أكثر من صراع بين طائفتين سياسيتين ـ دينيتين .

ولا شك أن الوقت قد فات تماما ، ولم يعد ممكنا توحيد ماكان مصيره الانفصال ، ولكن لم يفت الوقت بالنسبة لإنشاء نوع من الاتحاد الفيدرالي يضمن تعايش الجماعتين . إن الصراع بين الهنود والباكستانيين مثل الصراع بين العرب واليهود يكذّب مرة أخرى افتراض عقلانية التاريخ .

وبالرغم من التصاق الهند بالتراث ، فإنها كانت قادرة أيضا على استيعاب الأفكار والنظم المستوردة وتطويعها . إن حركة غاندي التي كانت روحية وسياسية في وقت واحد ، تعد إحدى التجديدات التاريخية الكبيرة في القرن العشرين . إن أصول هذه الحركة تختلط بتاريخ حزب المؤتمر (الكونجرس) الهندي ، وهو مجموعة ولدت نتيجة للأفكار الديموقراطية التي حملتها إنجلترا إلى شبه القارة الهندية ، وقد شارك في تأسيسها بشكل حاسم في عام ١٨٨٥ صوفي اسكتلندي هو هيوم . ولكن التحرك السياسي لغاندي لا ينفصل عن أفكاره الدينية .

وفي هذه الأفكار نجد اختلاطا عجيبا بين عناصر هندوسية وأوروبية . وكان الأساس هو الجانب الروحي للهند ، وبالأخص **El Bhagavad Gita** وبجانبها المثنوية في طفولته ، التي ورثها عن أمه ، واختلطت عنده بـ **Jainismo** التي تأتي منها عقيدة عدم استخدام

العنف ضد أي كائن حي ، أو مايسمى Ahimasa ، فضلا عن المسيحية على طريقة تولستوي والاشتراكية الفابية .

كان الجوهري إذن هو الهندوسية بالرغم من أن غاندي كان قد قرأ الجيتا للمرة الأولى في الترجمة الانجليزية التي قام بها أرنولد وهذا شيء له معنى . كما أن قتل غاندي قد تم على يد أحد أعضاء جماعة متعصبة تستلهم الجيتا في توجهاتها وهذا شيء أيضا له معنى . إنهما قراءتان مختلفتان لنص واحد(٣) . وثمة علامة أخرى تحدد صلة غاندي الخاصة بالتراث الهندوسي : ذلك أن أفكاره وممارساته الصوفية كانت شانيازية حقيقية ، ولذلك يقول في سيرته الذاتية : « إن مابحثت عنه ولازلت أبحث عنه هو أن أرى الله وجها لوجه » . ومع ذلك فإنه بحث عن الله لا في عزلة كهف العابد النائي عن العالم وإنما بين الجماهير ، وفي حومة المناقشات السياسية . لقد بحث عن المطلق في النسبى ، وبحث عن الله بين البشر . وبهذا جمع بين التراث الهندي والتراث المسيحي .

وفي مقابل تكتيكات وتقنيات السياسيين الغربيين القائمة في الغالب على مداهنات الدعاية ، وفي مقابل سياسة ـــ العنف ، يقول تروتسكي : « إن كل مايساعد على الثورة طيب وأخلاقي » ـــ وضع غاندي نوعا جديدا من التحرك هو Satyagraha أي الصرامة في الحق.وعدم استخدام العنف . وهذه السياسة وصفت أحيانا بأنها مستحيلة وأحيانا أخرى أطلق عليها بعضهم نفاقا . وقد اتفقت كلمة الجميع ضد غاندي وأتباعه ، سواء من جانب الماركسيين أم الواقعيين أم المستهترين من اليمين ، فهؤلاء جميعا لم يألوا جهدا في تجميع كل ألوان السخرية والطعون ضد غاندي وأتباعه . ومع ذلك فإن هؤلاء لا يمكن أن ينفوا أن غاندي استطاع تحريك جماهير هائلة ، وأثر في الكثيرين ، وأقرب دليل على ذلك وأشهره هو حركة مارتن لوثر كنج ضد التفرقة العنصرية ، وكانت هذه الحركة مستلهمة من الوسائل التي اتبعها غاندي ، وقد هزت الولايات المتحدة هزاً وأثارتها أيمَّا إثارة . ولم يكن ثمة إلا شخص واحد هو اينشتين الذي اعتقد أن أي حركة عالمية تتخذ من درس العنف عند غاندي منهجا لها تستطيع أن تضطر القوى الكبرى للتخلي عن استخدام الأسلحة الذرية .

ولعل بعضهم يقول ـــ ومعه بعض الحق ـــ إن حركة غاندي استطاعت أن تنتشر

---

(٣) إن خطاب كريشنه الذي ألقاه قبل المعركة بهدف إزالة الشكوك والخوف من عند أرخونا فيه رؤية للحرب تشبه الالتزام بقانون المحارب .

وتزدهر لأن الحكومة الانجليزية ، بصرف النظر عن أنها كانت إمبريالية أم لا ، كانت تحترم الحريات والحقوق الإنسانية . وإلا فهل كان يمكن ظهور شخص مثل غاندي في ألمانيا الهتلرية ؟ والآن مثلاً : هل يمكن أن يظهر غاندي آخر في الصين أو روسيا أو جنوب أفريقيا أو باراجواي ؟ . كل هذا حق ، ولكنْ حق أيضا أن الغاندية هي الحركة الوحيدة التي كانت قادرة على وضع رد حضاري فعّال ضد العنف العالمي الذي استشرى في عصرنا بسبب الدكتاتوريات والإيديولوجيات . إنها بذرة خلاص من التراث الفوضوي . ذلك أن المصير النهائي لكليهما (لحركة غاندي وللفوضوية) مرتبط بتراث الديموقراطية .

وثمة مكتسبان سياسيان كبيران للهند الحديثة : أولهما هو الاحتفاظ بالدولة القومية ، والثاني هو استمرار الديموقراطية . وكلاهما من النظم التي حملها الانجليز إلى شبه القارة الهندية ، وقد لاءم الهنود بينهما وبين عبقرية البلد ، وبالنسبة للمكتسب الأول نجد أن الهند قد أصبحت أمة ، أما بالنسبة للثاني فإنها كذّبت كل هؤلاء الذين يرون في النظام الديموقراطي مجرد زائدة للرأسمالية الليبرالية .

لقد رأيت بعيني رأسي الجماهير الهندية الفقيرة الأمية ، وهي تصوت في الانتخابات : إنه مشهد يعيد الأمل في الناس . إنه عكس لمشهد الجماهير التي تصيح وتطلق الصفير في ملاعب الغرب وأمريكا اللاتينية .. إن الديموقراطية السياسية في الهند تتناقض ، بحق ، مع فقر الناس وبشاعة الفروق الاجتماعية . ويتساءل الكثيرون ألم يعُد الوقت متأخرا للقضاء على البؤس : يبدو أن الزيادة السكانية قد أمالت الميزان بصفة نهائية نحو الطرف الآخر . وأنا أقاوم هذه الفكرة ، ذلك أن الشعب الذي أعطانا بوذا وغاندي ، والذي اكتشف علامة الصفر في الرياضيات ، وعدم العنف في السياسة يمكن أن يجد طرقه الخاصة للتنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية . ولكنه إذا فشل في ذلك فستكون هزيمته إعلانا لهزائم بلاد أخرى مثل بلدنا (المكسيك) لم تعرف كيف تحدث توازنا بين الزيادة الاقتصادية والزيادة السكانية .

وقد أطلق الصينيون القدماء على بلدهم اسم « إمبراطورية الوسط » وكان معهم الحق في ذلك . فبالرغم من أن الصين ليست في وسط العالم جغرافيا أو سياسيا فإنها يصح أن يطلق عليها بلد مركزي . فتأثيرها أصبح حاسما في عصرنا وسوف يزداد أكثر فأكثر . فالصين هي الصين منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام . إنها استمرار أرضي وعنصري وثقافي وسياسي .

من المغول والمانشوريين واليابانيين ـ لقد تعاقبت على الصين غزوات واحتلال ـ وعرفت الصين فترات ازدهار وفترات انحطاط ، وجربت تغييرات اجتماعية عنيفة ، ومع ذلك لم تتخل أبدا عن كونها دولة . وسأعطي بعض الأمثلة التي توضح هذه الاستمرارية المثيرة للاعجاب . وأول مثال منها لغوي . ففي المفردات السياسية والفلسفية للصين لا يوجد مفهوم يدل على كلمة الثورة بالمعنى الذي أعطى في الغرب لهذا المصطلح منذ الثورة الفرنسية . أي حدوث تغيير عنيف لإحلال نظام مكان آخر .

والكلمة التي تشبه الثورة إلى حد كبير في اللغة الصينية كانت هي **Kuo Ming** ولكن هذه الكلمة تعني في الواقع تغييرا في الاسم أو تغييرا في القيادة ، وهي بمعنى أوسع كانت تدل على تغيير في المملكة أو البيت الحاكم (تغيير في حكم السماء) . وفي بدايات القرن الحالي قرر القائد الجمهوري الكبير صن ياتسن **Sun Yat-sen** استخدام كلمة **Kuo Ming** كمرادف لكلمة ثورة ، وبهذه الطريقة جاء الكومينج تانج **Kuo Ming Tang** ، وهو الحزب الذي حل محله الشيوعيون فيما بعد . وبهذا فإن التعبير الذي يشير إلى مفهوم التغيير الثوري مغلف بغلاف تقليدي .

وهناك مثال آخر : إنه ماوتسي تونج . فهذا الرجل لا يشبه أي شخصية ثورية في الغرب ، إنه لا يشبه أوليفير كرومويل ولاروبسبير ولا لينين ولا تروتسكي ، لكنه يشبه شيه هوانج **Shih Huang - Ti** ، المسمى « الإمبراطور الأول » لأن عصره ، في نهايات القرن الثاني قبل المسيح ، كان يمثل نهاية عصر وبداية عصر آخر . أيضا مع ماو انتهت مرحلة وبدأت مرحلة أخرى .

لقد واصل خلفاء الإمبراطور الأول عمله ، وإن كانوا أفرغوه من راديكاليته ، ولاءموا بينه وبين الواقع ذي النزعة الإنسانية . وفي الوقت نفسه كانت ذكرى شيه هوانج تي ممقوتة . وبالنسبة لماو فإن شخصيته وأعماله ، كما رأينا في السنوات الأخيرة ، تعاني من المصير نفسه . مثال ثالث : إن المجموعة الاجتماعية التي أدارت الإمبراطورية على امتداد ألفي عام ، ويطلق عليهم « الماندارين » (يطلق مفرد الكلمة على الموظف السامي في الصين) هم أكثر من شبيه في المجموعة التي تدير الصين الآن : الحزب الشيوعي . وهؤلاء القادة لم يكونوا يشكلون بيروقراطية من التكنوقراط المتخصصين في الاقتصاد

والصناعة والتجارة أو الزراعة ، لقد كانوا خبراء في فن السياسة وكانوا يحاولون وضع الفلسفة السياسية لكونفوشيو موضع التنفيذ ، والشيوعيون الصينيون خبراء أيضا في الشئون السياسية . المضمون إذن يتغير لكن الشكل والوظيفة مستمران . إنه تناقض عجيب ، فالشيوعيون بهجومهم على كونفوشيو قد أكدوا استمرار التقليد .

إن الثورة الثقافية ماهي إلا مثال آخر للائتلاف بين التغيير والاستمرار . والنقد الذي وجهه ماو ضد البيروقراطية الشيوعية خلال الثورة الثقافية ليس له سوابق في تاريخ الأحزاب الماركسية في الغرب . وعلى العكس من ذلك فإنها تذكرنا بالفوضوية الفلسفية والسياسية للتيار الفكري المنافس للكونفوشية وهو التاوية Taoismo . لقد أصيبت الصين بهزات في مراحل متفرقة بسبب قيام اضطرابات شعبية مستلهمة في أغلب الأحيان من الروح الفوضوية للتاوية ، وكانت كلها موجهة إلى طبقة القادة وتراث كونفوشيو . والثورة الثقافية ، بهجومها العنيف على الثقافة الشكلية وعلى البيروقراطية ، فضلا عن امتداحها للتلقائية الشعبية ، يمكن أن ينظر إليها على أنها عودة لظهور المزاج التاوي في الصين الحديثة . إن الحرس الأحمر يذكرنا بشكل عجيب بالعمائم الصفراء في القرن الثاني وبالعمائم الحمراء في القرن الرابع عشر .

ومن الصعب أن نعرف ، بتأكيد تام ، الأسباب التي دفعت ماو إلى القيام بالثورة الثقافية . ولعل صراعه مع الرئيس ليو شاو شي والقادة الشيوعيين الآخرين كان حاسما ، ذلك أنه بعد فشل سياسته الاقتصادية أبعدوه عن السلطة . وقد رد ماو على ذلك بفتح أبواب الغضب الشعبي المكتوم ، وهو مشهد آخر غريب ، كذَّب من جديد الماركسية — اللينينة وكذلك توقعات الخبراء الغربيين : عجوز يقود انتفاضة شبابية ، وماركسي — لينيني يطلق الهجوم ضد أكثر الصيغ اكتمالا في مذهب الحزب مثل « طليعة الطبقة العاملة » أي اللجنة المركزية وموظفيها .

إن الثورة الثقافية هزت الصين لأنها توافقت زمنيا مع التطلعات المعاصرة للمجتمع الصيني ومع تراثه الفوضوي . لم تكن ثورة بالمعنى الغربي أو الحديث وإنما كانت انتفاضة أخرى . لقد تجاوزت الحركة توقعات ماو وكانت على وشك تخريب النظام في موجات متتابعة وفوضوية . وقد اضطر ماو ، لكي يكبح جماح الحرس الأحمر ، أن يتقهقر ويعتمد

على لين بياو Lin Piao وعلى الجيش . ولكي يتخلص من لين بياو بعد ذلك اضطر إلى أن يتحالف مع الجناح المعتدل ويستدعي شواين لاي . وهذه السياسة المتماوجة تدل على أن ماو لم يكن ماسكا بالدفة فقط وإنما كان سياسيا ماهرا ومحنكا . لقد استطاع الاحتفاظ بالسلطة لكن التكلفة كانت هائلة ، وكل هذه الهزات لم تكن عقيمة فقط وإنما كانت مضرة . إن تقديس ماو هبط بالحياة الثقافية والسياسية للصين ، أما عمله في سنواته الأخيرة فكان أشبه بكابوس يدور حول موضوع واحد . ففي حياته أحيط بكل ألوان المديح الهاذية وقورن بأعظم عظماء التاريخ . والآن نعرف أنه لم يكن الاسكندر ، أو ماركو أورليو أو حتى أغسطس . إن شخصيته أصبحت جزءا من رواق عمالقة التاريخ .

وتحت قيادة دنج سياو بنج Deng Xiao-ping قامت الحكومة الصينية بهدم الصنم . ومثلما حدث مع خلفاء شيه هوانج تي فإن المجموعة الحاكمة في الصين لابد أن تواجه مهمة مزدوجة هي تغيير النظام والاحتفاظ به . كان برنامج التحديث عند ماو عبارة عن فانتازيا قاسية ، أما دنج ، الأكثر حكمة ، فإنه يريد تحقيق عمليات التحديث الأربع عند شواين لاي : الزراعة ، والصناعة ، والدفاع والعلوم ، والتكنولوجيا . إن الصين تتمتع بالموارد الطبيعية والشعب والإرادة السياسية حتى تتحول إلى أمة حديثة . وقد أظهر الصينيون على امتداد تاريخهم كفاءةً علمية وتقنية كبيرة ؛ فهم مكتشفو البارود والبوصلة والطباعة . وبالرغم من أن هذا التقليد قد توقف خلال عدة قرون ، بسبب ظروف تاريخية معاكسة ، فإن العبقرية الصينية الخلاقة لم تتلاش . فالصينيون شعب صناعي ، وعنيد ، وقنوع وعامل .

إن التحديث يعني اقتباس الحضارة الغربية وملاءمتها مع البيئة ، وبالأخص في مجالي العلوم والتقنية . وقد أقام الصينيون حضارة أصيلة ترتكز على مبادىء تختلف عن المبادىء الأوروبية . ومع ذلك فإن الحضارة التقليدية الصينية لن تكون عقبة في سبيل التحديث . ومنذ عدة شهور أشارت المجلة الانجليزية The Economist إلى أن كل البلاد المتأثرة بالصين ، أي التي تقوم على الفكر السياسي والأخلاقي لكونفوشيو قد دخلت مجال التحديث بسرعة أكبر من البلادالإسلامية ، ومن كثير من البلاد الكاثوليكية مثل اليابان وتايوان وسنغافورة وكوريا الجنوبية وهونج كونج .

وتضيف هذه المجلة : « وإذا نجحت عمليات التحديث الأربع في الصين فإن معجزات كوريا الجنوبية وسنغافورة ستبدو بقعا شمسية في مقابل شمس الصين »(٤) . وسوف تكون مساهمة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية في تحديث هذا البلد الهائل الاتساع حاسمة . وفضلا عن ذلك فإن ثمة حدثا يمكن أن يغير تاريخ آسيا بل تاريخ العالم كله هو التعاون بين اليابانيين والصينيين . وفي بداية هذا القرن توقع سولوفيف Soloviev في عمل إبداعي كان يمثل سابقة سياسية وفلسفية ، حدوث تعاون بين التقنية اليابانية واليد العاملة الصينية . ولعل خيال الفيلسوف الروسي يتحول بالفعل إلى حقيقة في نهاية هذا القرن .

إن ماضي الصين لن يكون عقبةً في سبيل التحديث ، وأنا متأكد من ذلك ، مثلما لم يكن عقبة أيضا ماضي اليابان وباقي البلاد الأخرى المتأثرة بالصين ، والشيوعية .

ففي روسيا كانت آثارها ــ أي الشيوعية ــ متناقضة ، حيث أدت إلى تصنيع البلاد ، ولكنها جعلتها تتقهقر في جوانب أخرى . إن عالم الصينيات سيمون ليز Simon Leys ، مؤلف المقالات الرائعة عن ماو ونظامه ، يعتقد أن الصينيين سيكونون قادرين على أن يفعلوا بالماركسية مافعلوه من قبل بالبوذية : أي استيعابها ، وتغييرها ، وتحويلها إلى إبداع ذاتي . ولماذا لا يكون الأمر كذلك ؟ .

إن العبقرية الصينية تتميز بالبراجماتية والخيال والمرونة ، وليست دوجماطية (ملتزمة بالقاعدة) ، ففي الماضي استطاعت أن تؤلف بين طهارة كونفوشيو والفوضوية الشعرية عند لاوتسي Lao Tsé وشوانج تسو Chuang Tseu فهل ستقدم للعالم في الغد تفسيرا أقلَّ لا إنسانية للشيوعية ؟ وفي هذه الحالة فإن على حكومة بكين أن تبدأ من الآن عملية التحديث الخامسة التي يطالب بها المنشق وي جين سنج Wei Jin-sheng وهي الديموقراطية .

إن مانسميه الحداثة ولد مع الديموقراطية . فبدون الديموقراطية ربما لم يكن في الإمكان وجود العلم ، ولا التكنولوجيا ، ولا الصناعة ولا الرأسمالية ، ولا الطبقة العاملة ولا الطبقة المتوسطة ، أي لم تكن الحداثة ــ نعم ، بدون الديموقراطية يمكن إقامة آلة سياسية وعسكرية كبيرة مثل آلة روسيا .

---

(٤) على ضوء هذه التجارب يجب أن نعيد قراءة ــ وتصحيح ــ المقال الذي خصصه ماكس ويبر Max Weber للكونفوشية والتاوية بالمقارنة مع الحداثة .

كانت إلى أن يدفعها الشعب الروسي اضطر التي الاجتماعية التكلفة أن إلى وبالإضافة عالية جدا ومؤلمة للغاية ، فإن التحديث بدون ديموقراطية يجعل المجتمع صناعيا ولكن لا يعمل على تغييره . أو بتعبير أصح ، يحولها إلى مجتمعات مترسبة الطبقات ، مجتمعات تكون الطوائف فيها درجات . وحالة الصين على الأخص صعبة ، نظرا لأن تاريخها لم يشهد شيئا يشبه الديموقراطية . فخلال آلاف السنين كانت واقعة تحت حكم نظام مزدوج : فمن جهة نجد الامبراطور ببلاطه وجيشه ، ومن جهة أخرى نجد طبقة القادة أو الموظفين الكبار Les mandarines .

وكان الائتلاف بين العرش وطبقة الموظفين الكبار ائتلافا مزعزعا ، ينقض المرة تلو المرة لكنه يستأنف المرة تلو المرة أيضا . وبالرغم من أن الثورة الشيوعية غيرت أشياء كثيرة ، فإن النظام المزدوج مازال مستمرا ؛ فمن جهة نجد ماو أي الامبراطور وتابعيه ، ومن الجهة الأخرى نجد الحزب الشيوعي ، الذي هو تجسيد لكبار الموظفين القدامى . إنه ائتلاف لا يقل زعزعة عن الائتلاف القديم كما دلت على ذلك الثورة الثقافية . ألا تعني هذه السوابق أن الصين ليست مؤهلة للديموقراطية ؟ كلا ، فأنا أعتقد أن الديموقراطية ماهي إلا شكل سياسي عالمي يمكن أن يقتبسه الجميع بشرط أن يعمل كل شعب على ملاءمته مع عبقريته الخاصة .

وإذا توجهت الصين نحو الحرية فإنها ستفتح عصرا جديدا في التاريخ الحديث . والحق أنه لا الإيديولوجية ولا مصالح المجموعات المسيطرة تجعلنا ننتظر أن يقوم النظام بمهمة التحديث الأكثر توقدا ، والوحيدة التي تستحق العناء وهي التحديث الأخلاقي والسياسي . ومع ذلك فأنا أنتظر ذلك . إن حبي وإعجابي بفكر هذا البلد وشعره وفنه أقوى من نزعة الشك عندي .

المنظور اللاتيني الأمريكي :

إن أي شخص في أمريكا اللاتينية لا يمكنه أن يتغاضى عن قضية التحديث في آسيا وأفريقيا . إن تاريخ بلادنا منذ الاستقلال هو تاريخ محاولات مختلفة للتحديث . وعلى عكس اليابانيين والصينيين الذين قفزوا نحو الحداثة انطلاقا من تقاليد غير غربية ، فإننا (أي سكان أمريكا اللاتينية) بثقافتنا وتاريخنا ، وإن لم يكن من جهة الجنس دائما ، نعد نسل

أحد فروع الحضارة التي تمخضت عنها هذه المجموعة من المواقف والتقنيات والنظم التي نطلق عليها كلمة الحداثة . غاية مافي الأمر أننا فرع من الثقافة الإسبانية والبرتغالية التي ابتعدت عن التيار الأوروبي العام في الوقت الذي بدأت فيه الحداثة .

وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين تبنت قارة أمريكا اللاتينية مشروعات تحديث متتابعة كلها مستلهمة من النموذج الأمريكي والأوروبي ، ولكن حتى اليوم لا يمكن أن نطلق بأحقية كاملة على أي بلد من بلادنا صفة حديث . وهذا صحيح ، ليس فقط بالنسبة لأمم مازال ماضي الهنود الحمر فيها حياً حتى الآن مثل المكسيك وجواتيمالا وبيرو وإكوادور وبوليفيا ، وإنما أيضا بالنسبة لتلك البلاد ذات الأصل الأوروبي بالكامل تقريبا مثل الأرجنتين وأورجواي وشيلي . وبالاضافة إلى ذلك فإن إسبانيا والبرتغال ليستا حديثتين في كل الوجوه .

ففي بلادنا يتعايش الحمار والطائرة ، والأميون وشعراء الطليعة ، والأكواخ ومصانع الصلب . وكل هذه التناقضات تنتهي في تناقض واحد هو أن مؤسساتنا ديموقراطية لكن الواقع الفعلي المستشري في كل مكان هو الدكتاتورية . إن واقعنا السياسي يلخص الحداثة المتناقضة لأمريكا اللاتينية .

إن شعوبنا اختارت الديموقراطية لأنها بدت لهم على أنها الطريق نحو الحداثة . لكن العكس هو الصحيح ؛ إن الديموقراطية تأتي نتيجة الحداثة وليست طريقا نحوها . إن الصعوبات التي جربناها في سبيل إقامة النظام الديموقراطي أثر من آثار عملية التحديث غير الكاملة والمليئة بالعيوب عندنا ، إن لم تكن أخطرها .

ولكننا لا نخطىء عندما نختار هذا النظام للحكم ، إنه مع كل ماله من أخطاء هائلة هو أفضل نظام اخترعه البشر . لقد أخطأنا ، نعم ، في طريقة الوصول إليها ، نظرا لأننا اقتصرنا على تقليد النماذج الأجنبية .

إن المهمة التي تنتظر أهل أمريكا اللاتينية ، والتي تتطلب تصورا يكون جريئا وواقعيا في وقت واحد ، هي أن نبحث في تراثنا عن تلك البذور والجذور — وهي موجودة فعلا — حتى نعمل على تثبيت ديموقراطيتنا الخلاقة ونغذيها . إنها مهمة عاجلة ولعل وقت

اللاتينية ــ سواء كانت ديموقراطية أم دكتاتورية عسكرية ــ تبدأ في الزوال . وفي السنوات الأخيرة ظهر مصطلح ثالث هو الدكتاتورية البيروقراطية ــ العسكرية ، التي نطلق عليها ، لخطأ تاريخي جسيم ، اسم « اشتراكية » .

ولكي نفهم بدقة أكثر اصطلاحات المرحلة الانتقالية التاريخية التي تواجهها شعوبنا لا أملك إلا أن أكرر باختصار بعض مفاهيم مقال آخر عنوانه « أمريكا اللاتينية والديموقراطية » منشور في الجزء الثاني من هذا الكتاب . إن عدم الاستقرار السياسي في بلادنا ظهر في اليوم التالي للاستقلال .

وللأسف فإن المؤرخين لم يكتشفوا أسباب هذا الوضع أو إنهم أعطوا تفسيرات مبتسرة . ومن الواضح على أية حال أن الاضطرابات والانقلابات في أمريكا اللاتينية تتوافق مع أعمال العنف والاختلالات التي حدثت في إسبانيا والبرتغال منذ القرن التاسع عشر . إنها جزء تكويني من ماض لا يريد أن يمضي : ذلك أن الحداثة تعني القضاء على هذا الماضي . وبالرغم من أن الولايات المتحدة لم تخلق هذا الوضع غير المستقر ، فإنها قد استغلته منذ البداية . استغلته وعملت على تشجيعه ، وبدون هذا الوضع غير المستقر ربما لم يكن في الإمكان أن تمد سيطرتها . وثمة نتيجة أخرى للهيمنة الأمريكية هي محاولة إسقاطنا ــ إن صح هذا التعبير ــ من التاريخ العالمي .

فخلال السيطرة الإسبانية ــ البرتغالية عاشت بلادنا على هامش العالم ، في عزلة وصفها المؤرخ أوجرمان O, Gorman بأنها كانت مشئومة بالنسبة لتربيتنا السياسية .

ومنذ ذلك الحين ونحن شعوب إما منطوية على نفسها مثل المكسيكيين أو لديها شراهة تجاه التجديدات القادمة من الخارج مثل الأرجنتين . إن الهيمنة الأمريكية جاءت هي الأخرى لتعزلنا : ذلك أن المشكلة الرئيسية لسفاراتنا تتمثل في إيجاد أفضل طريقة للحصول على صداقة واشنطن أو تجنب تدخلاتها . إن الستارة التي تفصل بين أمريكا اللاتينية والعالم أُطلق عليها اسم قاعدة مونروي .

وبالرغم من الانقلابات والدكتاتوريات فإن الديموقراطية قد نُظر إليها منذ الاستقلال على أنها الشرعية الدستورية الوحيدة لأمم أمريكا اللاتينية ، أي أنها تشبه الشرعية التاريخية .

إن الدكتاتوريات ، كما جاء على لسان الدكتاتوريين أنفسهم ، لم تكن إلا فترة انقطاع في الشرعية الديموقراطية . إن الدكتاتوريات كانت تمثل مرحلة انتقالية أما الديموقراطية فتمثل الحقيقة الدائمة ، حتى ولو كانت حقيقة مثالية أو يتم تحققها بشكل جزئي غير كامل . لكن النظام الكوبي لم يتأخر في الظهور بمظهر يختلف عن الدكتاتوريات التقليدية .

وبالرغم من أن كاسترو يعُد قائداً يدخل ضمن تراث القيادة اللاتيني الأمريكي ، فإنه أيضا زعيم شيوعي . إن نظامه يأتي على أنه الشرعية الثورية الجديدة . وهذه الشرعية لا تحل فقط محل الدكتاتورية العسكرية وإنما تحل محل الشرعية التاريخية القديمة أيضا وهي الديموقراطية النيابية بنظامها الخاص بالضمانات الفردية والحقوق الإنسانية .

ولكي نفهم جيدا في ماذا تتمثل هذه الجدَّة لا بد أن أؤكد على ما أشرت إليه آنفا ، وهو أن الدكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية لم تدَّع أبدا أنها تقوم مقام النظام الديموقراطي ، بل إنه لينظر إليها دائما على أنها حكومات انتقالية طارئة . وأنا لا أزعم تبرئة ساحة الدكتاتوريات . فقد أعلنت إدانتي لها أكثر من مرة ، ولكني أحاول أن أوضح خصوصيتها التاريخية .

إن النظام الكوبي يقدم نفسه على أنه شرعية جديدة تقوم مقام الشرعية الديموقراطية بصفة دائمة . وهذه الأحدوثة لا تقل أهمية عن الوجود الروسي في كوبا ، الذي يحدث خللا في المنظورات التقليدية للفكر السياسي في أمريكا اللاتينية ، ويجعله يواجه حقائق ، كانت تبدو منذ جيل واحد ، غير قابلة للنظر .

ومعروف أن القوة السوفييتية قد حصلت على قاعدة عسكرية وسياسية في أمريكا دون أن تبحث عنها ، وكأنها منحة قدمها لها التاريخ ، والسبب في ذلك هو إقامة نظام كاسترو في كوبا ، وبعض الظروف الأخرى من أهمها صلف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وإصابتها بالعمى . ومع ذلك ، فقبل دخول كوبا في الكتلة السوفييتية كانت السياسة المستقلة للنظام الثوري تجاه واشنطن تثير إعجاب وحماس شعوب أمريكا اللاتينية جميعها تقريبا ، فضلا عن صداقة شعوب أخرى كثيرة .

وقد استطاع الكوبيون أيضا ـــ وهذا حدث ينساه الناس عادة ـــ أن يكسبوا تعاطف جزء كبير من الرأي العام الأمريكي ، بالرغم من أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد

وقد — ولكن واشنطن ، المتهافتة البشعة Batista أيدت لفترة طويلة دكتاتورية باتستا

تذكرت بلا شك تدخلاتها في جواتيمالا وسانتو دومينجو ونيكاراجوا — اتخذت سياسة

عدائية وفيها استخفاف في وقت واحد . وعندئذ بحث كاسترو عن صداقة موسكو . ومن

الطبيعي أن أخطاء وخطايا الحكومات الأمريكية لم تضف طابعا اشتراكيا على الانتصار

الذي أحرزه كاسترو ضد باتستا . إن منظِّري الماركسية الكلاسيكيين كانت لديهم فكرة

تختلف تماما عما كان يجب أن تكون عليه أي ثورة اشتراكية .

وبعيدا عن نوع حركة كاسترو وعن الطبيعة التاريخية لنظامه ، فإن الأمريكيين يجنون اليوم نتائج تقاعسهم — الكلمة الحقيقية هي عدم حساسيتهم — حتى يفهموا الوضع الجديد المتغير في أمريكا اللاتينية . لقد كان عليهم أن يقبلوا وجود نظام حليف لموسكو على بعد عدة كيلومترات من شواطئهم ، وليس ذلك فقط وإنما كانوا ومازالوا عاجزين عن منع القوات الكوبية ، التي يسلحها الاتحاد السوفيتي ، من التدخل في أفريقيا ، وعن منع فيدل كاسترو من أن يقوم بين الحين والحين بهجمات دبلوماسية ضدهم . فهل إقامة نظام كاسترو في كوبا علامة على بداية غروب عصر الهيمنة الأمريكية ؟ أنني لا أعرف في الحقيقة هل هو غروب أو مجرد غيامة عابرة . لكن الشيء المؤكد هو أننا أمام وضع جديد تماما في أمريكا اللاتينية .

فلأول مرة ، بعد أكثر من قرنين ، تصبح لقوة غير أمريكية قاعدة سياسية واستراتيجية في القارة . ولكي نأخذ فكرة عن المعنى التاريخي للوجود الروسي في أمة من أمم أمريكا اللاتينية ، لابد أن نذكّر بسابقة معروفة في هذا الصدد ، هي التدخل الفاشل لنابليون الثالث في المكسيك في منتصف القرن الماضي .

إن الدكتاتوريات العسكرية في أمريكا اللاتينية كانت تلجأ دائما ، لتبرير مواقفها ، إلى ذريعة هي أنها وسيلة استثنائية ومؤقتة ضد الفوضى والاتجاهات المتطرفة في الديماجوجية أو ضد التهديدات الخارجية وأخيرا ضد الشيوعية . وهذه الكلمة كان يشار بها إلى كل المستائين والمنشقين والناقدين . ولكن الآن ينظر إلى الشيوعية — أعني الشيوعية الحقيقية ، وهي النظام الشمولي الذي اغتصب اسم الاشتراكية وتراثها — على أنها تهدد الديموقراطية بخاصة قبل أي شيء آخر . إن التبرير التاريخي المزعوم للدكتاتوريات يتلاشى ، ذلك أنهم بقضائهم على الديموقراطية يفتحون الطريق للحكم الشمولي . ولست أدري هل فكروا

في هذا أم لا . إن فيدل كاسترو لم يسقط حكومة ديموقراطية وإنما اسقط دكتاتورا فاسدا . وحاليا في أمريكا الوسطى لا تظهر الديموقراطية الصغيرة في كوستاريكا وإنما يظهر النظام الجديد الذي حل محل دكتاتورية سوموزا في نيكاراجوا ، وهذا النظام يتحول يوما بعد يوم أمام أعيننا إلى دكتاتورية شيوعية . إن الدفاع الوحيد الفعَّال ضد الشمولية هو الشرعية الديموقراطية .

وفي فصل « أمريكا اللاتينية والديموقراطية » أشرت إلى الملامح التي تميز الوضع في أمريكا الوسطى ؛ أي تشرذمها في جمهوريات صغيرة ليست مؤهلة اقتصاديا ولا سياسيا وليس لها أيضا هوية قومية واضحة (إنها قطع من جسم ممزق) ، والأوليجاركيات والحكومات العسكرية المتحالفة مع الإمبريالية الأمريكية والمدفوعة بواسطتها ، وغياب التقاليد الديموقراطية وضعف الطبقة المتوسطة والبروليتاريا المتمدنة ، وظهور أقليات من الثوريين المحترفين القادمين من البرجوازية العليا ومن الطبقة المتوسطة ، وكثيرون منهم تلقوا تعليمهم في المدارس الكاثوليكية للبرجوازية (وهي في الغالب مدارس يسوعية) ، وعندهم ميل إلى التطرف لظروف معينة كان يمكن أن يفسرها فرويد لاماركس ، وتدخل كوبا والاتحاد السوفييتي اللذين أمدَّا نيكاراجوا بالسلاح ، وقاما بتدريب مجموعات من المحاربين في السلفادور وبلاد أخرى ..

وفي لحظة كتابة هذه السطور(٥) من المستحيل أن نتنبأ بنهاية الصراع في أمريكا الوسطى : هل سيكون الأمريكيون قادرين على مقاومة غواية استخدام القوة والاعتماد على الدكتاتوريات العسكرية واليمين المتطرف ؟ ، وهل ستستطيع المجموعات الديموقراطية التي تحظى بتأييد الأغلبية ، وإن كانت غير منظمة ، أن تعيد صنع نفسها وتنتصر على المتطرفين من اليسار واليمين ؟ وبالرغم من أن هذا النوع من التحركات قد فشل في أغلب الأحوال فربما يستطيع تصرف حاسم من جانب فنزويلا والمكسيك وكولومبيا مجتمعين — بالإضافة إلى إسبانيا الاشتراكية — أن يقلل الكارثة ويفتح الطريق نحو حل سلمي وديموقراطي(٦) .

---

(٥) في مارس ١٩٨٣ .

(٦) بعد كتابة هذه السطور تشكلت المجموعة المسماة « كونتادورا » التي تدخل ضمنها أيضا بنما .

ولعل الوقت لم يعد متأخرا جدا . إن إقامة دكتاتوريات شيوعية في أمريكا الوسطى ــ وهي إمكانية مازالت حكوماتنا حتى الآن تقلل من شأنها في بساطة غير مفهومة ــ سوف تكون لها آثار مريعة على السلام الداخلي في المكسيك وعلى أمنها الخارجي . وهذه الأنظمة موجهة بشكل جوهري بسبب من طبيعتها نفسها ؛ ذلك أنها ميليشيات مدفوعة بإيديولوجية حربية توسعية للبحث عن السيطرة بوسائل عنيفة .

وفي السنوات الأخيرة تضاعف عدد الدكتاتوريات العسكرية في أمريكا الجنوبية ، وقويت الدكتاتوريات التي كانت موجودة من قبل . ومع ذلك فإنه في نهاية هذه الفترة ظهرت علامات وإشارات تنم عن العودة إلى أشكال أكثر ديموقراطية . وهذه الحركة تُلحظ بصفة خاصة في البرازيل . إنه حدث له نتائج واسعة ، ولكن بشرط أن يستمر هذا الاتجاه ويتأكد .

إن البرازيل مؤهلة لكي تكون قوة كبرى ، وقد بلغت بالفعل درجة كبيرة من التطور . إن تحولها إلى الديموقراطية سوف يساهم بقوة في تغيير تاريخ قارتنا وتاريخ العالم . وبالاضافة إلى ذلك فإن ثمة بوادر أخرى تعيد الثقة . فالديموقراطية في فنزويلا أصبحت بالفعل نظاما مستقرا وصحيا ومؤهلا . إن فنزويلا استطاعت أن تبدع شرعية ديموقراطية حقيقية مثل كوستاريكا .

وفي المكسيك ، التي هزتها أحداث ١٩٦٨ ، قام النظام بإصلاحات رشيدة . وحدثت عمليات تقدم تستحق التقدير . ومعظم المكسيكيين يرون أن الديموقراطية بالرغم من أنها ليست علاجا لمشكلاتهم الهائلة فإنها أفضل وسيلة لمناقشة هذه المشاكل ووضع حلول لها . ولكن حالة المكسيك فريدة من نوعها ، ومن ثم فإنه لا مانع من أن نتناول وضعها بشيء من التفصيل .

في ٤ يوليو عام ١٩٨٢ انتخب المكسيكيون رئيسا وشيوخا ونوابا جدد . وقد برزت هذه الانتخابات بسبب ازدياد عدد الناخبين وبسبب جو الحرية والهدوء الذي جرت فيه . وقد أظهر الشعب المكسيكي مرة أخرى أن أخلاقه السياسية أفضل واكثر صحة من أخلاق طبقته الحاكمة وهي البرجوازية والسياسيون المحترفون والمثقفون ، وبعد شهرين ، أي في أول سبتمبر عادت هذه الطبقات نفسها فأبدت قلة نزوعها إلى الديموقراطية . والبلد عانى

ومازال يعاني من وضع اقتصادي متدهور . والأسباب معروفة جيدا : تدهور الاقتصاد العالمي (التضخم ، البطالة ، انخفاض اسعار البترول والمواد الأولية ، زيادة الفائدة المصرفية ، الخ) ، وتصرف الحكومة المكسيكية الذي يتسم بالمغامرة وسوء التقدير ، وقد أظهرت هذه الحكومة مرة أخرى أنها غير قادرة على أن تسمع لكل هؤلاء الذين يعبرون عن قلقهم إزاء الطريقة المبتذلة التي أديرت بها الثروة البترولية المكتشفة حديثا ، والمرض الوبائي للأنظمة المالية السائرة على النمط المكسيكي مثل الفساد وانشار الرشوة بين الموظفين .

إن تهريب العملات الحرة ــ وهي مترتبة على المرض وليست سببا له ــ أسرع بتقويض عملية التمويل . وبالرغم من أن الرئيس السابق لم يكن قد بقي له في الرئاسة إلا ثلاثة أشهر فقط ، فإن رده على ذلك كان بمثابة انفجار : لقد أمم البنوك

وبتعبير أصح جعلها ملكا للدولة ، لأنها كانت بالفعل مكسيكية . وقد اتخذ هذا الإجراء بدون تشاور أو نقاش سابق . وبما أنها كانت سرا ، فعند إعلانها في أول سبتمبر كانت مفاجأة لكل الناس بما في ذلك غالبية وزراء الدولة ، ومن بينهم وزير المالية نفسه .

أما الرأي العام الذي أخذته الدهشة فلم يجد فرصة للإعلان عن نفسه . فالحكومة وجهازها السياسي ، الحزب الثوري الدستوري ، وضعوا كل وسائلهم الدعائية الهائلة في خدمة هذا الإجراء . أما وسائل الإعلام فقد انضمت « للكورس » الرسمي أو التزمت الصمت الرصين ، إما لاقتناعها بهذا الإجراء أو لخوفها من التأميم . كما أن قادة البيروقراطية النقابية قاموا بتعبئة العمال أيضا . ولكن المؤشر الحقيقي لحالة المعنويات العامة تمثل في رد فعل المجموعات المستقلة مثل رجال المصارف ورجال الأعمال الذين احتجوا على استحياء ، أما أحزاب اليسار ومثقفوهم فقد صفقوا لهذا الاجراء في نشوة غامرة . ولم يكن هناك إلا عدد قليل منهم جرأوا على انتقاد القرار الحكومي ، بعضهم من الصحافيين وثلاثة أو أربعة من المثقفين بالإضافة إلى حزب المعارضة « العمل القومي »(٨) .

---

(٨) إن التحليل الكامل النافذ لهذا الحدث نجده في مقالين نشرا بمجلة Vuelta أحدهما بقلم انريكي كراوس عنوانه « دفة السفينة والعاصفة » (العدد ٧٠ ، اكتوبر ١٩٨٢) ، والثاني بقلم جبريل زايد وعنوانه « رئيس مراهن » (العدد رقم ٧٣ ، ديسمبر ١٩٨٢) .

ومازال يعاني من وضع اقتصادي متدهور . والأسباب معروفة جيدا : تدهور الاقتصاد العالمي (التضخم ، البطالة ، انخفاض اسعار البترول والمواد الأولية ، زيادة الفائدة المصرفية ، الخ) ، وتصرف الحكومة المكسيكية الذي يتسم بالمغامرة وسوء التقدير ، وقد أظهرت هذه الحكومة مرة أخرى أنها غير قادرة على أن تسمع لكل هؤلاء الذين يعبرون عن قلقهم إزاء الطريقة المبتذلة التي أديرت بها الثروة البترولية المكتشفة حديثا ، والمرض الوبائي للأنظمة المالية السائرة على النمط المكسيكي مثل الفساد وانشار الرشوة بين الموظفين .

إن تهريب العملات الحرة ــ وهي مترتبة على المرض وليست سببا له ــ أسرع بتقويض عملية التمويل . وبالرغم من أن الرئيس السابق لم يكن قد بقي له في الرئاسة إلا ثلاثة أشهر فقط ، فإن رده على ذلك كان بمثابة انفجار : لقد أمم البنوك

وبتعبير أصح جعلها ملكا للدولة ، لأنها كانت بالفعل مكسيكية . وقد اتخذ هذا الإجراء بدون تشاور أو نقاش سابق . وبما أنها كانت سرا ، فعند إعلانها في أول سبتمبر كانت مفاجأة لكل الناس بما في ذلك غالبية وزراء الدولة ، ومن بينهم وزير المالية نفسه .

أما الرأي العام الذي أخذته الدهشة فلم يجد فرصة للإعلان عن نفسه . فالحكومة وجهازها السياسي ، الحزب الثوري الدستوري ، وضعوا كل وسائلهم الدعائية الهائلة في خدمة هذا الإجراء . أما وسائل الإعلام فقد انضمت « للكورس » الرسمي أو التزمت الصمت الرصين ، إما لاقتناعها بهذا الإجراء أو لخوفها من التأميم . كما أن قادة البيروقراطية النقابية قاموا بتعبئة العمال أيضا . ولكن المؤشر الحقيقي لحالة المعنويات العامة تمثل في رد فعل المجموعات المستقلة مثل رجال المصارف ورجال الأعمال الذين احتجوا على استحياء ، أما أحزاب اليسار ومثقفوهم فقد صفقوا لهذا الاجراء في نشوة غامرة . ولم يكن هناك إلا عدد قليل منهم جرأوا على انتقاد القرار الحكومي ، بعضهم من الصحافيين وثلاثة أو أربعة من المثقفين بالإضافة إلى حزب المعارضة « العمل القومي »(٨) .

---

(٨) إن التحليل الكامل النافذ لهذا الحدث نجده في مقالين نشرا بمجلة Vuelta أحدهما بقلم انريكي كراوس عنوانه « دفة السفينة والعاصفة » (العدد ٧٠ ، اكتوبر ١٩٨٢) ، والثاني بقلم جبريل زايد وعنوانه « رئيس مراهن » (العدد رقم ٧٣ ، ديسمبر ١٩٨٢) .

وبالطبع من الممكن أن تكون هناك آراء مخالفة أو مستحسنة أو غير مستحسنة بشأن موضوع تأميم البنوك ، ولكن اللوم يأتي من الطريقة التي تمَّ بها هذا التأميم ، والتي هي خليط من الوصاية وإصدار الأحكام السريعة . والأكثر عارا من ذلك كان هو صمت بعضهم ، والمديح المغالى فيه لبعضهم الآخر .

فلماذا إذن علا صوت رجال البنوك ورجال الأعمال بالشكوى ولم يسمع لهم الرأي العام ؟ لأن كثيرين منهم كانوا قبلا من أشد المخلصين للنظام ، ثم أنه لا أحد منهم اهتم في أي وقت من الأوقات بتحسين الثقافة السياسية للمكسيك أو ساعد في إنجاح مهمة ليست لطبقة معينة وإنما لكل المكسيكيين وهي خلق مناخ سياسي حر بحق ومفتوح على كل الاتجاهات . إنهم كانوا ومازالوا مجموعات للضغط لا للرأي . فكيف ظنوا أنهم يمكن أن يحتموا في المبادىء الديموقراطية إذا كانوا من قبل لم يحركوا إصبعا للدفاع عنها وتعميقها في حياتنا العامة ؟ ولم يكن موقف اليسار ومثقفيه أقل مدعاة للحزن من ذلك ، خاصة إذا تذكرنا ادعاءاتهم الأخيرة الصاخبة عن إيمانهم بالديموقراطية والجماعية . وعلى طريقة العبرانيين المفتونين بعجل الذهب ، فإن المرسوم الرئاسي جعلهم يعودون إلى حالتهم المعهودة . فبدلا من أن يشجبوا الشكل الذي تم به التأميم سارعوا إلى تأييده وكأنه عمل ثوري فعلا ، ولم يلقوا على أنفسهم السؤال الأساسي الذي ماكان يمكن أن يغيب عن ذهن معلميهم وهو : ما الفضيلة الاجتماعية التي تفيد من هذا الإجراء ؟ ومن الواضح أن المستفيدين ليسوا هم العمال ولا الشعب في عمومه ، وإنما هي الطبقة الجديدة أي البيروقراطية الحكومية[9] . وبذلك تتضاعف سلطة الحكومة ، التي هي في المكسيك زائدة عن الحد في الأصل .

---

(٩) يبدو لي أني كنت أول من اهتم بالطابع البيروقراطي السياسي المكسيكي . وقد جاءت أول محاولة لي لتوصيف هذا الوضع في كتابي « متاهة العزلة » (١٩٥١) وفي صفحات قليلة من كتاب « التيار المتناوب » (١٩٦٧) . كما يوجد تحليل أكثر إسهابا في كتاب « حاشية » (١٩٧٠) وبعد ذلك في عدة مقالات من كتاب « الغول الخيِّر » (١٩٧٩) . إن البيروقراطية السياسية المكسيكية تعبير عن ظاهرة عامة في القرن العشرين وإن كانت لها خصائص فريدة . والواقع أن هذه الظاهرة تتكون من فصائل ثلاث مختلفة : الطبقة السياسية بمعنى الكلمة ، وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بحزب ثورة المؤسسات ، وطبقة التكنوقراط الحكومية ، وأخيرا جماعة لا نملك إلا أن نطلق عليها « رجال البلاط » . وهؤلاء الأخيرون تعبير عن الميراث المكسيكي ، الذي يمثل استمرارا تاريخيا للحكم المطلق الأوروبي في القرون السادس والسابع والثامن الميلادي ، والذي انتقل للمكسيك عن طريق عائلة أوستريا Austria ثم بعد ذلك عن طريق عائلة البوربون إنهم مجموعة مكونة من أصدقاء الرؤساء وأقاربهم ووزرائهم . =

لقد أظهرت انتخابات يوليو ١٩٨٢ أن غالبية المكسيكيين تميل نحو الحلول الديموقراطية ، كما أكدت أحداث سبتمبر أن البرجوازية المحافظة وأحزاب اليسار ومثقفيهم والطبقة السياسية الحاكمة ليس لديهم رغبة ديموقراطية حقيقية . إنها مجموعات سجينة ، بعضهم سجين مصالحه الخاصة ، وبعضهم الآخر سجين إيديولوجيته . ولكي ندرك قلة استقلال رجال الأعمال الرأسماليين وقادة النقابات العمالية لابد أن أذكُر بأن كلا الطرفين ولد وازدهر تحت ظلال الدولة المكسيكية ، صاحبة عملية تحديث البلاد . (عالجت هذا الموضوع في كتابي « الغول الخيِّر » (١٩٧٩) .

أما الطبقة المثقفة فقد عاشت ، من جانبها ، في غمرة الإدارة الحكومية ، ولم يجد المثقفون راحتهم في الجامعات إلا منذ عدة سنوات فقط ، حيث نمت هذه الجامعات وتضاعف عددها . وتقوم الجامعات الآن خير قيام بمهمة الكنيسة والفرائض الدينية .

وتتأكد هذه المشابهة إذا أدركنا أن هذه الجامعات ، ماهي إلا مؤسسات عامة مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدولة ، على نحو ماكانت عليه الكنيسة في إسبانيا الجديدة . كما يمكن القول أيضا بأن اعتمادها على الدولة كبير ، وذلك أن الكنيسة كانت فاحشة الثراء حتى منتصف القرن التاسع عشر ، بينما تعيش الجامعات المكسيكية على الإعانات والهبات الحكومية . إن صلة المثقفين المكسيكيين بالدولة لا تقل إبهاما عن صلة رجال الكنيسة الإسبان الجدد بالسلطة الزمنية . ويمكننا تحديد هذه الصلة بأنها « استقلال مشروط » .

إن فقدان الاتصال بين البلد الحقيقي وطبقته القائدة ، دون أن نستثني المثقفين ، حدث مميز ومستمر في التاريخ الحديث للمكسيك . فالشعب لم يستطع تقنين شكاواه وحاجاته الضرورية في فكر سياسي متناسق ، وفي برامج واقعية نظرا لأن الأقليات المثقفة والسياسية ، التي تقدم في أجزاء اخرى من العالم تفسيرات للتطلعات الشعبية المبهمة وتعطيها شكلا ،

---

* إن البيروقراطية السياسية المكسيكية ، بالمعنى المحدد ، طبقة لم تصبح وراثية حتى الآن – وإن كانت تتجه نحو ذلك – تتكون من محترفي العمل السياسي من المجموعات والأفراد والمواقع . إنها مجموعة ذكية ، برجماتية (نفعية) نشطة ، وتأتي الاعتبارات الإيديولوجية عندها في المقام الثاني . وهي تذكرنا إلى حد ما بكبار موظفي الصين القديمة ، بالرغم من أن غالبية أعضائها ليست من المثقفين ، كما أنهم لم يتربوا على تراث فكري يشبه تراث كونفوشيو .

نجدها عندنا مستيمة لإيديولوجيات تبسيطية . فهؤلاء المثقفون الذين ليسوا مبشرين للكنائس أو مذاهب اليسار ، يدافعون عن الوضع الراهن الذي يحافظ على مصالحهم وآخرون ، هم أقلية ، يواصلون أنشطتهم الخاصة ــ مثل البحث والتعليم والإبداع الفني والأدبي ــ وبهذا يحافظون على عملية الاستمرار الهش لثقافتنا ، المهددة الآن أكثر من أي وقت مضى . ولكن عددا من المثقفين المستقلين ــ لا يتجاوز عددهم أصابع اليد ــ يحملون على عاتقهم المهمة الانتقادية ويجرؤون على التفكير من تلقاء أنفسهم . وهناك عائق آخر وهو أن أجهزة الإعلام تتحكم فيها الحكومة سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن تأثير منظري الإيديولوجيات في الصحافة اليومية والأسبوعية يفوق كل شيء . ومن ثم فإن أشكال التعبير الشعبي المطروقة هي الشائعات والنكت ولكي أوضح ذلك أقول : لا توجد دكتاتورية حكومية على الرأي ، وإنما يوجد انقطاع بين المكسيك الحقيقية وبين من يجب أن يكونوا في العادة صوتها المعبر والمتحدثين باسمها .

وبالرغم من كل هذه المعوقات الطارئة فإن الرأي العام يرفض يوما بعد يوم وراثية النظام وأبوته ويتطلع نحو حياة حرة وديموقراطية . إنها صيحة عامة ، وسيكون من الخطر بمكان أن يتجاهلها حكامنا .

وهذا التطور نفسه يلاحظ في باقي أجزاء القارة ؛ ففي كولومبيا نجد الديموقراطية لا تدافع عن نفسها فقط وإنما تستمر وتتقدم . وبيرو والإكوادور يعودان إلى الأشكال الديموقراطية ، والشيء نفسه يحدث في بوليفيا . وفي أورجواي جرت انتخابات في غير صالح العسكريين . والمنفيون من شيلي بدأوا يعودون إليها ، وهي دلالة على أنه ليس من المستبعد أن يحدث تغيير . وفي الأرجنتين توجد إشارات على أن ثمة استعدادا لعودة الديموقراطية(*) .

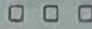
وباختصار فإنه ليس مخاطرة أن نتوقع أننا نعيش في مفترق تاريخي . ولو أن الاتجاه الذي وصفته في إيجاز زاد قوة واستحكاما وانتشر فإننا نحن أبناء أمريكا اللاتينية يمكن أن نبدأ في التفكير في أعمال ديموقراطية مشتركة تكون الإجابة على المصالح الحقيقية لشعوبنا . فحتى الآن مازلنا نلعب لعبة القوى العظمى . واللحظة مواتية لمحاولة اتخاذ

(*) عادت الديموقراطية بالفعل للأرجنتين ، ورئيسها الحالي المنتخب انتخابا ديموقراطيا هو راءول ألفونسين . المترجم .

سياسة لقارتنا تكون جديدة وتستهدف صالحنا ـ ولعله ليس من باب الطموح فقط أن نفكر بأنه من الممكن أن تساهم في هذه النهضة ديموقراطيتان أوروبيتان جديدتان تربطنا بهما أواصر التاريخ والثقافة هما إسبانيا والبرتغال .

إنني أعتقد أن الطريق قد فتح لعمل ديموقراطي في قارتنا ، لا يأتيها من الخارج وإنما يصدر عن بلادنا نفسها . إن تحالف الأمم الديموقراطية في أمريكا اللاتينية لن يجعل واشنطن تعيد التفكير في مواقفها فقط وإنما يمكن أن يؤدي إلى تغيير القارة . وأنا إذ أقول ذلك تطرأ على ذهني مساهمتان جوهريتان : أولاهما دفع عملية التحديث الحقيقية لشعوبنا أي إقامة ديموقراطيات أصلية ، وثانيتهما تتمثل في إقامة استقلال أمريكا اللاتينية من جديد وعلى قواعد أكثر صلابة .

ففي العالم الحديث نجد أن الديموقراطية والاستقلال مصطلحان متداخلان . إن الديموقراطية غير المستقلة لا تكون ديموقراطية حقيقية . ولكن لم يعد أمامنا وقت طويل . لقد أمسى الوقت متأخرا .. ومازالت السماء ملبدة بالغيوم .



□ الفصل السادس □

بقعة من الحبر

تحت شمس تخلو من العنف كانت الساعات تمضي هادئة . كان المساء يجر أذياله وأنا ، في حالة شرود ، أراقب بذهن مكدود خيطا من الضوء يسقط على أوراق مكتبي . وخلف النافذة كانت تبدو بعض الأشجار غارقة في الضوء الأخير . وفجأة شاهدت شبحاً ينهض من الصفحة المكتوبة ويتقدم في اتجاه المصباح ويمتد فوق الغلاف الأحمر للقاموس . ثم كبر الشبح وتحول إلى شكل لا أدري هل أصفه بالبشرية أو بالماردية . كما أني لا أستطيع أن أصف حجمه : كان دقيقا وكان هائلا ، وكان يمضي وسط كتبي بينما ظله يغطي الكون . وقد نظر إليّ وأخذ يتحدث . وبتعبير أصح سمعت ماكانت تقوله لي عيناه ، وإن كنت لا أدري هل كانت له عينان ، وهل هاتان العينان كانتا تنظران إليّ:

هو : انتهيت إذن من « زمن الغيوم » ؟

أنا : (معلنا الموافقة بإشارة من رأسي) ، من أنت أو ماأنت ؟ .

هو : اسمي هو « فيلق » . وبدون أن يتوقف تغيير الأسماء والأشكال لدى ، فأنا كثيرون ، وأنا لست بشيء ، ودائما أجدني سجين ذاتي ولا أستطيع إمساك نفسي . وأحد البيزنطيين أطلق عليّ « هارب من الضوء » : فأنا ظلام متجول وعدو للضوء . ولكن ظلي ضوء ، مثل ظل أخيل Aciel الشمس السوداء . إني ضوءٌ ينصبُّ نحو الداخل ، ضوءُ عكسي ،

ويحسن أن تطلق عليَّ إيسول Ecul .

أنا : أعرف إذن من أنت ومن أين أتيت .

هو : نعم ، إني قادم من الأنشودة الأولى في هذا الكتاب (وأشار إلى مجلد مغلف في حجم الفولسكاب) . ولكن لا يذكر اسمي . فأنا واحد من الحاشية .

أنا : حاشية من ؟ .

هو : حاشية أمير . اسمه لن يفيدك في شيء .

أنا : علام أتيت ؟ .

هو : لكي أقنعك . إنك تمضي ضائعا في الزمن ، أو كما تقولون أنتم في التاريخ . تبحث عن اتجاه ، فهل وجدته ؟

أنا : لا . ولكني أعرف الآن أن الانتفاضات تتحجر في قوالب ثورات أو تتحول إلى عمليات بعث .

هو : هذا ليس بجديد . إنه لقديم قدم تواجدكم على هذا الكوكب .

أنا : إنه جديد بالنسبة لي . وجديد بالنسبة لنا نحن الذين نعيش الآن .

هو : أفأنت أيضا يبدو لك جديدا هذا الشجار بين القوتين العظميين ؟ تذكر روما وقرطاجنة .

أنا : لا ، ليس بجديد . ومع ذلك فليس هو الشيء نفسه . إن المشابهة لا تعني الانطباق .

هو : ياله من طموح ! ألم تلاحظ مشابهة أخرى .. مثيرة للدهشة ؟

أنا : ماهي ؟

هو : ألم تتذكر ، في هذا الكتاب (وعاد يشير إلى المجلد) جمعية باندمونيوم ؟

أنا : لا أفهمك .

هو : (في ضجر) لقد أصبحت الأرض مثل جهنم ، ونحن الشياطين نلعب بنار الحرب مع البشر .

أنا : أقول لك لا أفهمك .

هو : ألم تقرأ شعراءك جيدا . (وبلهجة تعليمية) هناك في باندمونيوم يوجد أميران عظيمان ، لا تنقص قدرتهما إلا عن قدرة لوزبيل Luzbel . أولهما (بدأ يتكلم بلهجة حماسية) « ملك قاس ملطخ بدم الضحايا وبدموع الآباء الذين لم يستطيعوا الهرب ، وغرقوا في ضجيج الأجراس والصنجات ، وفي صيحات أبنائهم الذين يحملهم الصنم العابس على أذرع من نار » .

أنا : آه ! تقصد مولوك Moloc إله الأمونيين !

هو : والعبرانيين . ألا تعرف (وقد خفض صوته) أن الإله الذي كان يضحي بالأطفال من أجله هو يهافت Yahweh ؟ وقد حدث هذا في عصور أشاث Achaz ومناسيس Manasses . إن دراساتك في التوراة ينقصها الكثير . ولعلك تعرفه باسم آخر من أسمائه هو حارس Ares .

أنا : **مارتي** Marte .

هو : هويزلوبوتشلي ، تيزكاتليبوكا ، أودين ، تور ..

أنا : **وكالي** Kali **الذي يلعق بلسانه الهائل أراضي المعركة ويحفر بأظافره المقابر .**

هو : والأمير الآخر لا يمشي ورأسه مرفوعة مثل مولوك العظيم وإنما يمشي ناظرا لأسفل . هل هو تواضع ؟ كلا : إنه يتقصى ويبحث عن الثروات المخبوءة . لقد علمكم كيف تكتشفون — الشاعر يقول تخربون لكنه يغالي — أحشاء الأرض . عندما كنا نعيش في الأعالي (عاد للهجة الخطابية) « أقام أبراجا عالية ، ومساكن من الضوء من أجل ملائكته .. حتى تدهور من المنارات الزجاجية وسقط بلا نهاية من الفجر إلى منتصف النهار ، ومن منتصف النهار إلى الليل ، وكان ذلك يوما طويلا من أيام الصيف .. لقد سقط بكل آلاته ، وبكل أجهزته الماهرة وأتباعه الصناع .. وحُكم عليه بعمل إنشاءات في الجحيم » . (وقفة) ومنذ ذلك الحين وهو يظلع (يعرج) في مشيه قليلا .

أنا : **هل هو هيفست ، فولكان ؟.**

هو : اسمه الحقيقي مأمون Mammon . سيد الحدادين ، والتجار ، والمهندسين ، والميكانيكيين ، ورجال البنوك ، وعمال المناجم .. إنه إله حكيم ، شغال وصانع . إله ملح في الطلب . قال ماتيو Mateo : « إنك لا يمكن أن تعبد الله وأن تعبد مأمون » وقال إرجو Ergo : اعبد مأمون .

أنا : **إنه شيطان عارف بالكتب المقدسة .**

هو : (دون أن يعيرني اهتماما) لقد نوقش في باندمونيوم ذات مرة — ومانوقش هناك مرة يناقش باستمرار لأن التوالي والتكرار ، والتغير والمطابقة هي شيء واحد بالنسبة لنا — كيف نستطيع استعادة الخير المفقود . كان ذلك في اليوم التالي للسقوط . لقد نهضت الروح الأكثر قوة ووحشية من تلك الأرواح التي اشتركت في معارك الامبير Empireo ، وهو مولوك وقال : « كيف نستطيع نحن الهاربين من السماء أن نتلكأ في الجلوس هنا ونقبل هذا الوكر ؟

الويل ملجأ لنا بينما الملايين المسلحون ينتظرون الإشارة للاستيلاء على هذه المرتفعات ؟ إن الظالم يحكم هنا بسبب تقاعسنا فقط .. » لقد دعا مولوك إلى التمرد وإلى الحرب . وبعد ذلك تحدث بليال Belial فنصح بالتزام جانب الحذر . ولكن الخطبة التي كانت مفاجأة للجميع والتي مازلنا نشعر بالمفاجأة تجاهها إلى الآن هي خطبة مأمون .. بالرغم من أن الشر يقطب حاجبيه كلما ذكرت ذلك .

أنا : لماذا ؟

هو : إن مأمون لم يقترح إزالة مولوك المتكبر ولا إخضاع بليال المنافق . « نظرا لأننا لا نستطيع أن ننزل الإله من عرشه ، كما لا نستطيع أن نحصل على عفوه (وإذا كان هذا الأخير مازال في الإمكان فمن ذا الذي لا يشعر بالخضوع وهو يقضي اليوم بطوله في التسبيح والتحميد ؟ وياله من خلود رتيب هذا الخلود الذي نقضيه في عبادة من نكره ..) كلا ، إننا لن نتعلق بالمستحيل ، ولن نربط أنفسنا بغير المقبول . يجب أن نبحث عن الخير في أنفسنا ونعيش أحرارا في هذا الوكر الواسع ، دون أن نضع اعتبارا لأحد . إن الحرية الدائمة مفضلة على العبودية وعلى الأبهة الخادمة . أليست ترعبنا ظلمة هذه الحفرة ؟ سوف نتخطاها بأضواء تشبه أضواءه .فهل سيفزعنا هذا الحزن ؟ إن لدينا الموهبة والمثابرة للتسامي بالعظمة .. إن عذاباتنا ، بفعل الزمن والعادة ، سوف تتحول إلى طبيعة ثانية والنيران التي تصلينا ستصبح مداعبات » . وقد أثارت خطبة مأمون عاصفة من التصفيق تشبه العاصفة التي تهب على البحر فتنطلق بسببها الأصوات من الصخور ومن غابات الروابي . وعندئذ قال بلثيبو ..

أنا : الآن فهمت قلق الشيطان . إن خطبة مأمون كانت تشتمل على بعض الانحراف . فقد كان يستهدف ببرنامجه الإصلاحي الماكر أن يصرف نظر الشعب الجهنمي عن مهمته العاجلة ، أو بتعبير أصح عن مهمته التاريخية : التمرد وحيازة السماء .. والذي لا أفهمه حتى الآن هو موضوع الشبه .

هو : إنك عنيد . تفكر في مولوك وفي ندائه التالي : فلنتحد جميعا حتى نستولي على السماء بملايين وملايين الثوار المتعصبين . بماذا يذكرك كل هذا ؟

أنا : يذكرني بروسيا . إنها إحدى إقطاعيات مولوك !

هو : صح . والآن نفكّر في مأمون وفي فكرته عن جعل الجحيم قابلا للسكني عن طريق العمل والصناعة والتجارة و « الحرية الدائمة » .

أنا : **الولايات المتحدة والديموقراطيات الرأسمالية ! .. إنها مستعمرات مأمون .**

هو : إن تاريخ البشر هو تمثيل ....

أنا : **نزاع الشياطين .**

هو : حسنا ! لقد فهمت الدرس .

أنا : **ترفق ، ترفق .... وحتى لو صح أن التاريخ ماهو إلا عمل مسرحي كتبتموه أنتم لكان من الأفضل أن نختار أقل الشر .**

هو : (مستنكرا) الشر لا يوصف بالكبر أو الصغر . فالشر هو الشر .

أنا : **وأنت تقول ذلك ! أنت الذي اخترعت السلب ، فجزأت به الخلود وخلقت منه الزمن المتتابع ، التاريخ ! تتحدث مثل جبريل وميكائيل جنود الرحمن .**

هو : (مصالحا) لقد حكم علينا أن نعيش في الزمن . فنحن خالدون ونسقط للأبد في النسبي ، وهذا هو عقابنا . أما أنتم فلا .. فأنتم تستطيعون بقفزة واحدة أن تهربوا من الزمن ومن منازعاته الشيطانية . ألستم تطلقون على هذا اسم الحرية ؟

أنا : **ماذا تبغي ؟ إن مولوك يعلن أن معركته مطلقة ، ومأمون يصدر مرسوما بأن الثروة هي الخير الأسمى ، وأنتم قد جعلتم دائما من النسبي مطلقا ، ومن المخلوق إلها ومن اللحظة خلودا زائفا . والآن تأتي أنت لتقول لي العكس ، فما هو نسبي يكون نسبيا بلا صفح وهو شيطاني أيضا . إنك تطلب مني أن أترك المنازعات الأرضية وأنظر نحو الأعلى ... إنها خديعة أخرى ، وفخ آخر .**

هو : مازلت سجين الزمن . تذكر الآتي : « لا شيء يزيل وهمي / فالعالم قد مزقني » يجب أن ننطلق ، ونقفز ونصير أحرارا . الكلمة هي الانطلاق .

أنا : **يالك من غشاش ! إننا نعيش في الزمن وينبغي علينا أن نواجه الزمن . ولعلنا بهذا فقط نستطيع في يوم ما أن نرفع الغشاوة عن اللازمن . السياسة والتأمل ، هذا ماقال به أفلاطون ، وماكرره أرسطو ومارك أوريليو والقديس توما وكانْت . كل منهم على طريقته . ففي النسبي توجد آثار وانعكاسات من المطلق ، وفي الزمن تمثل كل لحظة بذرة الخلود . ولو لم يكن الأمر كذلك فلا شيء يهم . إن كل عمل نسبي يتجه نحو معنى يجعله متعاليا .**

هو : فيلسوف كبير !

ونحن من صنع الزمن وأعمالنا ماهي إلا زمن :

أنا : هذا بذاك ... إننا نعيش في الزمن ، فهي تمضي ونحن نمضي . ولكننا نستطيع في بعض الأحيان أن نرى في السماء المغيمة بعض الوضوح . ولعله لا يوجد شيء في الخلف ، ومايظهر منها لنا إنما هو مجرد شفافيتها الخاصة .

هو : (بشراهة) وهل هذا يكفي ؟ هل تكتفي بهذا الانعكاس الصادر عن انعكاس آخر ؟ .

أنا : يكفيني ، يكفينا جميعا . إننا على العكس منكم ، لا نستطيع أن نتخلى عن الفعل ولا عن التأمل .

هو : (بصوت مختلف) بالنسبة لنا فإن الرؤية والفعل شيء واحد ، وهذا ينحل في لا شيء . إن كل خطبنا البليغة تنتهي بصفير كصفير الأفعى .. إننا أرواح ساقطة في الزمن لكننا لسنا الزمن ؛ فنحن خالدون . وهذا هو عقابنا : خلود بلا أمل .

أنا : ونحن أبناء الزمن والزمن هو الأمل .

وخلف النافذة ، كانت أشجار الأمل تغرق مع الليل . وعلى صفحة الورق ، لاحظت وجود بقعة صغيرة من الحبر في فراغ بين فقرتين . وفكرت : إنها فتحة من ضوء أسود .

(المكسيك في ٢٢ مارس سنة ١٩٨٣)

□ □ □

الجزء الثانى

الأيــــــام الجـاريــــــة

□ الفصل الأول □

المكسيك والولايات المتحدة
(أوضـــاع وعكسهـــا)

فقـــر وحضـــارة :

إذا لم يكن الإنسان هو مَلِك الخلْق ، فإنه هو استثناء الطبيعة ، وهو التفرد الذي يتحدى كل القواعد والتحديدات . إن رجال العلم يصابون بالدهشة إزاء التصرف غير المنتظر للعناصر البدائية ، والذي هو بطريقة ما تصرف هوائي ، ولكن .. ماذا تكون هذه الأمور الطبيعية الغريبة إزاء التصرفات النفسية والأخلاقية الشاذة لشخص مثل نيرون أو سان فرانثيسكو دي أسيس ؟

إن تاريخ المجتمعات لا يقل ثراء في أمورها الشاذة والغريبة عن سِيَر الأفراد : وماذا تكون الأنثروبولوجيا إذا لم تكن هي وصف العادات المتفردة والطقوس الهاذية ؟ إن المجتمعات غير قابلة للتوقعات مثل الأفراد ، ومن ثم فإن قائمة النبوءات الفاشلة لكثير من علماء الاجتماع ، بدون استثناء كبرائهم ، أكبر وأكثر إثارة من قائمة علماء الفلك

والمنجمين . فالتاريخ تتراكم فيه أشياء متناقضة وغير متناسقة بنوع من المزاح الذي هو في الوقت نفسه لا إرادي وفاسد .

وعندما كنت في إيطاليا كررت على نفسي أكثر من مرة ، إزاء أخبار المعارك المستمرة بين الهندوس والمسلمين ، السؤال نفسه : بأي صدفة أو بأي حتمية تاريخية ألزم ديانان يستحيل اتفاقهما مثل الهندوسية والإسلام على التعايش في مجتمع واحد ؟ إن وجود ديانة توحيد خالصة وصارمة داخل حضارة لها دور كبير في إعداد ديانة مشركة أكثر تعقيدا واكتمالا كان يبدو لي بمثابة تحقيق للامبالاة التي يقترف بها التاريخ مفارقاته القاسية . والحق أن التزاوج المتناقض الذي يشكله في الهند الهندوسية والإسلام لم يكن مفاجأة بالنسبة لي ؛ وكيف أنسى أني شخصيا كنت (ومازلت) جزءا من مفارقة لا تقل شيوعا عن ذلك وهي مفارقة المكسيك والولايات المتحدة ؟ .

إن بلادنا متجاورة ، ومحكوم على كل منها أن تعيش بجانب الأخرى ، ومع ذلك يفصل بينها اختلافات اجتماعية واقتصادية ونفسية عميقة جدا ، فضلا عن الفروق الفيزيقية والسياسية . وهذه الفروق تظهر للوهلة الأولى ، وأي نظرة سطحية يمكن أن تختزلها في التعارض المعروف بين التنمية وعدمها ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والسيطرة والتبعية . لكن الفرق الأساسي بحق لا يرى ، فضلا عن أنه قد يمتنع على الظهور .

ولكي نتأكد من أنه لا يتصل بالسيطرة في مجال الاقتصاد ولا بالقوة السياسية يكفي أن نتخيل المكسيك وقد تحولت فجأة إلى بلد متقدم وقوي ، أي إلى قوة عظمى مثل الولايات المتحدة ، ومع ذلك فإن الفروق لن تختفي ، بل لعلها تصبح أكثر وضوحا واشتهارا . والسبب واضح : فهذه الفروق ليست كمية فقط وإنما تنسب إلى الطابع الحضاري . إن مايفصل بيننا هو نفس الشيء الذي يجمع بيننا ؛ فنحن تفسيران مختلفان لحضارة الغرب .

ومنذ أن بدأ المكسيكيون مرحلة الوعي بهويتهم القومية في منتصف القرن الثامن عشر ، أخذوا يهتمون بجيرانهم . وكان هذا الشعور في البداية مختلطا بحب الاستطلاع والاحتقار ، وبعد ذلك بالإعجاب والحماس ، ثم اختلط فجأة بالخوف والحسد .

والفكرة التي لدى شعب المكسيك عن الولايات المتحدة فكرة متناقضة ، عاطفية ومستعصية على النقد ، وهي تعد صورة أسطورية أكثر منها فكرة . ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن نظرة مثقفينا وكتابنا . ويحدث شيء مشابه مع الأمريكيين سواء كانوا كتابا أو سياسيين أو رجال أعمال أو مجرد رحَّالة . وأنا لا أتناسى وجود عدد من الدراسات المثيرة للإعجاب لبعض المتخصصين الأمريكيين ، وخاصة في مجال علم الآثار وفي مجال تاريخ المكسيك القديم والحديث ، ولسوء الحظ فإن هذه الأعمال بالرغم من قيمتها الكبيرة لا تحل محل الشيء الذي ينقصنا وهو النظرة الشاملة والمتغلغلة في وقت واحد .

صحيح أن ملاحظات القصاصين والشعراء الذين كتبوا حول موضوعات مكسيكية كانت في الغالب لامعة ، وأصابت الهدف في بعض الأحيان . ومع ذلك فإن استقبالها تم بشكل مجزأ ، وكما يقول أحد النقاد الذي خصص كتابا لهذا الموضوع(*) فإن هذه الملاحظات تنم عن حقيقة المكسيك بأقل مما تنم عن شخصية كتابها . وفي العادة فإن الأمريكيين لم يبحثوا عن المكسيك في المكسيك نفسها ، وإنما بحثوا عن اهتماماتهم وحماسهم واشمئزازهم وآمالهم ومصالحهم ، وهذا ماوجدوه . وباختصار فإن تاريخ العلاقات بيننا هو تاريخ خداع متبادل وعنيد ، وهو عادة ــ وإن لم يكن دائما ــ مايكون لا أراديا .

إن الفروق بين المكسيك والولايات المتحدة ليست عروضا متخيلة وإنما هي حقائق موضوعية . وبعضها ذو طابع كمي ويمكن تفسيرها عن طريق النمو الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي لكلا البلدين . وبعضها الآخر ، الأكثر ثباتا ، رغم أنها أيضا ناتجة عن التاريخ ، فإنه لا يمكن تحديدها أو قياسها بسهولة . وقد أشرت من قبل إلى أنها تنسب لنظام الحضارات ، هذه المنطقة المتدفقة المكونة من محيطات غير قطعية تنصهر فيها وتختلط الآراء والمعتقدات ، النظم والتقنيات ، الأساليب والأخلاق ، الموضات والكنائس ، وأخيرا التنظيم المادي وتلك الحقيقة الهاربة التي نطلق عليها بشيء من التجاوز « عبقرية الشعوب » .

إن الحقيقة التي تعطي الاسم لكلمة الحضارة لا تترك نفسها للتحديد بسهولة . إنها رؤية كل مجتمع للعالم لكنها في الوقت نفسه تمثل إحساسه بالزمن : فثمة شعوب منطلقة

---

* Drewey Wayne Gunn : American and British Writers in Mexico .

نحو المستقبل وشعوب أخرى مازالت عيونها مثبتة في الماضي . فالحضارة هي الأسلوب ، والطريقة التي لدى أي مجتمع عن الحياة والتعايش والموت . إنها تشمل الفنون الشهوانية وفنون الطبخ ، تشمل الرقص وطرق الدفن ، تشمل أمور اللياقة والإهانة ، والعمل والشركة ، والطقوس والأعياد ، وشؤون العقاب والثواب ، والتعامل مع الموتى ومع الأشباح التي تعيش في أحلامنا ، كما تشمل المواقف إزاء النساء والأطفال والعجائز والغرباء ، والأصدقاء والحلفاء ، والموقف إزاء الخلود وإزاء اللحظة والموقف هنا وهناك ..

إن الحضارة ليست مجرد نظام للقيم وإنما هي عالم من الصيغ والتصرفات ، من القواعد والاستثناءات . إنها الجزء المرئي من المجتمع ـ النظم ، والآثار والأفكار ، والأعمال والأشياء ـ ولكنها ، على وجه الخصوص ، جزؤه المغمور ، غير المرئي : إنها المعتقدات والرغبات ، والخوف ، وعمليات القمع ، والأحلام .

الشمال والجنوب :

إن النقاط الرئيسية قد خدمتنا ، لافي التوجه فقط ولافي المكان فقط وإنما في التاريخ . إن ازدواجية الشرق والغرب قد اكتسبت بسرعة معنى رمزيا أكثر منه جغرافيا ، وتحولت إلى شعار للتناقض بين الحضارات . ويحدث نفس الشيء بالنسبة للشمال والجنوب . فتعارض الشرق والغرب قد نظر إليه دائما على أنه شيء أساسي ورئيسي ، وهو مأخوذ عن سير الشمس ، ومن ثم فإنه يمثل صورة لاتجاه الحياة والموت ومعناهما . إن العلاقة بين الشرق والغرب ترمز لاتجاهين ، لموقفين ، لحضارتين . وعندما يتقاطعان يحدث صدام حربي ، أو يحدث نادرا جدا هذا التلاقي المعجز الذي نطلق عليه « توافق الأضداد » أما ازدواجية الشمال والجنوب فتشير على نحو خاص إلى تعارض طرق الحياة والإحساس . إن الفروق بين الشمال والجنوب يمكن أن تكون تعارضات داخل حضارة واحدة .

ومن الواضح أن التعارض بين المكسيك والولايات المتحدة ، سواء من وجهة النظر الجغرافية أو الرمزية ، ينتمي إلى ازدواجية الشمال والجنوب . وهذا التعارض قديم جدا وكان موجودا في ماقبل اكتشاف الأمريكتين ، أي أنه سابق على وجود الولايات المتحدة والمكسيك نفسيهما . فشمال القارة كانت تقطنه أمم بدوية محاربة ، أما أمريكا الوسطى

فهي ، على العكس من ذلك ، عرفت حضارة زراعية ، ذات نظم اجتماعية وسياسية معقدة ، وكان أصحاب السيطرة فيها رجال الدين المحاربون الذين ابتدعوا طقوسا دقيقة وعنيفة ، وخلفوا فنا عظيما ونظريات في وضع الكون ، مستلهمة من نظرة أصيلة للزمن .

إن التعارض الكبير في الأمريكتين قبل اكتشافهما ــ في الأراضي التي تشغلها حاليا كندا والولايات المتحدة والمكسيك ــ لم يكن ، كما في العالم القديم ، تعارضاً بين حضارتين مختلفتين وإنما بين طريقتين للحياة مختلفتين : أي بين البدو والحضر ، والمشتغلين بالصيد والمزارعين . وهذا الانقسام كان له أثر كبير فيما بعد على تطور الولايات المتحدة والمكسيك . إن سياسة الانجليز والإسبان إزاء الهنود الأمريكيين كانت محددة ، في جزء كبير منها ، بهذا الحدث ، فلم يكن عبثا أن أقام الأولون مستوطناتهم في أراضي البدو ، بينما استقر الآخرون في أراضي الحضر .

إن الفروق بين الإسبان والانجليز الذين أسسوا انجلترا الجديدة وإسبانيا الجديدة ، لم تكن أقل وضوحا وحسما من الفروق التي كانت تفصل الهنود البدو عن أهل الحضر . ومن جديد فإن ذلك كان بمثابة تعارض داخل الحضارة الواحدة .

وبنفس الطريقة فإن رؤية الهنود الأمريكيين للعالم ومعتقداتهم كانت تنبع من مصدر مشترك ، بينما كان الإسبان والانجليز ، بصرف النظر عن طريقتهم في الحياة ، يصدرون عن مبادىء واحدة وثقافة فكرية وتقنية واحدة . ومع ذلك فإن التعارض بينهما كان جد عميق ، وإن كان من نوع يختلف عن التعارض بين أمريكي من طائفة الأستيك **AZTECA** وأمريكي من طائفة الإيروك **IROQUES** . وهكذا فإن التعارض القديم بين البدو والحضر قد طُعِّم بتعارض جديد بين الإسبان والانجليز .

وقد وصفت في مرات كثيرة مواقف الإسبان والانجليز المختلفة المتعارضة . وكلها تتلخص في فرق رئيسي ، ربما يكمن فيه أصل اختلاف التطور بين بلدينا ، هو أن إنجلترا انتصرت فيها حركة الإصلاح الديني بينما كانت إسبانيا بطلة الحركة المضادة لهذا الإصلاح .

وكما نعرف جميعا فإن الحركة الإصلاحية ترتبت عليها في إنجلترا نتائج سياسية ، كان لها أثر حاسم في تشكيل الديموقراطية الأنجلوساكسونية . أما في إسبانيا فقد حدث التطور في الاتجاه المضاد . ذلك أن إسبانيا بعد أن استولت على آخر قلعة للمسلمين قامت بتحقيق

وحدتها السياسية ـ غير القومية ـ الهشة من خلال عمل ائتلاف بين الممالك . وفي الوقت نفسه قامت المملكة بإلغاء مناطق الحكم الذاتي والحريات المحلية ، وبذلك تكون قد سدت الطريق أمام أي تطور محتمل نحو ديموقراطية حديثة لاحقة . وأخيرا فإن إسبانيا كانت لا تزال تحمل السمة العربية ، كما كانت تحمل ميراثا مزدوجا مسيحيا وإسلاميا يشبه الحرب الصليبية والجهاد المقدس .

وفي إسبانيا كانت تتوازى ـ دون أن تنصهر بالكامل ـ ملامح العصر الحديث الذي كان قد بدأ وملامح المجتمع القديم . وبذلك فإن التعارض بينها وبين إنجلترا يصبح شديد الوضوح . إن تاريخ إسبانيا وتاريخ مستعمراتها القديمة منذ القرن السادس عشر هو تاريخ علاقاتنا المبهمة ـ شد وجذب ـ مع العصر الحديث . والآن ، ونحن نشهد غروب الحداثة ، لم نكد نصبح محدثين .

إن اكتشاف أمريكا وفتحها حدثان يبدأ بهما التاريخ الحديث ، ولكن إسبانيا والبرتغال قامتا بتنفيذ هذين الحدثين بحساسية ومزاج عصر الاسترداد . فجنود كورتيس **Cortés** الذين أصابتهم الدهشة أمام أهرامات المايا والأستيك (من الأجناس الأمريكية القديمة) ومعابدهم لم يطرأ على ذهنهم أفضل من مقارنتها بمساجد الإسلام . الفتح ونشر الدين ، إنهما كلمتان شديدتا الالتصاق بإسبانيا والكاثوليكية ، وشديدتا الالتصاق أيضا بالإسلام . فالفتح لا يعني فقط احتلال أرض الغير وإخضاع أهلها وإنما يعني أيضا تحولهم إلى الدين الجديد . وبذلك يكون هذا التحول مبررا شرعيا للفتح . وهذه الفلسفة السياسية ـ الدينية كانت تتعارض تماما مع فلسفة الاستعمار الانجليزي : ذلك أن قضية نشر الدين كانت تأخذ مرتبة ثانوية في التوسع الاستعماري الانجليزي .

ومناطق السيطرة الاسبانية لم تكن في الواقع مستعمرات بالمعنى التقليدي لهذه الكلمة . فقد كانت إسبانيا الجديدة وبيرو ولايات وممالك تابعة لعرش قشتالة مثل باقي الممالك الإسبانية الأخرى .

وعلى العكس من ذلك فإن المستوطنات الانجليزية في انجلترا الجديدة وفي مناطق أخرى كانت مستعمرات بالمفهوم الكلاسيكي لهذا المصطلح ، أي جاليات مقيمة في أرض أجنبية ، مازالت محتفظة بالروابط الثقافية والدينية والسياسية التي تربطها بالوطن الأم . وهذا الفرق

في المواقف تلاءم مع الفرق في الظروف الثقافية التي وجدها كل من الانجليز والإسبان : هنود بدو وحضر ، ومجتمعات بدائية وأخرى متحضرة .

ولعل سياسة إسبانيا القائمة على الإخضاع واعتناق الديانة الجديدة ماكان يمكن أن تطبق مع الأمم الهندية المحاربة في الشمال بنفس السهولة التي طبقت بها مع الشعوب الحضرية في أمريكا الوسطى ، وذلك على نحو ماتبين بعد ذلك بحوالي قرن من الزمان عندما امتد الفتح الإسباني إلى أراضي البدو في المنطقة التي تمثل حاليا شمال المكسيك وجنوب الولايات المتحدة . إن نتائج هذه المجموعات المزدوجة المتناقضة من الظروف كانت جد حاسمة ، فبدونها ماصارت بلادنا (أي المكسيك والولايات المتحدة) إلى ماهي عليه الآن .

لقد قضى الإسبان على الطبقات الرائدة في أمريكا الوسطى ، وبالأخص طبقة رجال الدين ، أي أنهم قضوا على ذاكرة المغلوبين وعلى عقلهم . أما الطبقة الإرستقراطية المحاربة التي نجت من الهدم فقد ذابت في جماعات النبلاء والكنيسة والبيروقراطية . وكان للسياسة الإسبانية تجاه الهنود نتيجة مزدوجة : فمن جهة جعلوا منهم طبقة خادمة ، ومن ثم تحولوا إلى يد عاملة رخيصة ، وأصبحوا يمثلون قاعدة المجتمع الطبقي الإسباني الجديد ، ومن جهة أخرى فإنهم بتحولهم إلى المسيحية ظلوا يعيشون حياة متدهورة بالرغم من انتشار الأوبئة ، وكانوا جزءا لا يتجزأ من الأمة المكسيكية المستقلة .

إن الهنود هم عظم المكسيك ، وهم حقيقته الأولى والأخيرة

وينبغي أن نضيف إلى هذا الهجين العنصري هجينا آخر دينيا وثقافيا . فالمسيحية التي جاء بها الإسبان إلى المكسيك كانت هي الكاثوليكية الرومانية الجامعة بين النقائض ، والتي استوعبت آلهة الوثنية وحولتهم إما إلى قديسين أو شياطين .

وهذه الظاهرة تكررت في المكسيك : فالأصنام تم تعميدها ، كما أن العقائد القديمة والآلهة مازالت حاضرة في الكاثوليكية الشعبية المكسيكية وإن كانت مغطاة بغشاء من المسيحية . فالعنصر الهندي يختلط لا بالدين الشعبي للمكسيك فقط وإنما بحياة المكسيكيين بقضها وقضيضها ؛ في الأسرة ، والحب ، والصداقة ، والموقف إزاء الأب والأم ، والأساطير الشعبية ، وطرق المجاملة والتعايش ، والمطبخ ، وصورة السلطة والقوة السياسية ، والنظرة للموت والجنس ، والعمل والحفلات .

فالمكسيك هي أكثر بلاد أمريكا اللاتينية تأثرا بالنمط الإسباني ، كما أنها في الوقت نفسه الأكثر هندية . إن حضارة أمريكا الوسطى ماتت موتا عنيفا ، ولكن المكسيك هي المكسيك بفضل الحضور الهندي بها . وبالرغم من أن اللغة والدين والنظم السياسية والثقافة في المكسيك ذات طابع غربي فإن بالمكسيك خطا يتطلع نحو جانب آخر هو الجانب الهندي . فنحن شعب واقع بين حضارتين وبين ماضيين . أما الولايات المتحدة فلا يظهر فيها البعد الهندي وهذا ـ في رأيي ـ هو الفرق الأكبر بين البلدين . فالهنود الذين لم تتم إبادتهم تم التحفظ عليهم في أماكن خاصة . ذلك أن الرعب المسيحي ضد « الطبيعة الساقطة » قد امتد إلى أهل أمريكا الأصليين ، وبذلك تكون الولايات المتحدة قد قامت على أرض بدون ماض . ومن ثم فإن الذاكرة التاريخية للأمريكيين ليست أمريكية وإنما هي أوروبية .

ولهذا فإن إحدى الاتجاهات القوية المستمرة في الأدب الأمريكي ، من ويتمان إلى وليم تشارلز وليم ومن ملفيل إلى فوكنر ، هي البحث عن (أو اكتشاف) الجذور الأمريكية . إنها رغبة الحلول ، والشغف بالضرب في جذور الأرض الأمريكية . ونحن ندين لهذا الاتجاه بعض الأعمال الأدبية المهمة في العصر الحديث .

أما وضع المكسيك ، أرض الأزمنة الماضية المتراكبة ، فهو بالتحديد عكس ذلك . فمدينة المكسيك أقيمت على أنقاض المكسيك ـ تينوشتتلان ، مدينة الأستيك ، التي أقيمت بدورها على مثال تولا ، مدينة التولتيك ، التي كانت قد تأسست هي الأخرى على مثال تيوتهواكان Teotihuacàn ، أول مدينة كبيرة في القارة الأمريكية .

وهذا التواصل على مدى ألفي عام مازال حاضرا في كل مكسيكي . ولا يهم أن يكون هذا الحضور كامناً في الغالب في اللاشعور ، وأن يتخذ شكل الأسطورة الساذج أو حتى شكل الخرافة . إنه ليس مجرد معرفة وإنما هو معايشة . وحضور العنصر الهندي يعني أن أحد أجزاء الثقافة المكسيكية ليس غربيا . فهل يوجد مايشبه ذلك في الولايات المتحدة؟

إن كل واحدة من المجموعات العنصرية التي تشكل الديموقراطية المتعددة الأجناس ، التي هي الولايات المتحدة ، تملك ثقافتها الخاصة وتقليدها الخاص ، وبعض هؤلاء ـ مثل الصينيين واليابانيين ـ ليسوا غربيين . فهذه التقاليد تتعايش مع التقليد المركزي الأمريكي دون أن تنصهر فيه . وأبرزها حالة الشيكان Chicanos ـ أن تدافع الأقليات عن تقاليدها ضد أو إزاء التقليد الأمريكي . إن مقاومة الشيكان ليست سياسية واجتماعية فقط وإنما هي ثقافية .

في الداخل والخارج :

لو كان في الاستطاعة أن ندين في كلمتين الموقفين المختلفين للكاثوليكية الإسبانية وللبروتستانتية الانجليزية لقلنا إن الموقف الاسباني كان تضمينيا **Inclusiva** والموقف الانجليزي كان احتكاريا **Exclusiva** .

ففي الموقف الأول نجد أن كلمتي الفتح والسيطرة مرتبطتان بكلمتي الردة والذوبان ، وفي الثاني نجد أن الفتح والسيطرة لا يعنيان ردة المغلوب (أي اعتناقه للدين الجديد) وإنما يتضمنان انفصاله .

والمجتمع التضميني القائم على مبدأ السيطرة والردة كان لابد أن يصبح مجتمعا طبقيا مركزيا يحترم خصوصيات كل مجموعة ، أي تقسيم صارم للطبقات والمجموعات ، كل طبقة محكومة بقوانين ولوائح خاصة ، والجميع يؤمنون بدين واحد ويطيعون سيدا واحدا .

أما المجتمع الاحتكاري فكان لابد أن ينفصل عن أهل البلاد الأصليين ، سواء بالاستبعاد الجسدي أو بالإبادة ، وفي الوقت نفسه فإنه بالنظر إلى أن كل جماعة كانت تشكل رابطة من الناس الخُلّص بمنأى عن الجماعات الأخرى ، فإن المساواة كانت هي العامل السائد بين كل جماعة وأخرى ، كما كان ثمة استقلال وحرية لدى كل مجموعة من المؤمنين . وبذلك فإن أصول الديموقراطية الأمريكية دينية ، وفي الجماعات الأولى التي سكنت إنجلترا الجديدة ظل حاضراً ذلك التوتر المزدوج المتناقض بين الحرية والمساواة ، الذي ظل شعاراً لتاريخ الولايات المتحدة .

وهذا التعارض الذي أشرت إليه في السطور السابقة مباشرة يعبر عن نفسه بوضوح في مصطلحين دينيين هما القربان المقدس **Comunion** والصفاء **Pureza** . وقد طبع هذا التعارض بعمق على الموقف إزاء العمل ، والاحتفال ، والجسد ، والموت . فبالنسبة لمجتمع إسبانيا الجديدة نجد أن العمل لا يؤدي إلى الخلاص وليست له قيمة في ذاته . فالعمل اليدوي فيه عبودية . والإنسان الأعلى لا يعمل ولا يتاجر وإنما يحارب ويأمر ويشرِّع . كما أنه أيضا يفكر ويتأمل ويحب ويتغزل ويتسلى . ووقت الفراغ شيء نبيل . أما العمل فحسن لأنه ينتج ثروة ، ولكن الثروة حسنة ، لأنها مقدرة للصرف والاستهلاك في تلك المذابح المتمثلة في الحروب ، وإنشاء المعابد والقصور ، والترف والحفلات . إنها أشكال

مختلفة لتبديد الثروة : فالذهب يلمع في مذابح الكنائس أو ينثر في الحفلات . وفي المكسيك نجد أن العمل مازال حتى الآن ، على الأقل في المدن الصغيرة وفي القرى ، مقدمة للحفلة . والعام يدور حول المحور المزدوج للعمل والحفل أو التجميع والصرف . والحفلة تكون في وقت واحد فاخرة وجادة ، حية وميتة . إنها حالة هيجان حيوي متعدد الألوان يتبدد في دخان ورماد ولا شيء . هي إذن جمالية الخسارة : فالحفلة مسكونة بالموت .

أما الولايات المتحدة فلم تعرف في الحقيقة فن الحفلة ، باستثناء السنوات الأخيرة التي انتصرت فيها التلذذية على الأخلاق البروتستانتية القديمة . وهذا شيء طبيعي ؛ فمجتمع كان يؤكد بحماس شديد على القيمة الخلاصية للعمل كان لابد أن يجرب في شيء من المجون عبادة الحفلة والانبهار بالتبذير .

لقد كانت الإدانة البروتستانتية دينية أكثر منها اقتصادية . ولكن الضمير المتزمت لم يكن يستطيع أن يتصور أن قيمة الحفلة كانت بالتحديد قيمة دينية هي القربان المقدس . ففي الحفلة نجد العنصر الأحمر هو الشيء المركزي ؛ إنه عودة إلى الأصل ، عودة إلى الحالة الأولية ، التي ينصهر فيها كلُّ واحدٍ بالكل الأكبر . وكل حفلة حقيقية تكون دينية لأن كل حفلة فيها قربان وفيها صفاء .

وبالنسبة للخلَّص (المتزمتين) وورثتهم فإن العمل فيه خلاص لأنه يحرر الإنسان ، وهذا التحرر فيه إشارة إلى الاختيار الإلهي . فالعمل تطهير وهو في الوقت نفسه انفصال ، والمختار يصعد ، ويقطع روابطه مع الأرض ، التي هي قوانين السقوط . وعند المكسيكيين نجد أن القربان يمثل بالضبط العكس ؛ فهو لا يعني الانفصال وإنما المشاركة ، لا يعني القطع وإنما الالتحام ، والاختلاط الكوني الأكبر ، والاستحمام الكبير في مياه البدء ، إنه حالة تذهب لأبعد من الصفاء أو عدم الصفاء .

إن وضع الجسم في المسيحية وضع أسفل . ولكن الجسم قوة نشطة دائما ، وانفجاراته يمكن أن تهدم حضارة بأكملها . ولهذا فإن الكنيسة قد تحالفت ، بدون شك ، منذ البداية مع الجسم . وهي وإن لم تضعه في المكان الذي كان يشغله في المجتمع الإغريقي الروماني فإنها حاولت أن تعيد له كرامته ، فالجسم « طبيعة ساقطة » ولكنه ، في نفسه ، بريء :

وبعد كل شيء فإن المسيحية ، على عكس البوذية ، هي دين الإله المجسد ، وقضية البعث معاصرة للمسيحية الأولى ، وقد ظهرت متأخرة خلال العصر الوسيط ، عبادة العذراء وكلتا العقيدتين هما التعبير الأسمى عن هذه الرغبة في التجسيد لدى الروحانية المسيحية . وكلتاهما انتقلت إلى أمريكا الوسطى بصحبة الثقافة الإسبانية ، وانصهرتا بسرعة ، أولاهما مع الطقوس الجنائزية للهنود ، والثانية مع عبادة آلهة الخصب والحرب .

إن تصور الموت لدى المكسيكيين المحدثين ، التي هي في الوقت نفسه أمل البعث ، مشوبة بعقيدة الحشر والنشر الكاثوليكية ، فضلا عن التصور الطبيعي الهندي . والموت المكسيكي موت جسدي ، وهو يمثل بالضبط عكس الموتَ الأمريكي ، الذي هو موت مجرد لا حلول فيه . فعند المكسيكيين نجد أن الموت يرى ويلمس ، إنه الجسد وقد خرجت منه الروح ، ومجموعة العظام التي لا بد وأن تزهر من جديد على نحو ما ، مثلما يرد في إحدى القصائد المنسوبة لجماعة الأستيك . أما عند الأمريكيين فالموت هو ما لايرى ، إنه غياب الشخص واختفاؤه .

وفي الضمير المتزمت (الملتزم بأمور الدين التزاما صارما) كان الموت حاضرا دائما ، ولكنه حضور غير جسدي ، وكيان أخلاقي وفكرة . وفيما بعد أفرغ النقد العقلاني العلمي للمسيحية الموت من الضمير الأمريكي . فالموت قد تبخر وأصبح شيئا لا يذكر . وأخيرا فإن العقلانية والمثالية التقدمية قد حلت محلها تللذذية جديدة لدى جماهير واسعة من الشعب الأمريكي في أيامنا هذه . ولكن عبادة الجسد واللذة تتضمن الاعتراف بالموت وقبوله . فالجسد فان ومملكة اللذة هي اللحظة ، وفقا لما رآه فيلسوف مذهب اللذة أبيقور Epicuro .

إن التللذذية الأمريكية لا تقفل العينين أمام الموت ، وقد بدت غير قادرة على تفادي القوة الهدامة للحظة بما تحمله من حكمة تشبه حكمة الأبيقوريين القدامى . إن التللذذية الحالية تتجاهل القناعة ؛ إنها وسيلة المكروبين واليائسين ، وهي التعبير عن العدمية التي تجتاح الغرب .

إن الرأسمالية تشجع الأنشطة والتصرفات التي تأخذ عادة صفة الرجولة مثل العدوانية ، وروح المنافسة والتنافس ، والمضاربة ، وقد تبنى المجتمع الأمريكي هذه القيم

وأعلى من شأنها . ولعل هذا يفسر كيف أنه لا يظهر شيء يشبه عبادة المكسيكيين لعذراء جوادا لوبي في الشروح المختلفة للمسيحية التي يعتنقها الأمريكيون ، حتى وإن لم نستبعد الأقلية الكاثوليكية . ففي العذراء تتلاق النزعة الدينية لمنطقة البحر المتوسط مع النزعة الدينية في أمريكا الوسطى ، وكلاهما مشوب بطقوس قديمة جدا كانت تقدس آلهة نسائية . إن جوادالوبي تونانزين هي أم كل المكسيكيين — الهنود والمولدين والبيض — ولكنها أيضا عذراء محاربة ، وكثيرا ماتصور على رايات الانتفاضات التي يقوم بها الفلاحون . فعذراء جوادالوبي تجسد رؤية قديمة جدا عن الأنوثة ، وهي مثل الإلهات الوثنية ، لا تخلو من المزاج البطولي .

وقفة : ليس معنى حديثي عن « ذكورة » المجتمع الرأسمالي الأمريكي أني إتجاهل أن النساء فيه حصلن على حقوق ومواقع مازالت مرفوضة بالنسبة لهن حتى الآن في أطراف أخرى . ولكنهن حصلن عليها بصفتهن « موضعا لحق » ، أي على أنهن هيئة محايدة أو مجردة ، كمواطنات وليس كسيدات .

والآن فإن حضارتنا تحتاج إلى شيء يضارع المساواة في الحقوق بين الرجال والنساء أو يزيد عليها ، وهو « عملية تأنيب » تشبه ذلك الذي حدث في العقل الأوروبي في العصر الوسيط بفعل ماكان يسمى « الحب العذري » . أو تأثير مثل الإشعاع الأنثوي لعذراء جوادالوبي على مخيلة المكسيكيين وإحساسهم .. وأواصل الكلام : إن الوضع الاجتماعي للمرأة المكسيكية محزن بسبب الميراث الاسباني — العربي والهندي ، ولكن ما أريد أن أبرزه هنا ليس هو طابع العلاقات بين الرجال والنساء بقدر ماهو العلاقة الحميمة للمرأة بتلك الرموز الإيحائية التي نطلق عليها « الأنوثة » و « الذكورة » .

إن نساء المكسيك ، للأسباب التي أشرت إليها سلفا ، لديهن وعي حي جدا بالجسم . فعندهن نجد الجسم ، جسم المرأة وجسم الرجل ، حقيقة محددة نابضة . إنه ليس تجريدا ولا وظيفة وإنما هو قوة مبهمة مغناطيسية ، تتلاق فيها اللذة والألم ، وكذلك الخصوبة والموت .

الماضي والمستقبل :

إن المكسيك فيما قبل الاكتشاف كانت خليطا من الأمم والقبائل واللغات . وكانت

إسبانيا ، بدورها ، بالرغم من تحقيق وحدتها السياسية ، عبارة عن مجموعة من الأمم والشعوب . وكان عدم تجانس المجتمع المكسيكي هو الوجه الآخر للمركزية الإسبانية . وكانت المركزية السياسية للمملكة الإسبانية تتخذ مكملا لها بل حتى أساسا لها من الالتزام بأصول الدين . أما الوحدة الحقيقية المؤثرة للمجتمع المكسيكي فقد تحققت ببطء بمرور عدة قرون ولكن وحدتها السياسية والدينية تم تحقيقها من القمة ، وكأنها تعبير مشترك عن المملكة الإسبانية وعن الكنيسة الكاثوليكية . لقد أصبح عندنا دولة وكنيسة قبل أن نصير أمة . وكان تطورنا أيضا في هذا الجانب مختلفا تمام الاختلاف عن تطور الولايات المتحدة ، حيث كانت الجماعات الصغيرة في المستوطنات تملك وعيا كاملا بهويتها منذ البداية إزاء الدولة . وبذلك تكون الأمة سابقة على الدولة عند الأمريكيين .

وهناك فرق آخر هو أن تلك الجماعات حدث فيها مزج بين العقائد الدينية وبين الوعي الوطني الوليد وبين النظم السياسية . وهكذا فإنه لم يحدث تناقض بين العقائد الدينية للأمريكيين وبين نظمهم الديموقراطية بل حدث اتساق ، على عكس ماحدث في المكسيك ، إذ ارتبطت الكاثوليكية بالنظام التابع للملك ، وكانت هي المدافعة عنه ، ولهذا عندما حاول الليبراليون المكسيكيون ، بعد الاستقلال ، إقامة مؤسسات ديموقراطية اضطروا لمواجهة الكنيسة الكاثوليكية . إن إقامة ديموقراطية الجمهورية في المكسيك كان بمثابة انقطاع جذري مع ماضينا ، وقد أدى إلى نشوب الحروب الأهلية في القرن التاسع عشر . وقد تمخضت هذه الحروب عن النظام العسكري ، الذي انصب ، بدوره ، في دكتاتورية القائد العسكري بورفيريو دياث **Porfirio Diaz** . لقد انتصر الليبراليون على الكنيسة ، لكنهم لم يستطيعوا إقامة الديموقراطية الحقيقية ، وإنما جاء نظام متسلط يلبس قناع الديموقراطية .

وهناك فرق ثالث لا يقل عمقا ، وهو التعارض بين التزمت الكاثوليكي والإصلاحية البروتستانتية . ففي المكسيك كان الاتجاه الكاثوليكي المتشدد قد تبنى الشكل الفلسفي للتومائية الجديدة ، وهو فكر يقف موقف الدفاع في مواجهة الحداثة الوليدة كما أنه تبريري أكثر منه نقدي . وهذا التزمت كان يقف حائلا دون الفحص والنقد . أما في إنجلترا الجديدة فكانت الجماعات مكونة في كثير من الأحيان من أناس انشقوا على الدين أو على الأقل من مؤمنين قرأوا الكتاب المقدس قراءة حرة فاحصة . إذن فقد كانت هناك من جهة نزعة تزمت ، وفلسفة قاعدية جامدة (دوجماطية) وتقديس للسلطة ، وكانت هناك في الجهة الأخرى قراءة حرة وتفسير حر للمذهب .

إن كلا المجتمعين كان دينيا ، ولكن المواقف الدينية لدى كل منهما كانت غير متوافقة . ولست أتحدث فقط عن القواعد والأسس وإنما عن طريقة ممارسة الدين نفسه وفهمه .

ففي إحدى الحالتين نجد بناء من المفاهيم الدينية معقدا فاخرا ، ودرجات كنسية لا تقل تعقيدا ، وأوامر دينية محية مفروضة على الناس مثل اليسوعيين ، ومفهوم طقوسي تشغل فيه الأسرار الكنسية مكانا رئيسيا . وفي الحالة الأخرى نجد مناقشات حرة للكتاب المقدس ، وطبقة رجال دين فقيرة وقليلة العدد جدا ، واتجاه لإلغاء حدود الدرجات بين المؤمن العادي والراهب ، وممارسة دينية لا تقوم على الطقوس وإنما على الأخلاق ، ولا تقوم على الأسرار وإنما على استبطان الإيمان .

أما الفرق الرئيسي ، من وجهة نظر التطور التاريخي لكلا المجتمعين ، فيكمن ، حسب رؤيتي ، فيما يلي : إن العالم الحديث قد بدأ بعصر الإصلاح ، وهو نقد ديني للدين وسابقة لازمة لعصر التنوير ، لكن إسبانيا وممتلكاتها انغلقت على العالم الحديث بتبنيها للحركة المضادة للإصلاح وللتومائية الجديدة . ولم يكن لدينا عصر تنوير لأننا لم يكن لدينا حركة إصلاح ولا حركة ثقافية ودينية تشبه الينسينية **Jansenismo** الفرنسية . إن الحضارة الإسبانية الأمريكية تثير الإعجاب في عدة جوانب ، ولكنها تجعلك تفكر في أن ذلك البناء الشديد الصلابة ــ كالمعبد أو القلعة أو القصر ــ قد شيد ليستمر لا ليغيَّر . وعلى المدى الطويل يصبح هذا البناء معقلا وسجنا . أما الولايات المتحدة فوليدة حركة الإصلاح وعصر التنوير . لقد ولدت تحت مظلة النقد والنقد الذاتي . ومعلوم أن من يقول بالنقد يقول بالتغيير . إن تحويل الفلسفة النقدية إلى إيديولوجية تقدمية قد تحقق وبلغ الذروة في القرن التاسع عشر . والنقد العقلاني كنس السماء الإيديولوجية ونظفها من الأساطير والمعتقدات . كما أن إيديولوجية التقدم حلت محل القيم اللازمنية للمسيحية ، وجعلتها أرضية ومتشابكة مع التاريخ في وقت واحد . وغدا الخلود المسيحي بمثابة مستقبل للتطورية الليبرالية .

والفرق الأخير هو التناقض النهائي ، وفيه تجتمع كل الاختلافات والفروق التي ذكرتها فيما سبق . إن أي مجتمع يتحدد جوهريا بوضعه إزاء الزمن . والولايات المتحدة ، بسبب من أصلها وتاريخها الثقافي والسياسي ، مجتمع متجه نحو المستقبل . وكثيرا ما أشير إلى الشعب الأمريكي بتحركه الخارق نحو الفضاء الخارجي . إنها أمة في سير متواصل . وهذا الانتقال الجسدي والجغرافي يتوافق مع الحركة في الزمن في مجال العقائد والمواقف الذهنية . فالأمريكي يعيش على شفا اللحظة ، وهو مستعد دائما للقفز نحو المستقبل . وأساس الأمة

ليس في الماضي وإنما في المستقبل . أو بتعبير أصح فإن ماضيه وميثاق قيامه كان وعدا بالمستقبل ، وفي كل مرة تعود فيها الولايات المتحدة إلى أصلها ، وإلى ماضيها تعيد اكتشاف المستقبل .

أما توجه المكسيك ، كما رأينا ، فكان عكس ذلك . فهي أولا قد رفضت النقد ، وبذلك تكون قد رفضت عملية التغيير ، وكان المثال عندها هو الاستمرار على صورة الألوهية التي لا تتغير . وهي ثانيا جماع أزمنة ماضية ، كلها حاضرة ومتصارعة في نفس كل مكسيكي . فكورتيس وموكتيسوما مازالا حيين في المكسيك . وفي لحظة تلك الأزمة الكبرى المتمثلة في الثورة المكسيكية ، كانت الطائفة الأكثر راديكالية ، طائفة ثاباتا Zapata وفلاحوه ، لا تقدم أشكالا جديدة للتنظيم الاجتماعي وإنما كانت عودة إلى الملكية الجماعية للأرض . فالفلاحون المتمردون كانوا يطالبون بإعادة الأرض ، أي كانوا يريدون العودة إلى شكل الملكية السابق على عصر الاكتشاف ، وهو الذي حافظ عليه الإسبان عند دخول البلاد . والصورة الغريزية التي كان الثوار يتخيلونها عن العصر الذهبي كانت تعود للماضي البعيد . واليوتوبيا عندهم لم تكن تتمثل في إقامة المستقبل ، وإنما في العودة إلى الأصل ، إلى البداية . لقد عبر رامون لوبيث فيلاردي عن الموقف التقليدي المكسيكي إزاء الزمن بهذه الطريقة : « ياوطني » ، كن دائما على نمط واحد ، مخلصا لمرآتك اليومية » .

وفي القرن السابع عشر كان المجتمع المكسيكي أكثر غنى ورخاء من المجتمع الأمريكي . وقد استمر هذا الوضع حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر . ولكي نتحقق من ذلك يكفي أن نلقي نظرة على آثار ومباني المدن في ذلك الحين مثل المكسيك وبوسطون ، وبويبلا وفيلادلفيا . وفي أقل من خمسين عاما تغير كل شيء . ففي عام ١٨٤٧ غزت الولايات المتحدة المكسيك ، وهزمتها ، وفرضت عليها شروط سلام قاسية وباهظة . وبعد ذلك بقرن أصبحت الولايات المتحدة القوة العالمية الأولى .

إن مجموعة خارقة للعادة من الظروف ذات الطابع المادي والتقني والسياسي والإيديولوجي والإنساني تفسر ذلك التطور الأمريكي المعجز . من هذه الظروف مجموعة المواقف التي شرحتها باختصار وهي لم تكن أقل تأثيرا من وجود أرض شاسعة خصبة ، وشعب مؤهل ، وتنمية علمية وتقنية خارقة للعادة . ومرة أخرى فإن المستقبل كان بذرة في الجماعات الدينية الصغيرة بإنجلترا الجديدة ، حيث الديموقراطية السياسية ، والرأسمالية والتطور الاجتماعي والاقتصادي .

وثورة استقلال الولايات المتحدة لم تكن انقطاعا مع ماض ولا كان الانفصال عن إنجلترا من أجل استبدال مبادىء أخرى بالمبادىء الأصلية ، بل كان من أجل تحقيقها بصورة أكثر اكتمالا . أما في المكسيك فقد حدث عكس ذلك . ففي نهايات القرن الثامن عشر اكتشفت الطبقات الحاكمة المكسيكية ــ وبالأخص المثقفون ــ أن الأسس التي كان قد قام عليها المجتمع تحكم عليه بالثبات والتأخر . ومن ثم فقد قاموا بثورة مزدوجة : انفصلوا عن إسبانيا وحاولوا تحديث البلاد من خلال تبني مبادىء جديدة جمهورية وديموقراطية . وكان مثلهم في ذلك ثورة الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية . وقد استقلوا عن إسبانيا بالفعل ، ولكن تبني المبادىء الجديدة لم يثمر : ذلك أن المكسيك لم تغير إلا قوانينها ، أما أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فقد ظلت كما هي .

وخلال النصف الأول من القرن العشرين قاست المكسيك من حرب أهلية وبائية ، ومن غزوتين أجنبيتين هما الغزو الأمريكي والغزو الفرنسي . وفي النصف الثاني من ذلك القرن عاد النظام ، لكن على حساب الديموقراطية . وأسوأ شيء تمثل في الكذب ، وهو آفة مجتمعات أمريكا اللاتينية ، ذلك أنه باسم الإيديولوجية الليبرالية ووضعية كانت وسبنسر قامت دكتاتورية استمرت ثلاثين عاما . كانت فترة سلام وتنمية عادية ملحوظة ، كما زاد خلالها تغلغل الرأسمالية الأجنبية الكبرى وبالأخص الانجليزية والأمريكية .

وقد حاولت ثورة ١٩١٠ تصحيح المسار ، وحققت جزءا من ذلك . وأنا أقول جزءا لأن الديموقراطية المكسيكية ليست حقيقة حتى الآن ، ولأن المكتسبات التي تم إحرازها في بعض القطاعات انتهت أو غدت في خطر بسبب المركزية السياسية المتطرفة ، والزيادة المنفلتة في عدد السكان ، وانعدام المساواة الاجتماعية ، وتدهور التعليم العالي وتصرف عمليات الاحتكار الاقتصادية ومن بينها الأمريكية .

إن نمو الدولة المكسيكية ، مثل نمو كل الدول في القرن العشرين ، كان هائلا ومرعبا . وثمة تناقض عجيب ، فالدولة التي كانت صانعة التحديث لم تكن قادرة على تحديث نفسها بشكل كامل . إنها هجين من الدولة الشمولية الإسبانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن بيروقراطيات الغرب الحديثة . وبالنسبة لعلاقتنا مع الولايات المتحدة نجد أنها مازالت هي نفس العلاقة القديمة بين القوي والضعيف ، وهي تتراوح بين اللامبالاة

والتعسف ، والكذب والوقاحة . وأغلبنا نحن المكسيكيين لدينا اقتناع له مايبرره بأن المعاملة التي تلقاها بلادنا غير عادلة .

التعارض المزدوج :

بصرف النظر عن المكاسب والخسائر ، فإن المكسيك المعاصرة تواجه نفس السؤال ، الذي لم يتوقف عن طرحه ، منذ نهايات القرن الثامن عشر ، المكسيكيون الأكثر تنويرا ، والسؤال يدور حول الحداثة . ففي القرن التاسع عشر اعتقد المكسيكيون أنه يكفي تبني المبادىء الليبرالية والديموقراطية الجديدة . والآن بعد حوالي قرنين من التنكب ، انتبهنا إلى أن الشعوب تتغير ببطء شديد ، وأنه لكي تكون هذه التغييرات خصبة لابد أن تكون متوافقة مع ماضي كل أمة وتراثها . وبهذا فإنه ينبغي على المكسيك أن تجد طريقها الخاص نحو الحداثة . وماضينا يجب ألا يكون عقبة بل نقطة انطلاق . وهذا أمر في غاية الصعوبة نظرا لطبيعة تراثنا ، إنه صعب لكنه ليس مستحيلا ، وقد كان هذا بالفعل هو المعنى العميق للثورة المكسيكية ، فقبلنا بكثير قام فلاّحو ثاباتا Zapata بنقد الحداثة على طريقتهم . فعلوا ذلك بالسلاح . ولكي نتجنب نكسات أخرى ينبغي أن نتصالح مع ماضينا ، فبهذا فقط سوف نستطيع إيجاد مخرج نحو الحداثة .

إن البحث عن نموذج خاص للحداثة موضوع متصل مباشرة بموضوع آخر ، فنحن نعرف اليوم أن الحداثة ، في صورتيها ، الرأسمالية واشتراكية البيروقراطيات الشمولية ، مجروحة حتى الموت في مركزها نفسه ، أي في فكرة التقدم المتواصل وبلا حدود . والأمم التي ألهمت ليبراليّي القرن التاسع ـــ انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة خاصة ـــ تعيش حاليا في شك وتذبذب ولا تجد طريقها . وقد كان مكسيكيو القرن التاسع عشر يوجهون أنظارهم نحو الديموقراطيات الكبيرة في الغرب ، أما نحن فلا نجد الآن مانوجه أنظارنا نحوه .

وخلال مايقرب من ثلاثين سنة ، فيما بين عامي ١٩٣٠ و١٩٦٠ كانت غالبية المكسيكيين متأكدة من الطريق الذي اختارته . وهذه التأكيدات قد تلاشت ، حتى أن البعض يتساءلون : هل علينا أن نبدأ كل شيء من جديد . ولكن السؤال لا يقتصر على حالة المكسيك ، إنه وضع عالمي . فوضع بلدنا وإن بدا لنا غير مُرض إلا أنه ليس مقنطا ،

وخاصة إذا قارناه بالوضع السائد في أماكن أخرى . فأمريكا اللاتينية ، ماعدا استثناءات قليلة ، تعيش تحت ظل دكتاتوريات عسكرية مستورة ، إن لم تكن مؤيدة من قبل الولايات المتحدة . لقد هربت كوبا من الوصاية الأمريكية كي تتحول إلى عميل لسياسة العدوان العسكري للاتحاد السوفييتي في أفريقيا . والجزء الأكبر من أمم آسيا وأفريقيا ، التي حصلت على استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية ، تعاني من حكومات ظالمة متسلطة من أبناء البلد ، وهم عادة مايكونون أكثر عنفا واستبدادا من سلطات القوى الاستعمارية القديمة . وفيما يسمى « العالم الثالث » بأسمائه وصفاته المختلفة ، يحكم كاليجولا في كل مكان .

وفي عام ١٩١٧ أشعلت ثورة أكتوبر في روسيا آمال الملايين ، أما في عام ١٩٧٨ فقد أصبحت كلمة جولاج Gulag مرادفا للاشتراكية السوفييتية . إن مؤسسي الحركة الاشتراكية كانوا يعتقدون في يقين أن الاشتراكية لن تقضي على استغلال الناس فقط ، وإنما هي على الحرب أيضا ، وفي النصف الثاني من القرن العشرين لم يجعل الاشتراكيون الشموليون من الطبقة العاملة عبيدا فقط وقد جردوها من حقوقها الرئيسية مثل حق التجمع وحق الإضراب ، وإنما يغطون الكرة الأرضية بكاملها بالصيحات التهديدية الصادرة عن معاركهم ومشاجراتهم . فباسم تفسيرات مختلفة للاشتراكية يقطع الفيتاميون والكامبوتشيون رقاب بعض .

إن الحروب الإيديولوجية في القرن العشرين لا تقل قسوة عن حروب الدين . وفي شبابي كانت تشيع بين المثقفين فكرة أننا نشهد الأزمة النهائية للرأسمالية . لكننا الآن ندرك أن الأزمة المعاصرة ليست أزمة نظام اجتماعي — اقتصادي وإنما هي أزمة الحضارة بأكملها . فالأزمة عامة وعالمية ، وتعبيرها الأكثر تطرفا وحدَّة وخطرا يكمن في وضع الاتحاد السوفييتي والدول الدائرة في فلكه . فتناقضات الاشتراكية الشمولية أكثر عمقا وتنائيا من تناقضات الديموقراطيات الرأسمالية .

إن مرض الغرب أخلاقي أكثر منه اجتماعي واقتصادي . صحيح أن المشاكل الاقتصادية خطيرة ولم تحل ، بل على العكس زاد التضخم وتضاعفت البطالة . وصحيح أيضا أنه بالرغم من الوفرة فإن الفقر لم ينته . ولكن الشقاق الحقيقي والأكثر عمقا يكمن في روح كل فرد . فالمستقبل أصبح منطقة رعب والحاضر غدا صحراء . فالمجتمعات الليبرالية تدور

دون كلل ، لا تتقدم وإنما تكرر نفسها . وإذا تغيرت فإن شكلها يظل كما هو . إن تلذذية الغرب هي الوجه الآخر لقنوطه ، ونزعته الشكِّية ليست حكمة وإنما هي تنازل ، وعدميته تصب في الانتحار وفي أشكال سفلى للتصديق ، مثل اتجاهات التعصب السياسية وأوهام السحر . والفراغ الذي تركته المسيحية في الأرواح الحديثة لم تملأه الفلسفة ، بل ملأته الخرافات الشديدة الابتذال . والاتجاه الجنسي مجرد تقنية ، لأنه ليس فنًا ولا عاطفة .

ولن أقف كثيرا عند هذه النقطة . إن وصف سيئات الغرب قد تم تناوله كثيرا . وآخره كان منذ عدة شهور وهو وصف سولينتزين Solyenitzine . وهو رجل ذو مزاج يثير الإعجاب . ومع ذلك فينبغي أن أقول إنه بالرغم من أن هذا الوصف يبدو لي صحيحا ، فإن رأيه حول أسباب المرض واقتراح طرق العلاج لا تبدو لي كذلك . إننا لا نستطيع أن نتنازل عن التراث النقدي للغرب ، كما لا يمكن العودة إلى الدولة الثيوقراطية للعصر الوسيط .

إن معتقلات محاكم التفتيش ليست هي الرد على مراكز اعتقال جولاج Gulag . ولا تستحق العناء عملية استبدال الحزب ـ الدولة بالحزب ـ الكنيسة ، أي استبدال صرامة بأخرى . والسلاح الوحيد الفعال ضد القواعد الصارمة هو النقد ، فلكي ندافع عن أنفسنا ضد عدم التسامح والتعصب ليس أمامنا وسيلة إلا أن نمارس ، بإصرار لكن مع تنوير ، القيم المعارضة ؛ أي التسامح وحرية الروح . وأنا لا أعدل بذلك عن طريق مونتسكيو ولا هيوم ولا كانت .

إن أزمة الولايات المتحدة تؤثر على أساس الأمة نفسه ، أي على المبادىء التي تأسست عليها . وقد ذكرت من قبل أن شيئا يمضي على امتداد التاريخ الأمريكي ، منذ عصر المستعمرات النقية في إنجلترا الجديدة حتى أيامنا هذه ، وهو التوتر بين الحرية والمساواة . وعمليات الكفاح التي قام بها السود ، والشيكان ، والأقليات الأخرى ليست إلا تعبيرا عن هذه الازدواجية . ويوازي هذا التعارض الداخلي تعارض آخر خارجي ، هو أن الولايات المتحدة ماهي إلا جمهورية وماهي إلا إمبراطورية . وقد أشرت في مقال كتبته منذ عدة سنوات إلى أن أول هذين التناقضين (التناقض الداخلي بين الحرية والمساواة) تم حله في روما بإلغاء الحرية ، وكانت القيصرية في البداية حلا للمساواة ، وهو مثل كل

الحلول التي تفرض بالقوة انتهى أيضا بإلغاء المساواة . أما التناقض الثاني فقد أدى إلى تقويض أثينا ، أول جمهورية إمبريالية في التاريخ .

ولعله يكون غرورا مني إذا اقترحت حلولا لهذا التناقض المزدوج . فأنا أعتقد أن أي مجتمع يواجه أزمة ، عليه أن يوجه أنظاره بطريقة غريزية نحو أصوله ويبحث فيها لا عن إجابة وإنما عن علامة وعن إشارة . لقد كان المجتمع الأمريكي المستعمَر مجتمعا حرا ويتمتع بالمساواة لكنه كان محتكرا .

والولايات المتحدة وفية لأصولها سواء في سياستها الداخلية أو الخارجية ، ولذلك فإنها تتجاهل دائما الآخر . ففي الداخل تتجاهل الأسود والشيكانو أو البورتوريكينيو (نسبة إلى بويرتوريكو) ، وفي الخارج تتجاهل الثقافات والمجتمعات الهامشية . والآن تواجه الولايات المتحدة أعداء في غاية القوة ولكن الخطر الأخلاقي لا يأتي من الخارج وإنما من الداخل ، لا يأتي من موسكو وإنما من ذلك الخليط المكون من الصلافة والنفعية ، العمى والميكافيلية على المدى القصير ، التقلب والعناد ، وهي الأمور التي ميزت سياستها الخارجية في السنوات الأخيرة ، والتي تذكرنا في عجب بسياسة الدولة الأثينية في معاركها مع اسبرطة .

ولكي تنتصر الولايات المتحدة على أعدائها لا بد أن تنتصر على نفسها أولا ، بأن تعود إلى أصولها . لا لكي تكررها وإنما لتصححها ؛ فالآخر والآخرون ـــ الأقليات في الداخل والشعوب والأمم الهامشية في الخارج ـــ موجودون . ونحن لسنا أغلبية النوع البشري فقط وإنما كل مجتمع هامشي ، مهما زاد فقره ، يمثل تفسيرا فريدا وثمينا للإنسانية . وإذا أرادت الولايات المتحدة أن تستعيد نفسها لا بد أن تستعيد الآخرين : المستبعدين من جانب الغرب .

(١٩٧٨)

□ □ □

□ الفصل الثاني □

أمريكا اللاتينية والديموقراطية

التراث المضاد للحداثة :

إن العلاقة بين المجتمع والأدب ليست علاقة سبب وأثر . فالرابطة بين هذا وذاك هي في الوقت نفسه ضرورية ومتناقضة وغير متوقعة . فالأدب يعبر عن المجتمع ، وعندما يعبر عنه ، يغيره ، فيناقضه أو ينفيه . وعندما يصوره ، يكتشفه ، وهو إذ يكتشفه ، يبرز مافيه . والمجتمع لا يعرف نفسه في الصورة التي يقدمها له الأدب ، ومع ذلك فهذه الصورة الخيالية حقيقية ، إنها صورة المجهول الذي يسير بجانبنا منذ الطفولة ولا نعرف عنه شيئا ، اللهم إلا أنه ظلنا (أو لعلنا نحن ظله ؟) . فالأدب هو الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها المجتمع على نفسه .. لكن هذه الإجابة تكون في الغالب غير منتظرة ، فهو يرد على الظلام السائد في أحد العصور مثلا بالضوء السحري المنبعث من قلم شاعر مثل جونجورا (شاعر إسباني من القرن السابع عشر) أو شاعر مثل مالارميه (من شعراء الرمزية الفرنسية) ، كما يرد على الوضوح العقلي لعصر التنوير بالرؤى الليلية للرومانتيكية . وحالة أمريكا اللاتينية إنما هي مثل للتعقيد المتداخل للعلاقة بين التاريخ

خلال الفترة التى انصرمت من القرن الحالي ظهرت في أمريكا الإسبانية والبرازيل أعمال أدبية كثيرة بارزة ، وبعضها رائع بحق ، في الشعر وفي النثر الفني . ولكن هل تم التوصل إلى درجة مشابهة في المجال الاجتماعي والسياسي ؟

منذ نهايات القرن الثامن عشر قامت الجماعات الأرقى والأكثر نشاطا من شعوب أمريكا اللاتينية بحركة إصلاح اجتماعي وسياسي وثقافي . وهذه الحركة لم تنته حتى الآن ، بل تشعبت في اتجاهات مختلفة ، ليست متطابقة في كل الأحوال . وثمة كلمة واحدة تحدد بشيء من الإبهام ، كل هذه الاتجاهات المتناثرة ، هي « الحداثة » . وفي الوقت نفسه الذي كانت مجتمعات أمريكا اللاتينية تجتهد فيه لتغيير نظمها وعاداتها وطرق حياتها وتفكيرها ، كان الأدب الاسباني الأمريكي أيضا يجرب تغييرات لا تقل عمقا عن ذلك . إن تطور المجتمع وتطور الأدب كانا متوافقين ، لكنهما لم يكونا متوازيين ومن ثم جاءت النتائج مختلفة . وفي بعض الأحيان ، عندما أتناول هذا الموضوع أتساءل : هل الأدب اللاتيني الأمريكي حديث بالفعل ؟ وأجيب على نفسي ، نعم . إنه كذلك ، ولكن بطريقة خاصة ؛ ذلك أني قد لاحظت فيه غياب الفكر النقدي الذي قام عليه الغرب الحديث . وفي هذا الصدد أود اكتشاف النصف الآخر للموضوع : هل مجتمعات أمريكا اللاتينية الحالية تعتبر حديثة ؟ وإذا لم تكن كذلك أو كانته ولكن بطريقة تهجينية وغير مكتملة ، فلماذا ؟ ومن الواضح أن تأملي في هذا الصدد ليس له أهداف تنظيرية كبيرة ، كما أنه ليس فتوى . إنه مجرد رأي .

فمنذ حوالي قرنين أخذت تتراكم الأخطاء حول الحقيقة التاريخية لأمريكا اللاتينية . وحتى الأسماء التي تطلق عليها هي الأخرى ليست مضبوطة ، مثل أمريكا اللاتينية América Latina ، وأمريكا الإسبانية América Hispana ، وأمريكا الأيبيرية (نسبة إلى شبه جزيرة أيبيريا) Iberoamérica ، وأمريكا الهندية Indoamerica . فكل اسم من هذه الأسماء يترك جزءا من الحقيقة بدون تسمية .

كما أن البطاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ليست دقيقة هي الأخرى . فكلمة Subdesarrollo تحت التنمية ، مثلا ، يمكن أن تنطبق على الاقتصاد والتقنية ، لا على الفن والأدب والأخلاق أو السياسة . كما أن تعبير « العالم الثالث » أكثر إبهاما من كل ماسبق .

فهذه التسمية ليست غير دقيقة فقط ، وإنما هي خادعة ، فما هي الصلة بين الأرجنتين وأنجولا ، بين تايلاند وكوستاريكا ، بين تونس والبرازيل ؟ ذلك أنه بالرغم من امتداد السيطرة الأوروبية لمدة قرنين ، فإنه لا الهند ولا الجزائر ، مثلا ، حدث تغير في لغتهما ودينهما وثقافتهما . ويمكن أن نقول مثل ذلك عن أندونيسيا وفيتنام والسنغال ، وفي معظم المستعمرات الأوروبية القديمة في آسيا وأفريقيا . فالايراني والهندي والصيني ينسبون لحضارات مختلفة عن حضارة الغرب .

أما نحن أبناء أمريكا اللاتينية فنتحدث الإسبانية أو البرتغالية ، ونحن مسيحيون أو كنا مسيحيين ، وعاداتنا ، ونظمنا ، وفنوننا وآدابنا تأتي مباشرة من عادات ونظم وفنون وآداب إسبانيا والبرتغال . ولهذا كله فإننا نمثل طرفا للغرب في القارة الأمريكية ، والطرف الآخر هو المكون من الولايات المتحدة ومن كندا . ولكننا لا نكاد نؤكد أننا امتداد لأوروبا فيما وراء البحار ، حتى تقفز الفروق أمام النظر . إنها فروق عديدة وحاسمة بشكل خاص .

وأول هذه الفروق هو وجود عناصر غير أوروبية . ففي كثير من الأمم الأمريكية اللاتينية توجد عناصر هندية قوية ، كما توجد عناصر سوداء . ولا يستثني من ذلك إلا أورجواي والأرجنتين وتقريبا شيلي وكوستاريكا . أما الهنود فبعضهم من نسل الحضارات القديمة السابقة على اكتشاف المكسيك وأمريكا الوسطى وبيرو ، وبعضهم الآخر الأقل عددا هم بقايا التجمعات البدوية .

وهؤلاء وأولئك ، وبالأخص الأولون أثروا في صياغة مالدينا من حسّ ، وأثاروا مخيلة شعوبنا ، كما أن كثيرا من جوانب ثقافتهم تظهر في معتقداتنا ونظمنا وعاداتنا مختلطة بالمعتقدات والنظم والعادات الإسبانية مثل الأسرة والأخلاق الاجتماعية والدين والأساطير والحكايات الشعبية ، والخرافات والفنون والمطبخ .

أما تأثير الجماعات السوداء فكان هو الآخر قويا . وعلى العموم يبدو لي أن تأثيرهم قد جاء في اتجاه معارض لاتجاه الهنود ، فبينما يتجه الهنود نحو السيطرة على الشهوات ومزاولة الاحتياط والاستبطان ، نجد اتجاه السود يرفع من القيم الشهوانية والجسدية .

يأتي من وضع يتم تجاهله في الغالب ،

والفرق الثاني ، الذي لا يقل عمقا عن الأول ، يأتي من وضع يتم تجاهله في الغالب ، وهو الطابع الخاص لتفسير حضارة الغرب التي جسدتها إسبانيا والبرتغال . فقد ظل الإسبان والبرتغاليون — على عكس منافسيهم من الانجليز والفرنسيين والهولنديين — تحت سيطرة الإسلام لعدة قرون .

لكن الحديث عن السيطرة فيه خداع ، لأن ازدهار الحضارة الإسبانية — العربية مازال يصيبنا بالدهشة حتى الآن ، وتلك القرون من المعارك كانت أيضا قرونا من التعايش الحميم . فحتى القرن السادس عشر كان يتعايش المسلمون واليهود والمسيحيون في شبه الجزيرة الأيبيرية . ومن المستحيل أن نفهم تاريخ إسبانيا وتاريخ البرتغال ، فضلا عن الطابع الفريد بحق لثقافتهما ، إذا تجاهلنا هذا الوضع . إن المزج بين العنصر الديني والعنصر السياسي مثلا ، أو فكرة « الحرب الصليبية » تظهر في المواقف الإسبانية بتلوين أكثر كثافة وحيوية من ظهورها في الشعوب الأوروبية الأخرى . وليس من المبالغة أن نرى في هذه الجوانب آثارا للإسلام ولنظرته للعالم وللتاريخ .

أما الفرق الثالث فقد كان — في رأيي — حاسما . فمن بين الأحداث التي بدأ بها العالم الحديث نجد ، بالإضافة إلى الإصلاح والنهضة ، التوسع الأوروبي في آسيا وأمريكا وأوروبا . وهذه الحركة بدأت بكشوف الإسبان والبرتغاليين وفتوحاتهم . ومع ذلك فإن إسبانيا والبرتغال ، بعد ذلك بقليل وبنفس العنف ، انغلقتا على نفسيهما ، وبانغلاقهما قاما برفض الحداثة الوليدة . وكان التعبير الأكثر اكتمالا وراديكالية (تطرفا) وتناسقا لهذا الرفض هو الحركة المضادة للإصلاح . فقد تبنى العرش الإسباني دينا عالميا وتفسيرا وحيدا لهذا الدين .

وكان العاهل الإسباني هجينا من تيودوسيو العظيم Teodosio El **Brande** وعبدالرحمن الثالث أول خليفة في قرطبة . (وللأسف فإن الملوك الإسبان جنحوا إلى تقليد المذهب السياسي للأول أكثر من تقليدهم لتسامح الثاني) . وهكذا ، فبينما كانت الدول الأوروبية الأخرى تتجه يوما بعد يوم نحو تمثيل الأمة والدفاع عن قيمها الخاصة خلطت الدولة الإسبانية قضيتها بقضية إيديولوجية . ولكن التطور العام للمجتمع وللدول كان يتجه نحو تأكيد المصالح الخاصة لكل أمة ، أي أنه كان يفرغ السياسة من طابعها المقدس ويجعلها نسبية .

أما فكرة المهمة العالمية للشعب الإسباني ، المدافع عن مذهب شهير عادل وحق ، فكانت فكرة من مخلفات العصر الوسيط وفيها تأثير عربي ، وبتطعيمها جسد العرش الإسباني ، أخذت تلهم تحركاته ، ولكن انتهى الأمر بتجميده تماماً . ومن العجيب أن هذا المفهوم الثيولوجي السياسي قد عاد للظهور في أيامنا هذه . وإن كان الآن لا يأتي مع تنزيل إلهي ، إذ يجيء لابسا قناع علم افتراضي عن التاريخ والمجتمع . والحقيقة المنزلة أصبحت حقيقة علمية ، ولم تعد تتمثل في كنيسة ومجمع كنسي ، وإنما في حزب ولجنة .

إن القرن السابع عشر هو أعظم قرن إسباني ، إنه عصر كيفيدو وجونجورا ، ولوبي دي فيجا ، وفيلاثكيث وثورباران ، والفن المعماري والاسكولائية (المدرسية) الجديدة . ومع ذلك فلعله من العبث أن نبحث من بين هذه الأسماء العظيمة عن أسماء واحد مثل ديكارت أو هوبز أو اسبينوزا أو ليبنتز . كما لا نستطيع أن نبحث عن مثل جاليليو أو نيوتن .

فاللاهوت أغلق أبواب إسبانيا أمام الفكر الحديث ، وكان العصر الذهبي لآدابها وفنونها أيضا هو عصر تدهورها الفكري وانهيارها السياسي . أما التناقض بين الوضوح والعتمة فيظهر بشكل أعنف في أمريكا . فمنذ مونتين Montaigne يدور الحديث عن فظائع الغزو ، وفي نفس الوقت لابد أن نذكّر بالإبداعات الأمريكية (في القارة الأمريكية) لإسبانيا والبرتغال ، لقد كانت مثيرة للإعجاب . فقد أسسوا مجتمعات معقدة وغنية وأصيلة ، أقيمت على مثال المدن التي أقاموها صلبة وفاخرة في وقت واحد .

وكأنّ هناك محوراً مزدوجاً يحكم أولئك الولاة والقادة العموميين ، أحدهما رأسي والآخر أفقي . الأول كان ذا طابع تدرُّجي يحكم المجتمع طبقا لنظام مأخوذ من الطبقات والمجموعات الاجتماعية : السادة ، العامة ، الهنود ، العبيد . أما المحور الثاني الأفقي فكان من خلال جماعية التشريعات واللوائح يجمع في حلقة متشابكة من الالتزامات والحقوق بين مجموعات اجتماعية وعنصرية مختلفة ، كل بخصائصها الذاتية . لا مساواة وتعايش ، ومبادىء متعارضة يكمل بعضها البعض . ولو لم تكن تلك المجتمعات عادلة فإنها لم تكن أيضا بربرية .

إن فن العمارة هو مرآة المجتمعات . ولكنه مرآة تقدّم لنا صورا ملغزة ينبغي علينا أن نفك رموزها . لقد كان ثمة تناقض بين غنى وتفنن مدينتين مثل المكسيك Mexico وبويبلا Puebla ، في منتصف القرن الثامن عشر ، وبين البساطة العابسة المغلفة بالفقر لمدينتين مثل بوسطن وفيلادلفيا . ازدهار خادع ؛ فما كان يمثل في الولايات المتحدة شروقا كان يمثل في أمريكا الإسبانية غروبا . فالأمريكيون ولدوا مع الإصلاح ومع عصر التنوير ، أي مع العالم الحديث ، أما نحن فقد ولدنا مع الحركة المضادة للإصلاح ومع المدرسية الجديدة ، أي ضد العالم الحديث . فلم يكن لدينا ثورة فكرية ولا ثورة ديموقراطية تقوم بها البرجوازية . لقد كان الأساس الفلسفي للعرش الكاثوليكي المطلق هو فكر سواريث Suarez وتلاميذه من جماعة يسوع . وهؤلاء اللاهوتيون جددوا ، بعبقرية ، في التومائية وحولوها إلى قلعة فلسفية . وقد برهن المؤرخ ريتشارد مورس Richard Morse برهنة نافذة على أن عمل التومائية الجديدة كان مزدوجا : فمن جهة ، كان في بعض الأحيان ، وبشكل ظاهر أو مستتر ، هو الأساس الإيديولوجي الذي يقوم عليه البناء السياسي والقانوني والاقتصادي العاجز الذي نطلق عليه الامبراطورية الإسبانية ، ومن جهة أخرى كان يمثل مدرسة طبقتنا المثقفة ، وهو الذي وضع قالب مؤهلاتها ومواقفها . وبهذا المعنى — لا كفلسفة وإنما كموقف ذهني — نجد تأثيره مازال ، حتى الآن ، حيا بين مثقفي أمريكا اللاتينية .

والتومائية الجديدة ، في أصلها ، فكر موجه للدفاع عن صحة هرطقات اللوثريين (أتباع مارتن لوثر) والكالفينيين (أتباع كالفن) ، الذين كانوا هم أول تعبير عن الحداثة . وعلى عكس الاتجاهات الفلسفية الأخرى لذلك العصر ، فإن المنهج لم يكن منهجا لاكتشاف أمر مجهول ، وإنما كان نسقا للدفاع عما هو معروف وقائم . والعصر الحديث يبدأ بنقد الأسس الأولى ، أما المدرسية الجديدة فقد حاولت الدفاع عن هذه المبادىء والبرهنة على طابعها الضروري ، الخالد ، الذي لا يمس .

وبالرغم من أن هذه الفلسفة قد تبخرت في الأفق الفكري لأمريكا اللاتينية في القرن الثامن عشر فإن المواقف والعادات التي ارتبطت بها مازالت موجودة حتى اليوم . لقد اعتنق مثقفونا الليبرالية ثم الوضعية والآن الماركسية — اللينينية على التوالي ، ومع ذلك فليس من الصعب أن نلاحظ في معظمهم ، بصرف النظر عن هذه الفلسفة أو تلك ، المواقف النفسية والأخلاقية للأبطال القدامى للمدرسية الجديدة ، وهي مواقف مستترة

لكنها حية . إنها حداثة تنطوي على مفارقة ؛ فالأفكار من بنات اليوم ، والمواقف من بنات الأمس . فأجدادهم كانوا يحلفون باسم القديس توما ، وهم يحلفون باسم ماركس ، ولكن السبب عند هؤلاء وأولئك ماهو إلا سلاح في خدمة حقيقة متعالية . ومهمة المثقف هي الدفاع عنها . إن لديهم فكرة مثيرة للجدل وللصراع حول الثقافة والفكر ، إنهم صليبيون . وبهذا فقد استقر في بلادنا تراث فكري قليل الاحترام للرأي الآخر ، يفضل الأفكار على الواقع ويفضل النظم الفكرية على نقد النظم .

الاستقلال والحداثة والديموقراطية :

منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، أخذت الأفكار الجديدة تتغلغل ، ببطء وعلى استحياء ، في إسبانيا ومستعمراتها فيما وراء البحار . ولدينا في اللغة الإسبانية كلمة تعبر جيدا عن طبيعة هذه الحركة ونقطة إلهامها الأصلية وحدودها وهي كلمة الأربنة EUROPEIZAR . فتجديد العالم الإسباني وتحديثه لم يكن في الإمكان أن ينبع من فرض مبادىء خاصة قمنا نحن بصياغتها ، وإنما كان لابد من تبني أفكار أجنبية ، هي أفكار عصر التنوير الأوروبي .

ومن ثم فقد استخدمت كلمة الأربنة مرادفا لكلمة التحديث ، وبعد ذلك بسنوات ظهرت كلمة أخرى بنفس المعنى هي « الأمركة » Americanizar . وطوال القرن التاسع عشر حاولت الأقليات المستنيرة ، سواء في شبه الجزيرة الأيبيرية أو في أمريكا اللاتينية ، بوسائل شتى وأكثرها عنيفة ، تغيير بلادنا ، والقفز نحو الحداثة . ولهذا كانت كلمة ثورة أيضا مرادفة لكلمة تحديث .

ويمكن بل ينبغي أن ننظر إلى حروبنا من أجل الاستقلال انطلاقا من هذا المنظار ، فلم يكن هدفها هو الانفصال عن إسبانيا فقط ، وإنما كانت تستهدف ، عن طريق القفزة الثورية ، تحويل البلاد الجديدة إلى أمم حديثة بحق . وهذه سمة مشتركة لكل الحركات الانفصالية ، بالرغم من أن كل واحدة منها كان لها مميزاتها الخاصة طبقا للمنطقة التي تقع بها .

والنموذج الذي استلهمه الثوريون في أمريكا اللاتينية كان مزدوجا : ثورة استقلال الولايات المتحدة والثورة الفرنسية . والحق أنه يمكن القول إن القرن العشرين يبدأ بثلاث ثورات كبرى هي الأمريكية والفرنسية وثورة أمم أمريكا اللاتينية . والثلاثة انتصرت في أرض المعارك ولكن نتائجها السياسية والاجتماعية كانت مختلفة في كل حالة . ففي الولايات المتحدة ظهر أول مجتمع كامل الحداثة ، وإن كان ملطخا ببقعة استعباد السود وإبادة

الهنود . وبالرغم من أن الأمة في فرنسا حدثت فيها تغيرات جوهرية وجذرية ، فإن المجتمع الجديد الناجم عن الثورة استمر في جوانب كثيرة على نهج فرنسا المركزية في عهد ريشيليه Richelieu ولويس الرابع عشر ، كما برهن على ذلك توكفيل Tocqueville . وفي أمريكا اللاتينية حصلت شعوبها على الاستقلال وبدأت تحكم نفسها ، ومع ذلك فإن الثوريين لم يستطيعوا إقامة نظم ومؤسسات حرة وديموقراطية بحق ، اللهم إلا على الورق . فالثورة الأمريكية أسست أمة ، والفرنسية غيرت المجتمع وجددته ، أما ثورات أمريكا اللاتينية فقد فشلت في أحد أهدافها المركزية وهو التحديث السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

إن ثورتي فرنسا والولايات المتحدة كانتا نتيجة للتطور التاريخي لكلا الأمتين ، أما حركات أمريكا اللاتينية فقد اقتصرت على تبني مذاهب وبرامج أجنبية . وإني أؤكد على هذه الكلمة تبني لا اقتباس . إن أمريكا اللاتينية لم تشهد التراث الفكري الذي بدأ مع الإصلاح والتنوير ، وشكَّل ضمائر وأذهان الطبقات الفرنسية والأمريكية المتميزة ، كما لم تشهد أيضا الطبقات الاجتماعية التي كانت تتوافق تاريخيا مع الإيديولوجية الليبرالية ، الديموقراطية الجديدة . ولعله لم تكد توجد طبقة متوسطة ، وطبقتنا البرجوازية لم تتعدَّ المرحلة التجارية . لقد كانت هناك صلة عضوية بين المجموعات الثورية في فرنسا وبين أفكارها ، ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الثورة الأمريكية ، أما عندنا فالأفكار لم تكن تتوافق مع الطبقات . ولم تكن الأفكار إلا قناعا ، ولهذا تحولت إلى إيديولوجية ، بالمعنى السلبي لهذه الكلمة ، أي إلى حُجُب تعيق استقبال الحقيقة وتشوهها . وقد حولت الإيديولوجية الأفكار إلى أقنعة : تخفي الشيء ، وفي الوقت نفسه لا تتركه يرى الحقيقة . فهي تخدع الآخرين وتخدعنا نحن أنفسنا .

إن استقلال أمريكا اللاتينية يأتي في وقت إنهاك شديد للإمبراطورية الإسبانية . ففي ذلك الوقت تمت الوحدة القومية في إسبانيا لا بمزج الشعوب المختلفة لشبه الجزيرة ولا بارتباطهم الإرادي وإنما من خلال سياسة ملكية تقوم على التحالف والضم بالقوة . وكانت أزمة الدولة الإسبانية ، التي زاد منها الغزو النابليوني ، بداية للتفكك ، ولهذا فإن حركة التحرر في أمم أمريكا الإسبانية (حالة البرازيل مختلفة) يجب أن ينظر إليها أيضا على أنها حالة تفكك . لقد تكرر عرض مشهد التاريخ الإسباني ــ العربي القديم بشيوخه الثائرين ، ذلك أن الكثيرين من القادة الثوار قد استولوا على الأراضي المحررة وكأنهم قاموا بغزوها .

إن حدود بعض الأمم الجديدة قد اتفقت مع حدود الجيوش المحرِّرة وكانت النتيجة

هي تفكيك مناطق كاملة مثل أمريكا الوسطى ، والأنتياس Las Antillas لقد اخترع القادة بلادا لم تكن مؤهلة لا في المجال السياسي ولا المجال الاقتصادي ، وكانت فضلا عن ذلك ، تفتقر إلى السمة القومية الحقيقية . وبذلك بقيت الدكتاتوريات والإمبريالية بفضل الخط التاريخي والعقد الموجودة بين الأوليجاركيات المحلية ، وقد حدث هذا ضد تقديرات الاتجاه العام .

إن التفكك كان أحد وجهي الميدالية ، أما الوجه الآخر فهو عدم الاستقرار والحروب الأهلية والدكتاتوريات . وبسقوط الإمبراطورية الاسبانية وإدارتها تركزت السلطة في مجموعتين : الاقتصادية المتمثلة في الأوليجاركيات من أبناء البلد ، والسياسية المتمثلة في العسكريين . وكان الأوليجاركيون غير قادرين على الحكم باسمهم الخاص . فالمجتمع المدني تحت النظام الإسباني عاش في ظل الدولة بمنأى عن النمو والتطور الذي حدث في باقي بلاد الغرب .

والواقع الرئيسي في بلادنا ظل هو النظام الشمولي مثلما حدث في إسبانيا . وفي هذا النظام نجد رئيس الحكومة ــ أميرا كان أو واليا ، قائدا أو رئيسا ــ يدير الدولة والأمة وكأنهما امتداد لميراثه الخاص ، أي كما لو كانا مثل ضيعة عنده . أما الطبقة الأوليجاركية ، المكونة من أصحاب المزارع الواسعة والتجار ، فقد عاشت خاضعة للسلطة ومفتقرة إلى الخبرة السياسية وإلى التأثير فيمن حولهم من الناس . وعلى عكس ذلك ، كان رجال الدين يصعدون بشكل كبير ، وفي درجة أقل منهم المحامون والأطباء وأصناف أخرى من أصحاب المهن الحرة . وهذه المجموعات ــ التي تشكل بذرة الطبقة المثقفة الحديثة ــ اعتنقت فورا وبحماس إيديولوجيات العصر . فبعضهم أصبح ليبراليا ، والبعض الآخر أصبح محافظا . أما القوة الأخرى الحاسمة فكانت قوة العسكريين . وفي بلاد تفتقر إلى الخبرة الديموقراطية ، وبها أوليجاركيات غنية وحكومات فقيرة ، كان الصراع بين الطوائف السياسية يصب حتما في دائرة العنف . ولم يكن الليبراليون أقل عنفا من المحافظين ، أو بتعبير آخر كانوا متعصبين مثل منافسيهم . إن الحرب الأهلية الوبائية أوجدت النزعة العسكرية ، والنزعة العسكرية أوجدت الدكتاتوريات .

وخلال أكثر من قرن عاشت أمريكا اللاتينية بين الفوضى والتسلط ، أو العنف الفوضوي والاستبداد . ويفسر عادة استمرار هذه السيئات بغياب الطبقات الاجتماعية والبنية الاقتصادية التي جعلت الديموقراطية ممكنة في أوروبا والولايات المتحدة . وهذا

صحيح : لقد افتقرنا إلى البورجوازيات الحديثة فعلا ، والطبقة المتوسطة كانت ضعيفة وقليلة العدد ، وطبقة البروليتاريا حديثة النشأة . ولكن الديموقراطية ليست فقط نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية المتصلة بالرأسمالية وبالثورة الصناعية .

لقد برهن كاستورياديس Castoriadis على أن الديموقراطية هي إبداع سياسي حقيقي ، أي أنها مجموعة أفكار ، ومؤسسات وممارسات تشكل اختراعا جماعيا . لقد ابتكرت الديموقراطية مرتين ، إحداهما في اليونان والأخرى في الغرب . وفي كلتا الحالتين ولدت من الجمع بين نظريات وأفكار لأجيال متعددة ، ومن تحركات مجموعات وطبقات مختلفة مثل البرجوازية والبروليتاريا والفصائل الاجتماعية الأخرى . إن الديموقراطية ليست بنية فوقية ، إنها إبداع شعبي .

وبالإضافة إلى ذلك فإنها تمثل شرطا وأساسا للحضارة الحديثة . ومن ثم فينبغي أن نضيف إلى الأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي تذكر لتفسير فشل الديموقراطيات في أمريكا اللاتينية ، نضيف ذلك السبب الذي أشرت إليه من قبل وهو عدم وجود تيار فكري نقدي وحديث . ولا يجب أن ننسى ، أخيرا ، الجمود والقصور الذاتي ، المتمثل في هذه الكتلة الهائلة من الآراء ، والعادات ، والمعتقدات ، وأنماط الروتين ، والاقتناعات ، والأفكار الموروثة والوسائل التي تشكل تراث الشعوب . ومنذ حوالي قرن وضع بيريث جالدوس — الذي تأمل كثيرا في هذا الأمر — على لسان إحدى شخصياته ، وهو ليبرالي متنور ، هذه الكلمات : « إننا نشاهد الانتصار المؤقت للفكرة الحقيقية على الفكرة الزائفة في مجال الفكر ، ونعتقد أن الفكرة يمكن أن تنتصر على العادات بنفس هذه السرعة . إن العادات صنعها الزمن بصبر وبطء شديدين مثلما صنع الجبال ، والزمن وحده ، وهو يعمل يوما بعد يوم ، يستطيع هدمها . فالجبال لا تنهار بالكلمات »[1] .

ولعل هذا الوصف يظل ناقصا إذا لم نضف إليه عنصرا غريبا ، هو الذي أسرع بالتفكك وقوى السلطات الظالمة في وقت واحد ، وهو الإمبريالية الأمريكية .

---

* قصاص وقصي إسباني ... المترجم .

(١) قصة « الثورة الثانية » ، ١٩٨٣ .

صحيح أن تشرذم بلادنا ، والحروب الأهلية ، والنزعة العسكرية ، والدكتاتوريات لم تكن اختراعا قامت به الولايات المتحدة ، ولكنها تتحمل مسئولية رئيسية لأنها استغلت هذا الوضع لكي تكسب ، وتزدهر ، وتسيطر . لقد شجعت الانقسامات بين البلاد ، والأحزاب ، والقادة ، وهددت باستخدام القوة ، ولم تتردد في استخدامها ، في أي مرة تجد فيها مصالحها في خطر ، وطبقا لما يناسبها ساعدت حركات التمرد أو عملت على تقوية السلطات الغاشمة . إن إمبرياليتهم لم تكن إيديولوجية ومن ثم فإن تدخلاتهم تخضع لاعتبارات ذات طابع اقتصادي وسيادة سياسية . لكل هذا فإن الولايات المتحدة كانت إحدى العوائق الكبرى التي اصطدمنا بها في طريقنا نحو التحديث .

وهذا شيء مأسوي ، لأن الديموقراطية الأمريكية هي التي ألهمت زعماء استقلالنا وقادتنا الليبراليين الكبار مثل سارمينتو **Sarmiento** وخواريث **Juàrez** . فمنذ القرن الثامن عشر كان منطق التحديث بالنسبة لنا يلوح بالديموقراطية والمؤسسات الحرة ، وكان نموذج هذه الحداثة السياسية والاجتماعية هو ديموقراطية الولايات المتحدة . مفارقة تاريخية : أن تكون الولايات المتحدة ، في أمريكا اللاتينية ، حامية الغاشمين ، وحليفة أعداء الديموقراطية .

الشرعية التاريخية والإلحادية الشمولية :

عندما نجحت حركات الاستقلال اختارت أمم أمريكا اللاتينية النظام الجمهوري الديموقراطي نظام حكم . أما التجربة الإمبريالية المكسيكية فقد استمرت لفترة قصيرة ، وفي البرازيل حل النظام الجمهوري أيضا محل الإمبراطورية . إن وجود دساتير ديموقراطية في كل بلاد أمريكا اللاتينية ، وشيوع الأنظمة الغاشمة في هذه البلاد نفسها يبرز للعيان أن إحدى العلامات المميزة لمجتمعاتنا هي الانفصال بين الواقع الشرعي والواقع السياسي . فالديموقراطية تمثل الشرعية التاريخية ، أما الدكتاتورية فنظام استثنائي . والصراع بين الشرعية المثالية والدكتاتورية القائمة بالفعل إنما هو تعبير آخر – بل إنه أكثرها إيلاما – عن تمرد الحقيقة التاريخية على التنظيرات والأشكال التي تفرضها عليها الفلسفة السياسية .

إن دساتير أمريكا اللاتينية رائعة لكنها لم تكتب لبلادنا . وذات مرة أطلقت عليها اسم « قمصان القوة » ، ولا بد أن أضيف بأن هذه « القمصان » قد مزقت أكثر من مرة بواسطة الهزات الشعبية . وأعمال الفوضى والانفجارات كانت انتقاما من الأمور الواقعة في أمريكا اللاتينية ، أو كما قال جالدوس : من العادات العنيدة ، الثقيلة مثل الجبال ، المتفجرة مثل البراكين .

وكانت الوسيلة الوحشية ضد الانفجارات هي الدكتاتوريات . وهي وسيلة مشئومة لأنها تثير حتما انفجارات جديدة . إن ضعف التنظيرات الفكرية أمام الأحداث يدل على أن مصلحينا لم يكن لديهم تصور مبشري القرن السادس عشر ولا واقعيتهم . ذلك أن أولئك الآباء ، وقد بهرهم تدين الهنود الشديد ، أخذوا يبحثون في الأساطير السابقة على الاكتشاف عن نقاط تلاقي مع المسيحية ووجدوها بالفعل . وبفضل هذه الجسور أمكن الانتقال من الأديان القديمة إلى الدين الجديد . وباختلاط المسيحية مع الطقوس الهندية تأصلت وأصبحت خصبة . ولعل مصلحينا حاولوا فعل شيء مشابه لهذا .

ولم تكن محاولات التوفيق بين الشرعية الشكلية والواقع التراثي عديدة . بالإضافة إلى أن معظم هذه المحاولات قد فشلت . وأكثر هذه المحاولات اتساقا وتنويرا ، وهي محاولة الأبرا **APRA** البيرواني ، انتهت إلى صراع طويل ، كان نموذجا للمساهمة في الدفاع عن الديموقراطية ، حيث كانت نتيجته تبذير طاقاتها الثورية .

وبعض المحاولات كانت كاريكاتورية ، مثل البيرونية ، التي التحمت من جانب بالفاشية على الطريقة الإيطالية ، ومن الجانب الآخر بالديماجوجية العامية . وكانت التجربة المكسيكية ، بالرغم من أخطائها ، هي الأكثر صحة وأصالة وعمقا . فلم تكن برنامجا ولا نظرية ، وإنما كانت إجابة غريزية على غياب البرامج والنظريات . كما كانت ، مثل كل الابتكارات السياسية الحقيقية ، عملا جماعيا موجها لحل المشاكل الخاصة لمجتمع منهار تنزف منه الدماء .

وقد تولدت عن ثورة المكسيك حركة اقتلعت الأنظمة التي ابتكرها الليبراليون في القرن التاسع عشر ، والتي كانت قد تحولت إلى قناع لدكتاتورية بورفيريو دياث **Porfirio Diaz** . وكان نظام دياث ، وريث ليبرالية خواريث ، نوعا من التفسير

الهجيني ــ خليط من الزعامة والليبرالية والوضعية ــ للحكم المطلق التنويري في القرن الثامن عشر .

وكما يحدث مع كل الدكتاتوريات ، فإن نظام بورفيريو كان عاجزا عن حل مشكلة تعاقب السلطة ، وهي مشكلة الشرعية ، فعندما طعن الزعيم في السن حاول النظام المتجمد أن يستمر ، وكانت الإجابة على ذلك هي العنف . وبذلك تحول التمرد السياسي بصورة فورية تقريبا إلى تمرد اجتماعي .

وبمجرد أن أحرز الثوريون النصر ، وإن لم يكن بدون حالات تردد وتذبذب ، انتصروا على الغواية التي تقفز فوق كل الثورات المنتصرة وتقضي عليها وهي : حل المشاجرات بين الطوائف بفرض دكتاتورية أحد القادة الثوريين . وقد استطاع المكسيكيون تجنب هذا الخطر دون أن يقعوا في الفوضى أو في حرب داخلية بفضل التزام مزدوج ، ذلك أن تحريم إعادة انتخاب الرؤساء أغلق الباب أمام الزعماء ، كما أن تشكيل حزب يضم النقابات العمالية وتنظيمات الفلاحين ، والطبقة المتوسطة أكد استمرار النظام . والحزب لم يكن حزبا إيديولوجيا وهو ليس كذلك ، كما أنه لا يخضع لقاعدة صارمة Ortodoxia ، وليس « طليعة » للشعب ولا سلكا مختارا من أعضاء . إنه تنظيم مفتوح ، أو بالأحرى غير واضح المعالم ، توجهه بيروقراطية سياسية آتية من شرائح شعبية ومتوسطة . وبهذا استطاعت المكسيك ، خلال أكثر من نصف قرن ، أن تهرب من تلك الحتمية الدائرية التي تتمثل في الانتقال من الفوضوية إلى الدكتاتورية وبالعكس . ولم تكن النتيجة هي الديموقراطية ، ولا كانت أيضا الاستبداد ، وإنما تمثلت في نظام خاص ، أبوي وشعبي في الوقت نفسه ، وقليلا قليلا ــ وبدون معوقات أو أعمال عنف وتساقط ــ أخذ هذا النظام يتجه نحو أشكال تزداد يوما بعد يوم إيغالاً في الحرية والديموقراطية . لكن التطور كان بطيئا بشكل كبير ، ولذلك يلاحظ أن الناس قد تعبت من هذا النظام منذ عدة سنوات .

وبعد أزمة ١٩٦٨ ، قام النظام ، بواقعية ونضج ، بعدة تغييرات انتهت بالإصلاح السياسي الحالي . وللأسف فإن الأحزاب المستقلة ، وأحزاب المعارضة ، بالإضافة إلى كونها ، كما هو واضح ، أقلية فإنها تفتقر إلى الكوادر والبرامج القادرة على أن تحل محل الحزب الموجود في السلطة منذ سنوات طويلة .

وبذلك فإن مشكلة التعاقب تعود لتطرح نفسها مرة أخرى مثلما حدث عام ١٩١٠ .

وإذا كنا لا نريد تعريض أنفسنا لأضرار خطيرة ، فإن النظام المكسيكي مطلوب منه أن يجدد نفسه من خلال التحول الديموقراطي الداخلي .. ولا أستطيع أن أتوقف أكثر من ذلك عند هذا الموضوع ؛ فقد خصصت له مقالات عديدة ، نشرت في كتاب « الغول الخيِّر » El Ogro Filantropico وأنا أحيل قرائي إليه .

إن تاريخ الديموقراطية في أمريكا اللاتينية لم يكن تاريخ فشل فقط ؛ فخلال فترة طويلة كانت الديموقراطيات في أوروجواي وشيلي والأرجنتين نموذجية . والثلاثة سقطت ، واحدة بعد الأخرى ، وحلت محلها حكومات عسكرية ، أما الديموقراطية في كولومبيا ، فنظرا لعجزها عن حل المشاكل الاجتماعية ، فقد تجمدت في صيغة شكلية ، وعلى العكس من ذلك نجد الديموقراطية في بيرو ، بعد النظام العسكري قد تجددت وقويت .

ولكن النماذج الأكثر تشجيعا تتمثل في ديموقراطيتي فنزويلا وكوستاريكا . إنهما ديموقراطيتان حقيقيتان . وحال كوستاريكا الصغيرة ، الواقعة في قلب أمريكا الوسطى المضطربة الشمولية كان ومازال مثيراً للإعجاب . ولكي أنتهي من هذا الملخص السريع أقول : إن شيوع الانقلابات العسكرية في بلادنا لم يطمس إطلاقا الشرعية الديموقراطية في ضمير شعوبنا ، وهذا أمر له دلالة . فسلطتها المعنوية ظلت في غير حاجة إلى نقاش . ولذلك فإن كل الدكتاتوريين ، بلا استثناء ، عندما يستولون على السلطة يعلنون بفخار أن حكومتهم مؤقتة وأنهم مستعدون لإعادة المؤسسات الديموقراطية بمجرد أن تسمح لهم الظروف بذلك . وقليلا ما يوفون بوعدهم ، هذا صحيح ، ولكن لا بأس . إن مايبدو لي دالا وجديرا بالتنويه هو أنهم يحسون بأنهم مضطرون لفعل ذلك . إنها ظاهرة مهمة جدا ، ولم يتوقف إلا القليلون عند دلالتها ، فحتى النصف الثاني من القرن العشرين ، لم يجرؤ أحد أن يشك في أن الديموقراطية هي الشرعية التاريخية والدستورية في أمريكا اللاتينية . لقد ولدنا معها ، وبالرغم من الجرائم وأعمال الظلم فإن الديموقراطية كانت بمثابة محضر تعميد تاريخي لشعوبنا . ومنذ حوالي عشرين عاما تغير الوضع ، وهذا التغير يحتاج إلى شرح .

فحركة فيدل كاسترو أشعلت خيال كثير من اللاتين الأمريكيين ، وبالأخص الطلاب والمثقفين . لقد ظهر وكأنه وارث تيارات التراث العظمى لشعوبنا : الاستقلال ووحدة

أمريكا اللاتينية ، ومعاداة الإمبريالية ، وبرنامج الإصلاحات الاجتماعية الجذرية والضرورية ، وإقامة الديموقراطية .

وقد تبخرت هذه الطموحات واحدة بعد الأخرى . وقضية فساد الثورة الكوبية حكيت أكثر من مرة ، حتى من جانب أولئك الذين شاركوا فيها بشكل مباشر مثل كارلوس فرانكي ، ومن ثم فإني لن أكرر الحكاية . وأنا أسجل فقط أن الانقلاب البائس في نظام كاسترو كان نتيجة للخلط بين عدة ظروف : شخصية الزعيم الثوري نفسها ، الذي يمثل الزعامة اللاتينية الأمريكية الأصيلة ، المعروفة في التراث الإسباني ــ العربي ، والهيكل الشمولي للحزب الشيوعي الكوبي ، الذي كان الأداة السياسية لفرض النموذج السوفيتي للسيطرة البيروقراطية بالقوة ، وفقدان الحس عند واشنطن وصلفها الأعمى ، وبالأخص خلال المرحلة الأولى للثورة الكوبية ، قبل أن تصادرها البيروقراطية الشيوعية ، وأخيرا ضعف تقاليدنا الديموقراطية كما هو الحال في بلاد أمريكا اللاتينية الأخرى ، وهذا الظرف الأخير يفسر كيف أن النظام ، بالرغم من أن طبيعته الاستبدادية تبدو يوما بعد يوم أكثر وضوحا ، كما يظهر فشل سياسته الاقتصادية والاجتماعية ، مازال حتى الآن يحتفظ بجزء من صعوده الأول بين الشباب الجامعي وبعض المثقفين . والبعض الآخر يلجأون لهذه الأوهام بسبب اليأس . وهذا شيء غير معقول لكن له تفسيراً . فكلمة بؤس بالمعنى المعنوي لسوء الحظ ، وأيضا بما تدل عليه من شدة الفقر ، يبدو أنها ابتكرت لتصف الوضع في معظم بلادنا . وفضلا عن ذلك فإن هناك كثيرين من بين خصوم كاسترو لهم باع في استمرار هذا الوضع الرهيب . إنها عداوات متناسبة .

وليس من الصعب أن نفهم لماذا يتمتع نظام كاسترو ببعض الصداقية بين مجموعات معينة . ولكن التفسير ليس معناه التبرير ، ولا حتى انتحال الأعذار ، وبالأخص عندما نجد من بين هؤلاء المؤمنين كتابا ومثقفين وموظفين كبار في حكومات مثل حكومتي فرنسا والمكسيك . فهؤلاء الأشخاص بثقافتهم ومعلوماتهم وذكائهم إن لم يكونوا ضمير شعوبهم . فهم عيونه وسمعه .

فكل هؤلاء اختاروا ــ طواعية ــ ألا يروا ما يحدث في كوبا ، وألا يستمعوا إلى شكاوي ضحايا دكتاتورية جائرة . وموقف هذه المجموعات والأشخاص لا يختلف عن

موقف الستاليين منذ حوالي ثلاثين عاما ، وبعض هؤلاء سيشعرون بالعار ذات يوم ، مثل أولئك ، بسبب ماقالوه وماسكتوا عنه . وبالإضافة إلى ذلك فإن فشل نظام كاسترو ظاهر ولا يقبل النفي . إنه واضح في ثلاثة جوانب رئيسية ، الجانب الدولي : كوبا مازالت بلدا تابعا . وإن كانت التبعية الآن للاتحاد السوفيتي . والجانب السياسي : فالكوبيون أقل حرية من ذي قبل . والجانب الاقتصادي والاجتماعي : فشعبها يعاني من ضائقات ومشقات أكثر مما كان عليه منذ حوالي خمسة وعشرين عاما .

إن عمل أي ثورة يقاس بالتحولات التي قام بها ، ومن بينها بل أهمها تغيير الهياكل الاقتصادية . فكوبا كانت بلدا تميز باحتكاره لتجارة السكر ، وهو السبب الرئيسي لاعتمادها على الخارج وقابليتها للفساد الاقتصادي والسياسي — واليوم كوبا مازالت تعتمد على السكر .

وخلال سنوات وسنوات رفض مثقفو أمريكا اللاتينية وكثير من الأوروبيين أن يسمعوا للمنفيين والمنشقين والمطاردين الكوبيين . ولكن من المستحيل حجب الشمس بإصبع واحدة . فمنذ سنوات قليلة فوجىء العالم بهروب أكثر من مائة ألف شخص ، وهو رقم هائل إذا وضعنا في اعتبارنا عدد سكان الجزيرة . وكانت المفاجأة أكبر عندما شاهدنا الهاربين على شاشات السينما والتلفاز ، فلم يكونوا بورجوازيين من أتباع النظام القديم ولا منشقين سياسيين وإنما كانوا أناسا متواضعين ، رجالا ونساء من الشعب ، يائسين جائعين .

وقد أشارت السلطات الكوبية إلى أن كل هؤلاء الأشخاص لم يكن لديهم « مشاكل سياسية » . وكان هذا البيان يحمل شيئا من الحقيقة ، فتلك الكتل البشرية لم تكن مكونة من معارضين وإنما من هاربين . إن هروب الكوبيين لم يختلف جوهريا عن هروب الكمبوديين والفيتناميين كما أنه إجابة على قضية واحدة . إنه إحدى النتائج الاجتماعية والبشرية المترتبة على إقامة دكتاتوريات بيروقراطية اغتصبت اسم الاشتراكية . إن ضحايا « دكتاتورية البروليتاريا » ليسوا هم البرجوازيين وإنما هم البروليتاريا نفسها .

إن هروب مائة الف ، وكأنه عملية صحو فجائية ، بدد الأكاذيب والأوهام التي كانت تحجب عنا واقع كوبا . فإلى متى ؟ إن معاصرينا يحبون العيش ، مثل أساطير أقاصي الشمال ، بين غيامات أخلاقية وفكرية .

لقد أشرت من قبل إلى أن الدكتاتوريات في أمريكا اللاتينية تعتبر نفسها أنظمة استثنائية مؤقتة . ولم يستطع أي واحد من هؤلاء الدكتاتوريين ، ولا حتى أكثرهم جرأة ، أن ينفي الشرعية التاريخية للديموقراطية . وأول نظام جرؤ على إعلان شرعية مختلفة كان هو نظام كاسترو . فأساس سلطته ليس إرادة الأغلبية التي تم التعبير عنها بالتصويت الحر السري ، وإنما يتمثل هذا الأساس في مفهوم يشبه في بعض جوانبه حكم السماء في الصين القديمة ، بالرغم من ادعاءاته العلمية . وهذا المفهوم ، المكون من بعض أجزاء الماركسية (من الحقيقية ومن الاختلاقات التي التصقت بها) هو العقيدة الرسمية للاتحاد السوفيتي وللدكتاتوريات البيروقراطية الأخرى . وأكرر الصيغة المعروفة جدا ، وهي : إن الحركة العامة وتصاعد التاريخ يتجسد في طبقة « البروليتاريا » التي تسلمها إلى حزب ، يقدمها بدوره للجنة تأتمن عليها زعيما . فكاسترو يحكم باسم التاريخ . والتاريخ ، مثل الإرادة الإلهية ، ماهو إلا طلب أعلى معفي من الآراء الضالة المتناقضة للجماهير ، إنه ليس مذهبا وإنما هي عقيدة . وهي عقيدة متجسدة في حزب طبيعته مزدوجة ، فهو كنيسة وهو جيش . والضيق الذي نحس به أمام هذه الظلامية الجديدة لا يختلف جوهريا عن ماجرَّبه أجدادنا الليبراليون أمام القادمين من وراء الجبال عام ١٨٠٠ . وكان القاعديون القدامى يرون أن العرش الملكي مؤسسة إلهية وأن الملك مختار من الله ، والجدد يرون أن الحزب أداة للتاريخ وأن زعماءهم مفسروه والأصوات المعبرة عنه . إننا إذن نشهد عودة الحكم المطلق ، لابسا قناع العلم والتاريخ والجدل .

والمشابهة بين الشمولية المعاصرة والحكم المطلق القديم تشتمل ، مع ذلك ، على بعض الفروق العميقة . ولا أستطيع في هذا المقال سبر أغوارها أو التوقف عندها . وسأقتصر على ذكر الفرق الجوهري : إن سلطة العاهل المطلقة كانت تمارس باسم أمر أسمى من وراء الطبيعة هو الأمر الإلهي ، أما الشمولية فنجد الزعيم يمارس السلطة باسم هويته المعبرة عن الحزب والبروليتاريا والقوانين التي تحكم التطور التاريخي .

فالزعيم هو التاريخ العالمي في شخصه . فالإله المتعالي عند لاهوتي القرنين السادس عشر والسابع عشر ينزل إلى الأرض ويصبح « تطورا تاريخيا » ، والتطور التاريخي ، بدوره ، يتجسد في هذا الزعيم أو ذاك مثل ستالين أو ماو أو فيدل .. فالشمولية تصادر الأشكال الدينية وتفرغها من مضمونها ، ثم تتغطى بها . وكانت الديموقراطية الحديثة قد فصلت بين

الدين والسياسة ، وجاءت الشمولية فوحدتهما من جديد ، ولكن بشكل عكسي ، فمضمون سياسة العاهل المطلق كان دينيا ، والآن تمثل السياسة مضمون الدين الشمولي الجديد .

والجسر الذي كان يحمل الناس من الدين إلى السياسة في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان هو التومائية الجديدة ، أما الجسر الذي يحمل الناس من السياسة إلى الشمولية في القرن العشرين فهو إيديولوجية موصوفة بالعلمية تزعم أنها علم عالمي للتاريخ وللمجتمع . وهذا الموضوع شائق ، لكني أتركه ، إذ عليّ أن أعود إلى حالة أمريكا اللاتينية الخاصة(٢) .

وإذا كان الادعاء العلمي لهذا المفهوم مثيرا للقلق ، فطابعه المضاد للديموقراطية مثيرا للقلق أيضا . ومن ثم فليست أفعال نظام كاسترو وسياسته هي التي تمثل نفيا للديموقراطية فقط ، وإنما يأتي هذا النفي أيضا من الأسس نفسها التي يقوم عليها النظام . وبهذا المعنى فإن الدكتاتورية البيروقراطية الكوبية تمثل تجديدا تاريخيا حقيقيا في قارتنا ، إذ بها تبدأ « الشرعية الثورية » لا الاشتراكية فقط ، وهذه الشرعية الجديدة تهدف إلى أن تحل محل الشرعية التاريخية للديموقراطية . وبهذا حدث شرخ في التراث الذي قامت عليه أمريكا اللاتينية .

إمبراطورية وإيديولوجية :

منذ منتصف القرن الماضي ظلت الهيمنة الأمريكية على القارة مستمرة ولا نقاش فيها . وكان مذهب مونروي **Monroe** هو التعبير عن هذا الواقع ، وإن كان أهل أمريكا اللاتينية قد أدانوه أكثر من مرة . أيضا تمثل الثورة الكوبية في هذا المجال عملية انقطاع جذرية . وهنا يحدث تدخل جديد لعنصر الانتقام ذلك أن سياسة الاحتقار والعداء من جانب واشنطن قد دفعت كاسترو إلى أحضان روسيا .

وقد استقبل الروس شيئا ، كأنه هدية ساقطة من سماء التاريخ ـــ حيث لا يحكم الجدل وإنما المصادفة ـــ وهذا الشيء طالما طمح إليه نابليون الثالث والملكة فيكتوريا والقيصر ، لكنهم لم يستطيعوا الحصول عليه أبدا : إنه يتمثل في الحصول على قاعدة سياسية وعسكرية في أمريكا .

---

(٢) القارىء المهتم بهذا الموضوع يمكنه أن يقرأ عنه تأملات نافذة وموضحة في كتاب **L'invention démocratique** (الابتكار الديموقراطي) للكاتب كلود ليفور **Claude Le fort** ، باريس ، ١٩٨١ .

ومن وجهة نظر التاريخ فإن نهاية مذهب مونروي Monroe تعني العودة إلى المبدأ ، فكما حدث في القرن السادس عشر ، نجد قارتنا مفتوحة لتوسع القوى الخارجية . ومن هنا فإن نهاية الحضور الأمريكي في كوبا لم تكن انتصارا للاتجاه المعادي للإمبريالية . إن الغروب (النسبي) لنفوذ الولايات المتحدة يعني ، بلا أدنى شك ، أن التوسع الإمبريالي الروسي قد وصل إلى أمريكا اللاتينية . لقد تحولنا إلى مجال آخر للمعركة بين القوتين العظميين . وبتحديد أدق : حولونا هم إلى ذلك . ولم نذهب إلى ذلك بخطانا ، وإنما كانت أحداث التاريخ هي التي حملتنا إلى هذا الوضع . وماذا نستطيع أن نفعل ؟ كثر الفعل أو قل فإن أول شيء ينبغي أن نفعله هو أن نحاول التفكير بتنوير واستقلال ، ثم علينا بعد ذلك مباشرة ألا نترك أنفسنا نهبا لقصور الشيء .

وكان الروس أكثر حظا من نابليون الثالث في مغامرته المكسيكية ، إذ لم يضطروا لإرسال قوات إلى كوبا أو للدخول في معركة . إنه وضع معارض تماما لوضع أفغانستان . فحكومة كاسترو قامت بتصفية المعارضة ، المكونة في معظمها من حلفائه القدامى ، وسيطر بقسوة على المتذمرين وأسكتهم . إن الاتحاد السوفييتي يعتمد في كوبا على حلفاء مضمونين ، تصلهم به روابط المصلحة والإيديولوجية والتواطؤ . والتحالف الروسي ــ الكوبي تحالف دبلوماسي ، واقتصادي ، وعسكري ، وسياسي .

إن الدبلوماسية الكوبية تتبنى في كل السفارات والمراكز الدولية وجهات نظر شبيهة بوجهات نظر الاتحاد السوفييتي ، كما أنها تخدم المصالح الروسية وتدافع عنها ، بمهارة وحرص ، بين الدول غير المنحازة . ثم إن روسيا والدول الشرقية الأوروبية تدعم الاقتصاد الكوبي الضعيف وإن كان بما لا يكفي كما هو مشاهد . وعلى عكس ذلك نجد المعونة العسكرية بكميات هائلة ، ولا تتناسب مع حاجات الجزيرة .

والحق أن القوات الكوبية تمثل طليعة عسكرية للسوفييت ، وقد شاركت في عمليات حربية في أفريقيا وأجزاء أخرى . وليس من الواقع ــ وهذا على الأقل مانستطيع قوله ــ أن نغمض أعيننا ، مثلما فعلت بعض الحكومات ومنها حكومة المكسيك ، إزاء الطابع العسكري الخالص للتحالف الروسي ــ الكوبي .

وأهمية كوبا كقاعدة سياسية أكبر من ذلك أيضا ، إذا كان من المباح في مثل هذه الأمور التميز بين ماهو عسكري وماهو سياسي . فهافانا كانت ومازالت مركز تحريك ودعاية وتنسيق وتدريب للحركات الثورية في أمريكا اللاتينية . ومع ذلك فإن عمليات التمرد والاضطرابات التي تهز قارتنا ، في أمريكا الوسطى بصفة خاصة ، ليست نتيجة تآمر روسي ــ كوبي ولا هي من دسائس الشيوعية الدولية ، كما يحاول تكرار ذلك بعض أبواق الحكومة الأمريكية . فهذه الحركات ، كما نعرف جميعا ، تأتي نتيجة للمظالم الاجتماعية ، والفقر ، وغياب الحريات العامة وهو شيء منتشر في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية . فالسوفييت لم يبتكروا التذمر . كل مافي الأمر أنهم يستخدمونه ويحاولون مصادرته من أجل أهدافهم .

ويجب أن نعترف بأنهم غالبا مايحصلون على هدفهم . وليست سياسة الولايات المتحدة الخاطئة بمنأى عن هذه النتيجة . وبعد كل هذا أتساءل : لماذا تتحول كثير من الحركات الثورية ، التي هي في أصلها إجابات كريمة على ظروف اجتماعية جائرة وحتى غير متسامحة ، أقول تتحول إلى أدوات سوفييتية ؟ ولماذا عندما تفوز تستحدث في بلادها النموذج الشمولي للسيطرة البيروقراطية ؟ .

إن تنظيم الأحزاب الشيوعية ونظامها يؤثر في الغالب على الشخص الثوري ، وهذه التنظيمات تشتمل على شكلين من أشكال الارتباط فيهما تماسك داخلي مؤكد وقدرة تبشيرية ودفاعية ، وهما الجيش والنظام الديني . وفي كلا الشكلين توحد الإيديولوجية بين الإرادات وتبرر انقسام العمل والرتب الصارمة . وكلاهما مدرسة للعمل والطاعة . والحزب ، بالإضافة إلى ذلك ، هو التشخيص الجماعي للإيديولوجية . ثم إن أولية الجانب السياسي بالنسبة للجانب الاقتصادي تعد إحدى العلامات التي تميز الإمبريالية الروسية عن الإمبرياليات الرأسمالية في الغرب . ولكن هذا الجانب السياسي لا يكون بصفته الاستراتيجية والتكتيكية فقط وإنما بصفته بعدا للإيديولوجية .

لقد أطلق ألان بيسانسون **Alain Besançon** كلمة ايديوكراتيا **Ideocracia** على الاتحاد السوفييتي ، والتسمية صحيحة : ففي هذا البلد تحمل الإيديولوجية وظيفة مشابهة ، بالرغم من أنها تتم في مستوى ثقافي أدنى بكثير من وظيفة اللاهوت في بلاط الملك فيليب الثاني .

إنها إحدى خصائص الدولة الروسية التي تؤكد طبيعته المهجنة ، ذلك الخليط العجيب من القدم والحداثة . وفي الوقت نفسه فإن أسبقية الإيديولوجية تفسر الإغراء الذي مازال يمارسه النظام الشيوعي حتى الآن في الأذهان البسيطة وبين مثقفين من بلاد أخرى دخلتها الأفكار الليبرالية والديموقراطية متأخرة وبصورة سيئة . لقد كانت الطبقات الشعبية في أمريكا اللاتينية ، من العمال والفلاحين الذين هم في العادة متمسكون بكاثوليكيتهم ، فاقدة الحس تقريبا إزاء غواية الشمولية المطلقة الجديدة ، ولكن المثقفين والبرجوازية الصغيرة والكبيرة ، عندما فقدوا إيمانهم القديم ، اعتنقوا هذا المعادل الإيديولوجي ، الذي بورك بالعلم . إن الغالبية العظمى من القادة الثوريين في أمريكا اللاتينية ينسبون إلى الطبقة المتوسطة والعليا ، أي إلى المجموعات الاجتماعية التي تزدهر بينها الإيديولوجية .

إن السياسة الإيديولوجية ليست على خلاف مع الواقعية . فتاريخ النزعات التعصبية غني بالزعماء الحكماء الشجعان ، وبالاستراتيجيين الحذق ، والدبلوماسيين المهرة . وكان ستالين وحشي الطبع ، ولم يكن غرا . والايديولوجية ، على العكس من ذلك ، تخفف عنا الوساوس لأنها تُدخل في العلاقات السياسية ، التي هي بطبعها نسبية ، مفهوم المطلق ، الذي يكون كل شيء ، أو كل شيء تقريبا مباحا باسمه . وفي حالة الإيديولوجية الشيوعية نجد للمطلق اسما هو « قوانين التطور التاريخي » .

وترجمة هذه القوانين إلى مصطلحات سياسية وأخلاقية هو « تحرير الإنسانية » ، وهي مهمة تعهد بها هذه القوانين نفسها ، في هذا العصر ، إلى البروليتاريا الصناعية . وكل مايخدم هذا الهدف ، بما في ذلك الجرائم ، أخلاقي . ومن الذي يحدد الهدف والوسائل ؟ أهي البروليتاريا نفسها ؟ كلا ، بل طليعتها ، الحزب وزعماؤه . ومنذ أكثر من أربعين عاما ، برهن الفيلسوف جون ديوي ، في رده على ليون تروتسكي ، على زيف هذا المنطق .

ففي المقام الأول نجد أن قوانين التطور التاريخي هذه تحتمل أكثر من الشك ، وأكثر من ذلك تعرضا للشك الزعماء الشيوعيون المنوط بهم تفسيرها وتنفيذها . وثانيا ، حتى لو فرض أن لهذه القوانين قوة القانون الفيزيائي ، فكيف نستنتج منها أخلاقا ؟ إن قانون الجاذبية لا يوصف بالحسن أو السوء . وأي نظرية لا تستطيع تحريم القتل أو تصدر مرسوما بالإحسان . إن أحد النقاد يضيف : « لو أن ماركس اكتشف أن قوانين التطور التاريخي

تتجه نحو استعباد الناس لا تحريرهم ، أفيكون أخلاقيا الكفاح من أجل الاستعباد العالمي للبشرية [٣] ؟ . إن العلمية هي قناع الحكم المطلق الجديد .

ولم يرد تروتسكي على ديوي ، ولكن بعد موته لم يقل بل تضاعف عدد المؤمنين بهذه القوانين التي تمنح الإطلاقية الأخلاقية لهؤلاء الذين يعملون باسمها . وليس من الصعب التوصل إلى أصول هذه الأخلاق . إنها تفسير علماني للحرب المقدسة .

فالمطلق الجديد يفتح الباب أمام انضمام كثير من الضمائر لأنه يرضي العطش القديم الخالد للشمولية التي نعاني منها نحن البشر أجمعين . فالمطلق والشمولية هما وجها حقيقة نفسية واحدة . فنحن نبحث عن الشمولية لأنها تعمل على التوفيق بين كينونتنا المنعزلة ، اليتيمة ، الشاردة وبين الكل ، نهاية النفي الذي يبدأ بالميلاد . وهذه هي إحدى جذور الدين والحب ، كما أنها حلم الأخوة والمساواة . فنحن نحتاج إلى مطلق لأنه وحده يمكن أن يعطينا تأكيدا لحقيقة الشمولية التي اعتنقناها .

وفي البداية توحد الأخوة بين الثوريين التي تكون حتى تلك اللحظة مبرأة من البحث عن السلطة وصراع المصالح ، ويكون الأشخاص مولعين بالعدالة . إنها أُخوَّة محكومة بالمطلق ، لكنها بالاضافة إلى ذلك تحتاج من أجل تحققها كشمولية ، إلى ترسيخ نفسها تجاه الخارج ، وبذلك يولد الآخر ، وهو ليس ببساطة الخصم السياسي الذي يحمل آراء مختلفة عن آرائنا فالآخر هو عدو المطلق ، وهو العدو المطلق . ينبغي إبادته . إنه حلم بطولي عنيف .. وتيقظ رهيب : فالآخر هو صنونا .

دفاع عن الديموقراطية :

في بداية عام ١٩٨٠ نشرت في عدة صحف بأمريكا وإسبانيا سلسلة تعليقات سياسية عن العقد الذي مضى . وفي آخر مقال منها (ظهر في المكسيك في ٢٨ يناير عام ١٩٨٠) قلت : « لقد رسم سقوط سموزا تساؤلا لا يجرؤ أحد أن يجيب عليه حتى الآن وهو : هل النظام الجديد سيتجه نحو إقامة ديموقراطية اشتراكية ، أو سوف يحاول فرض دكتاتورية

---

(٣) Baruch Knei-Paz, The Social and Political Thought of Leon Trotsky, Oxford University Press, 1978.

على مثال دكتاتورية كوبا ؟ ولعل ثاني شيء هو بداية سلسلة من المشاكل الرهيبة في أمريكا الوسطى ، والتي ستمتد بالتأكيد إلى المكسيك ، وفنزويلا ، وكولومبيا . وهذه المشاكل لن يكون لها (وليس لها) طابع قومي فقط ولا يمكن أن تنغلق داخل حدود كل بلد . فصراعات أمريكا الوسطى لها بعد دولي بسبب القوى والإيديولوجيات المتصارعة . وبالاضافة إلى ذلك ، فهي ظواهر معدية مثل الأمراض الوبائية ، لا يستطيع أي حجر صحي أن يعزلها . فالواقع الاجتماعي والتاريخي في أمريكا الوسطى لا يتفق مع تقسيمها بطريقة مصطنعة إلى ستة بلاد .. ولعله من باب الوهم التفكير في أن هذه المشاكل يمكن عزلها ، إنها جزء من الصراعات الإيديولوجية والسياسية والعسكرية لعصرنا .

وقد أكد الواقع تخوفاتي . فسقوط سموزا ، الذي قوبل بفرح من جانب الديموقراطيين والاشتراكيين الديموقراطيين في أمريكا اللاتينية ، كان نتيجة حركة شارك فيها كل شعب نيكاراجوا . وكما يحدث دائما فإن مجموعة من القادة التي برزت خلال الكفاح توضع على رأس النظام الثوري . وبعض إجراءات الحكومة الجديدة ، التي استهدفت إقامة نظام اجتماعي أكثر عدالة في بلد خربه القوميون والأجانب منذ أكثر من قرن ، قوبلت بالتصفيق .

كما أثار قرار الحكومة بعدم تطبيق عقوبة الإعدام على أتباع سموزا تعاطفا معها . ولكن ما إن عرف الناس أنهم يريدون تأجيل الانتخابات حتى عام ١٩٨٥ حتى أصيبوا بالإحباط (والآن يدور الحديث عن تأجيلها لفترة غير معلومة) ، إن شعبا بدون انتخابات حرة هو شعب ليس له صوت ولا بصر ولا أذرع .

أما الاجراءات المتخذة خلال السنوات الأخيرة مثل أقلمة المجتمع ، والتهجم على الجريدة الوحيدة الحرة ، وإحكام الرقابة على الرأي العام التي تزداد كل يوم صرامة ، وتغليب النزعة العسكرية ، والتجسس المنتشر بحجة إجراءات الأمن ، ولغة القادة وتصرفاتهم التي تبدو كل يوم أكثر تسلطا ، كل هذه علامات تذكرنا بالطريق الذي سارت فيه ثورات أخرى ، انتهت بالتجمد الشمولي .

وبالرغم من الصداقة والدعم الاقتصادي والمعنوي والسياسي الذي قدمته حكومتنا لحكومة ماناجوا Managua ، فليس سرا أن عيون القادة الساندينيين لا تتجه نحو

المكسيك وإنما نحو هافانا بحثا عن التوجيه والصداقة . إن توجهاتهم نحو كوبا والاتحاد السوفيتي ظاهرة . وفي المجال الدولي كان من أول أعمال الحكومة الثورية التصويت في مؤتمر الدول غير المنحازة (هافانا ، ١٩٧٩) على الاعتراف بالنظام الذي فرضته قوات فيتنام على كمبوديا . ومنذ ذلك الحين والاتحاد السوفيتي يتمتع بصوت جديد في المراكز الدولية . أنا أعرف أنه ليس من السهل على أي نيكاراجوي نسيان التدخل المشئوم للولايات المتحدة ، منذ أكثر من قرن ، في الشئون الداخلية لبلدهم ، وأيضا تورطها مع عائلة سموزا ولكن هل الأضرار الماضية التي تبرر معاداة أمريكا تبرر الاتجاه نحو السوفييت ؟ إن حكومة ماناجوا كان يمكنها استغلال صداقة المكسيك وفرنسا وجمهورية ألمانيا الاتحادية ، فضلا عن تعاطف قادة الدولية الثانية ، من أجل اكتشاف طريق عمل مستقل لا يسلمهم لواشنطن ولا يحول بلادهم إلى رأس جسر للاتحاد السوفيتي . لم يفعلوا ذلك . فهل يجب على المكسيكيين أن يستمروا في عرض صداقتهم على نظام يفضل أن يصادق قوما آخرين ؟ .

لقد نشر جبريل زايد Gabriel Zaid في العدد رقم ٥٦ من مجلة « العودة » Vuelta شهر يوليو ١٩٨١ ، مقالا يُعد أفضل تحقيق قرأته عن السلفادور ، بالإضافة لكونه تحليلا توضيحيا للوضع في هذا البلد . ومقال زايد يثبت أن منطق الإرهاب هو منطق المرايا ، فصورة القاتل الذي يرى الإرهاب ليست صورة خصمه وإنما هي صورته نفسه .

وهذه الحقيقة النفسية والأخلاقية هي أيضا سياسية ؛ إن إرهاب العسكريين وأقصى اليمين يمتد في إرهابية محاربي العصابات . ولكن لا مجلس القيادة ولا المحاربون يمثلون كتلا متجانسة ، إنهم منقسمون إلى عدة مجموعات واتجاهات . ولهذا فإن زايد يشير إلى أن إمكانية الحل قد لا تكون في إبادة أحد الطرفين المتصارعين ، وإنما تتمثل في إيجاد مجموعات ، من هؤلاء وأولئك ، لديهم إصرار على استبدال الحوار بالسلاح . وهذا ليس مستحيلا ، فالغالبية العظمى من أهل السلفادور ، بصرف النظر عن إيديولوجية كل منهم ، يقفون ضد العنف ، سواء كانوا من اليمين أم من العصابات ويتطلعون للعودة إلى الطرق السلمية والديموقراطية . وقد أثبتت انتخابات ٢٨ مارس صحة تحليل زايد ؛ فبالرغم من العنف الذي أطلقه المحاربون ، خرج الشعب إلى الشارع وانتظر خلال ساعات ، معرضا نفسه لطلقات الرصاص وللقنابل ، حتى أدلى بصوته . إنه مثال مثير للإعجاب وعدم اهتمام الكثيرين بهذه البطولة السلمية علامة أخرى على حقارة الزمن الذي نعيش فيه .

إن معنى هذه الانتخابات ليس فيه شك ؛ ذلك أن غالبية أهل السلفادور يميلون نحو الشرعية الديموقراطية وقد جاء التصويت لصالح الحزب الاشتراكي المسيحي الذي يتزعمه دوارتي ، ولكن تحالف أحزاب اليمين واليمين المتطرف يمكن أن يسرق منه النصر . وهو وضع كان يمكن تجنبه لو أن المحاربين قبلوا المواجهة الديموقراطية ، وطبقا لتقدير مراسل النيويورك تايمز في السلفادور كان يمكن أن يحصلوا على نسبة من ١٥٪ إلى ٢٥٪ من الأصوات . إنه امتناع مأسوي . ذلك أن اليمينيين إذا تسلموا السلطة ، فسوف يطيلون أمد المشكلة ، ويتسببون في ضرر لا يمكن إصلاحه : وسواء كسبوا هم أم كسب المحاربون فالديموقراطية هي المهزومة[٤] .

ففي وضع أمريكا الوسطى فإن التاريخ الكامل لبلادنا مسجل وكأنه مكتوب بمسمار . وفك رموزه يعني التأمل في أنفسنا ، وقراءة صورة مصائبنا . وأول شيء كانت له نتائج مشئومة هو استقلالنا ، فعندما تركنا المستعمر قسَّمنا .

وقد أدت التجزئة إلى تضاعف الحكام الغاشمين ، وأدت الصراعات بين هؤلاء إلى تسهيل تغلغل الولايات المتحدة . وبهذا فإن أزمة أمريكا الوسطى ذات وجهين :

أولهما : لقد أحدثت التجزئة تفرقا ، وانقلب التفرق ضعفا ، ثم انتهى الضعف اليوم إلى أزمة في الاستقلال ، فأمريكا الوسطى مجال معركة بين القوتين العظميين .

وثانيهما : إن هزيمة الديموقراطية تعني استمرار المظالم والبؤس الجسدي والأخلاقي ، أيا كان الكاسب ، الكولونيل أو رئيس الشرطة . إن الديموقراطية والاستقلال حقيقتان تكمل كل منهما الأخرى ولا يمكن الفصل بينهما ، وفقدان الأولى يعني فقدان الثانية وبالعكس . ولا بد من مساعدة أهل أمريكا الوسطى كي يكسبوا المعركة المزدوجة : معركة الديموقراطية ومعركة الاستقلال .

ولعله ليس من الوقاحة أن أعيد ذكر خلاصة المقال الذي أشرت إليه من قبل : « إن السياسة الدولية للمكسيك قامت في العادة على مبدأ عدم التدخل .. لقد كانت ومازالت شعارا قانونيا ، وسلاحا شرعيا . لقد دافعت عنا وبها دافعنا نحن عن آخرين . ولكن

---

(٤) كتبت هذه السطور بعد يومين من انتخابات السلفادور . وللأسف فإن الوضع الذي جاء بعد ذلك أكد مخاوفي .

هذه السياسة اليوم غير كافية . ولعله أمر غير مفهوم أن تغمض حكومتنا عيونها أمام وضع القوى الجديد في القارة الأمريكية .

فأمام أوضاع مثل التي يمكن أن تحدث في أمريكا الوسطى لا يكفي أن نتكلم عن مذاهب تجريدية ذات طابع سلبي ، فلدينا مبادىء ومصالح علينا أن ندافع عنها في هذه المنطقة . ولا يعني هذا أن نتخلى عن مبدأ عدم التدخل ، وإنما أن نعطيه مضمونا إيجابيا ، إننا نريد أنظمة ديموقراطية ومسالمة في قارتنا . نريد أصدقاء ، لا عملاء مسلحين بواسطة قوة إمبريالية » .

إن مشاكل أمريكا اللاتينية ، كما يقال ، مشاكل قارة تحت التنمية ، وهذا المصطلح خاطىء ، لأنه رأى أكثر منه وصفا . يقول ولكن لا يفسر . ويقول القليل : تحت التنمية في ماذا ، ولماذا ، وبالنسبة لأي نموذج أو قياس ؟ إنه مفهوم تكنوقراطي يستهين بالقيم الحقيقية لكل حضارة ، وبطبيعة كل مجتمع وروحه ، إنه مفهوم عنصري مركزي . وهذا لا يعني أن نتجاهل مشاكل بلادنا مثل : الاعتماد الاقتصادي والسياسي والثقافي على الخارج ، والمظالم الاجتماعية الأثيمة ، والفقر المدقع بجانب الثروة والتبذير ، وغياب الحريات العامة ، والقمع ، والحكم العسكري ، وعدم استقرار المؤسسات ، والفوضى ، والديماجوجية ، وانتشار الخرافات ، والخطابية الجوفاء ، والكذب وأقنعته ، والفساد ، وتخلف المواقف الأخلاقية ، وسيطرة الذكورة ، والتأخر في العلوم وفي التكنولوجيا ، وعدم التسامح في مجال الآراء ، والمعتقدات والعادات . المشاكل إذن واقعية ، فهل طرق علاجها كذلك ؟ إن أكثر هذه الطرق راديكالية قد أعطى النتائج التالية بعد خمسة وعشرين عاما من التطبيق : فالكوبيون اليوم فقراء أو أشد فقرا من ذي قبل ، كما أنهم أقل حرية بكثير ، والفروق الاجتماعية لم تختف ، ذلك أن الدرجات مختلفة لكنها ليست أقل بل هي أكثر صرامة وشدة ، والقمع مثل الحرارة ؛ مستمر ومكثف وعام ، والجزيرة مازالت معتمدة في الاقتصاد على السكر ، وفي السياسة على روسيا . فالثورة الكوبية تجمدت : إنها بلاطة من الحجارة سقطت على الشعب . وفي الطرف الآخر أطالت الدكتاتوريات العسكرية حالة الأشياء الوخيمة الظالمة ، وألغت الحريات العامة ، ومارست سياسة قمع قاسية ، ولم تستطع حل المشاكل الاقتصادية . وفي كثير من الحالات زادوا المشاكل الاجتماعية حدة . وماهو أخطر من ذلك ، كانوا وما زالوا غير قادرين على حل

المشكلة السياسية الرئيسية في مجتمعاتنا ، وهي مشكلة التعاقب ، أي مشكلة شرعية الحكومات . وبهذا فإنهم زرعوا عدم الاستقرار بدلا من أن يزيلوه .

لقد وصلت الديموقراطية متأخرة أمريكا اللاتينية ، وعانت من التشويه والخيانة أكثر من مرة . كانت ضعيفة ، مترددة ، مضطربة ، عدوة لنفسها ، سهلة أمام تملق الديماجوجي ، أفسدتها الأموال ، وقرضتها المحسوبية والمحاباة . ومع ذلك ، فمعظم الأشياء الطيبة التي تمت في أمريكا اللاتينية منذ قرن ونصف ، تمت تحت نظام الديموقراطية ، أو كما في المكسيك ، النظام المتجه نحو الديموقراطية . ولكن مازال هناك الكثير ينتظر الفعل .

إن بلادنا تحتاج إلى تغييرات وإصلاحات جذرية ومتفقة مع تراث كل شعب وعبقريته في الوقت نفسه . وهناك حيث حاول بعضهم تغيير الهياكل الاقتصادية والاجتماعية ، مع إزالة المؤسسات الديموقراطية في الوقت نفسه لم تقوَ إلا المظالم والقمع والفروق الطبقية . إن قضية العمال تتطلب ، قبل كل شيء ، حرية النقابة وحق الإضراب ، وهذا هو أول ماينتزعه منهم محرروهم . وبدون ديموقراطية تأكل التغييرات نفسها ، أو بتعبير أصح لا تكون تغييرات . وفي هذا تكون الصلابة لازمة ولا بد أن نعيد القول : إن التغييرات لا تنفصل عن الديموقراطية . والدفاع عن الديموقراطية يعني الدفاع عن إمكانية التغيير ، والتغييرات وحدها تستطيع ، بدورها ، أن تقوي الديموقراطية وتجعلها في النهاية متجسدة في الحياة الاجتماعية . إنها مهمة مزدوجة وهائلة . وليست منوطة بأهل أمريكا اللاتينية فقط ، بل إنها مهمة الجميع . فالمعركة عالمية ، وهي ، بالإضافة إلى ذلك ، غير مؤكدة ، ومشكوك فيها . لا يهم : يجب أن ندخل في هذه المعركة .

□ □ □

□ الفصل الثالث □

رســـالة الحـــرية

إن الطبقات العليا في أوروبا أخذت تتأمل برضى مخزٍ أو بشفقة مدّعاة ، أو بلا مبالاة غبية ، غزو الروس لحصن القوقاز الجبلي وقتل بولندة البطلة . إن التدخلات الهائلة ، التي لا تقاوم إطلاقا ، لهذه القوة البربرية التي تقبع رأسها في سان بطرسبورج ويداها النشطتان تعملان في كل السفارات الأوروبية ، قد علمت العمال أن عليهم واجبا هو التغلغل في أسرار السياسة الدولية ، ومراقبة مناورات حكومة كل منهم ، والوقوف ضدها بكل الوسائل الممكنة إذا لزم الأمر .. وإدانتها والمطالبة بالقوانين الأولية للأخلاق والعدالة ، التي يجب أن تحكم العلاقة بين الناس وكأنها قاعدة سامية للعلاقات بين الشعوب . إن الكفاح من أجل هذه السياسة الأجنبية جزء من الكفاح لإطلاق سراح الطبقات العاملة .

(**كارل ماركس**)

(**الخطاب الافتتاحي لرابطة العمال الدولية ــ لندن ١٨٦٤**)

زرع الرياح :

إن بولندة بلد كبير بتاريخه ، لا بحجمه ولا بعدد سكانه . فأرضه أقل قليلا من سدس أرض المكسيك ، وعدد سكانه أكثر قليلا من نصف عدد سكان المكسيك . وتقع بولندة فيما بين السهل الروسي الواسع وبداية شبه الجزيرة الأوروبية الوعرة ، بين منطقة البرد الشديد ومنطقة المناخ المائل للاعتدال ، وكلمة « بين » لا تحدد جغرافية بولندة فقط ، وإنما تحدد تاريخها وثقافتها .

فالبولنديون من الجنس السلافي وهذا يجعلهم مختلفين عن جيرانهم الجرمان ، الذين هم بدورهم منفصلون عن الروس ، لأن الروس سلافيون أيضا بالثقافة والدين والتاريخ . وبين البروسيين البروتستانت والروس الأورثوذكس استطاعت بولندة أن تحتفظ بثقافتها القومية ، العميقة في كاثوليكيتها والتي تحمل علامات كثيرة مأخوذة عن الحضارة اللاتينية . ومنذ القرن الثامن عشر عاش البولنديون ، أولا بين ضغوط الإمبراطورية الروسية وضغوط إمبراطوريتي النمسا وبروسيا ، وبعد ذلك ، في العصر الحديث عاشت بين هتلر وستالين . وكانت أرضها معبراً لجيوش الغرب الغازية ــ نابليون ، جيوم الثاني ، وهتلر ــ المتجهة نحو روسيا ، كما كانت أيضا طريقا للقوات القيصرية والسوفييتية نحو أوروبا . وهذه الحتمية الجغرافية ، التي تشبه الصلات الثقافية أو تزيد عليها ، جعلت بولندة تبحث ، في الغالب عن التحالف مع فرنسا وانجلترا . وهما حليفان غير مخلصين في بعض الأحيان .

وتاريخ الدولة البولندية ، منذ نشأتها في القرن العاشر ، هو تاريخ الحروب المتواصلة ضد الأمراء الروس ، وفرسان النظام التوتوني ، والملوك السويديين ، والقادة المغول والسلاطين الأتراك . وهذه التهديدات الخارجية كان يقابلها عدم استقرار داخلي . فبولندة كانت ملكية انتخابية ، وكان المنتخبون الكبار هم النبلاء ، وهي طبقة مضطربة وغيورة على امتيازاتها .

وهذا النظام ، الذي يمثل منبعا للحريات وللفوضوية في آن واحد ، كان يثير الخلافات ، ويؤدي إلى الحروب الأهلية ويفتح الطريق أمام التدخلات الأجنبية . وفي نهايات القرن الثامن عشر اضطر العرش البولندي أن يدخل في مواجهة ثلاثة أعداء أقوياء هم روسيا وبروسيا والنمسا .

ففي عام ١٧٧٢ غزت الإمبراطوريات الثلاث بولندة واستولوا على ٣٠٪ من أراضيها . وإزاء هذه الخصومة ، قامت مجموعة من الوطنيين تحت تأثير ثورة الولايات المتحدة واستقلالها وفكر مونتسكيو وروسو ، بحركة إصلاح قومية انتهت بدستور ١٧٩١ . وكان هذا أول دستور مكتوب في أوروبا منذ العهد القديم الإغريقي الروماني . وكان الدستور يركز على ثلاثة مبادىء : السيادة الشعبية ، والفصل بين السلطات الثلاث ومسئولية الوزراء أمام البرلمان .

وقد استمرت الديموقراطية البولندية الشابة مدة قصيرة ، فقد رأت امبراطورة روسيا « قطالينا » أن التجربة فيها قلب للنظام ، ومن ثم غزت القوات الروسية بولندة عام ١٧٩٢ ، وتبعتها جيوش بروسيا والنمسا . وهذا التقسيم الثاني تبعه تقسيم آخر نهائي عام ١٧٩٥ . وقد اختفت بولندة كأمة ذات سيادة . ولم تحصل على استقلالها إلا بعد ذلك بقرن من عام ١٩١٨ .

وخلال القرن التاسع عشر لم يتوقف البولنديون عن الكفاح من أجل الحفاظ على هويتهم . كان بعضهم يتطلعون للنظام المعروف بالحكم الذاتي **Autonomia** وبعضهم الآخر ، الأكثر راديكالية ، للاستقلال الكامل . وفي بدايات هذا القرن أبدى حزبان سياسيان رغبتهما العلنية في الاستقلال ، وهما حزب القوميين الديموقراطيين وحزب الاشتراكيين الديموقراطيين . والآخرون كانوا تحت قيادة يوسف بلسودكي **Josef Pilsudski** .

أما الجناح اليساري للاشتراكيين الديموقراطيين ، الواقع تحت التأثير الفكري والسياسي لروسا لوكسمبرج ، فكان ينادي بسقوط الحكم الروسي المطلق ، وينادي بقيام ثورة اشتراكية دولية ، ولم يكن من بين أهدافه استعادة السيادة القومية لبولندة .

وقد رأت روسيا بوضوح تام أن إلغاء الحريات لن يتأخر في تحويل الثورة البلشفية إلى حكم مطلق رجعي آخر ، ومع ذلك فإنها لم تدرك أهمية القومية والتأثير الذي سيكون لها في القرن العشرين . إنه عمى غريب في ذهن شديد النفاذ . وعلى العكس من ذلك كان بلسودكي قوميا قبل أن يكون اشتراكيا وديموقراطيا .

وقد قال في عام ١٩١٤ قولا صائبا قبيل نشوب الحرب : « إن استقلال بولندة يمكن أن يتم في حالة واحدة هي إذا هزمت روسيا أولا من ألمانيا ، ثم هزمت ألمانيا بعد ذلك من انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة » وحدثت هذه التوقعات . ففي عام ١٩١٨ ، عند سقوط الامبراطوريات الكبرى تم إطلاق سراح بلسودكي من أحد سجون ألمانيا ، وعاد إلى وارسو ، وأصبح على رأس الحكومة القومية البولندية وجيشها . لقد استعادت بولندة استقلالها .

وقد منحت معاهدة فرساي لبولندة الأراضي التي كانت تحت سيطرة النمسا وألمانيا . ولكن السكان الألمان كانوا أغلبية كبيرة في بعضها . وقد أساء وضع هذه الأراضي إلى العلاقات بين بولندة وجمهورية ألمانيا الجديدة . كما كانت الحدود مع روسيا أيضا سببا لخلافات خطيرة . وعندما انسحب الألمان من هذه المنطقة تقدمت نحوها الجيوش البولندية والروسية ، كل من جهته .

كان البلشفيون يهدفون إلى تحقيق الثورة بالسلاح في أوروبا الوسطى ، أي ألمانيا ، وكما جاء على لسان لينين : « لا بد من هدم السور (بولندة) الذي يفصل روسيا السوفييتية عن ألمانيا الثورية » . كان البولنديون يودون الاستيلاء على بعض الأراضي . ففي ديسمبر عام ١٩١٩ اقترح وزير خارجية بريطانيا العظمى لورد كورثون على موسكو ووارسو هدنة على طول المواقع التي احتلها جيش بولندة ، وهو الخط المسمى بخط كورثون . ولكن الوضع في الجبهة تغير . فقد قام الروس في فبراير ١٩٢٠ بهجوم ، وبعد أن أحرزوا بعض الانتصارات الأولية تم وقف زحفهم وهزموا في أغسطس وسبتمبر . وفي العام التالي وقعت معاهدة سلام ثم مدت بولندة حدودها إلى مابعد خط كورثون . وهو خط مشئوم ، كما سوف يُرى بعد عشرين عاما من ذلك التاريخ .

محصول العواصف :

رسخت قواعد الدولة البولندية فيما بين عامي ١٩١٨ ــ ١٩٣٨ . ومع ذلك لم تستطع الحكومات المتعاقبة ــ وكلها تقريبا كانت تحت تأثير بلسودكي السياسي الكبير والجنرال الطيب وإن لم يكن رجل دولة غير كفء ــ ولا الطبقات القائدة

أن تحل كل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة في البلاد . وفي المجال الدولي ، استمرت بولندة في سياستها التقليدية بصداقة فرنسا وانجلترا .

ولكن بعث القومية الجرمانية ، ثم انتصار هتلر فيما بعد ، جعل من المستحيل حدوث أي تفاهم مع ألمانيا . وفي الشرق لم تستطع الحكومة البولندية أيضا أن تقيم علاقات طيبة مع ستالين . ومع ذلك ، عقد البولنديون ، في عام ١٩٣٢ ، معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتي ، وفي عام ١٩٣٤ عقدوا معاهدة أخرى مع ألمانيا النازية . وقد انتهك هتلر وستالين كلا من هاتين المعاهدتين . ففي عام ١٩٣٨ ، بعد عدة سنوات من الفوضى الداخلية ، التي زادت خطرا بالتهديدات الخارجية ، حدث بعث للنزعة الوطنية البولندية بلغ أيضا مجموعات اليسار .

وكان رد فعل ستالين هو أن حل الحزب الشيوعي البولندي ، واتهم قادته بأنهم جواسيس رأسماليون وعملاء مثيرون للشغب . وقد استدعى لنسكي **Lenski** السكرتير العام للحزب لموسكو ونفذ فيه حكم الإعدام بعد ذلك . وجرى نفس المصير على قادة آخرين مؤسسين للحزب ومن رفقاء لينين مثل واركي **Warski** ووراليكي **Waleski** وفيرا كوسترزيوا **Vera Costrozewa** . كان حل الحزب الشيوعي البولندي وإبادة قيادته نذيرا بما سوف يأتي بعد ذلك . ففي ٢٣ أغسطس عام ١٩٣٩ ، وقع وزيرا خارجية هتلر وستالين ، وهما ريبنتروب **Ribbentrop** ومولوتوف **Molotov** على التوالي ، معاهدة عدم اعتداء . وكانت المعاهدة تتضمن بندا سريا يقضي بتقسيم بولندة بين القوتين . وفي أول سبتمبر قامت القوات النازية بغزو بولندة وقضت على الجيش البولندي في أسبوعين . وفي ١٧ سبتمبر تقدم الروس واحتلوا منطقة واسعة من بولندة تمتد حتى خط كورثون القديم .

ومن الصعب أن نجد في التاريخ شيئا يشبه عنف وقسوة الاحتلال الألماني لبولندة . ويقال إن حوالي ستمائة ألف شخص قتلوا نتيجة العمليات العسكرية ، ولم تكن غالبيتهم (نصف مليون) من المحاربين وإنما من المدنيين . وكانت الإبادة الجماعية في معسكرات الاعتقال أكثر بشاعة من ذلك ، فقد قتل حوالي خمسة ملايين ، أغلبهم من أصل يهودي . وساد الرعب أيضا في المنطقة التي تحتلها روسيا .

ويجب أن يضاف إلى ذلك سياسة نفي قرى بأكملها ، وهي سياسة مارستها القوتان . ومع ذلك ظهرت المقاومة البولندية شيئا فشيئا . فقد شكلت حكومة في المنفى أقامت أولا في باريس ، ثم في لندن بعد سقوط فرنسا . ولكن الاحتلال الروسي لجزء من بولندة وضع الحكومة البريطانية في وضع خاطىء . فمن جهة كانت قد وعدت بولندة بالمساعدة ، حيث كانت حليفتها ، ومن جهة أخرى لم تكن تريد إثارة عداوة روسيا .

وقد غسل وزير الخارجية البريطاني لورد هاليفاكس **Lord Halifax** يديه من المشكلة عندما أشار إلى أن قوات الاحتلال الروسية وصلت إلى خط كورثون فقط . وكان هذا أساس اتفاقيات يالطا **Yalta** ، بشأن الحدود بين بولندة والاتحاد السوفيتي .

وفي ٢٢ يونيو عام ١٩٤١ بدأ الهجوم الألماني ضد روسيا . وبذلك تغيرت فورا علاقة الحكومة البولندية في المنفى مع موسكو . ومع هذا فإن تحسن العلاقات بين الحكومتين كان نسبيا وسريع الزوال . فقد فرقت بينهما مشكلة الحدود : فستالين كان يريد الاستيلاء مرة أخرى على الأراضي التي فقدتها روسيا خلال الحرب العالمية الأولى ، كما كانت الحكومة السوفييتية ، وريثة السياسة الإمبريالية للقياصرة ، تريد مد هيمنتها على بولندة وتشيكوسلوفاكيا والبلقان ، بينما روزفلت وتشرشل لم يكونا يرغبان أو لم يستطيعا الوقوف في وجه تطلعات ستالين . وفي أبريل عام ١٩٤٣ أعلنت الحكومة البولندية في المنفى أنها اكتشفت قتل خمسة عشر ألف ضابط بولندي من المسجونين ، نفذ فيهم حكم الإعدام في مايو عام ١٩٤٠ بقرية كاتين **Katyn** .

وقد حمل الألمان مسئولية المذبحة للروس ، وطلبت الحكومة البولندية تفسيرا من موسكو . وردت الحكومة السوفييتية قائلة : إن الألمان هم الذين نفذوا المذبحة . وقد طلب البولنديون أدلة ، كما طلبوا بأن يسمح للصليب الأحمر الدولي بمعاينة المقابر .

وكان رد ستالين هو قطع العلاقات مع الحكومة البولندية في لندن . ومن جديد تعامت كل من الولايات المتحدة وانجلترا وتحفظتا على احتجاجات البولنديين ، الذين

وضعوا صداقتهم مع الاتحاد السوفيتي في خطر .

وفي عام ١٩٤٣ تمردت جماعات الجيتو Ghetto في وراسو ، وهو عمل يائس ، ثم بعد ذلك بثلاثة أسابيع سيطر النازيون على المتمردين وقتلوا اليهود الذين ظلوا على قيد الحياة . وفي العام التالي كانت وارسو مسرحا لتضحية أخرى ، فقد انتفض الجيش البولندي ، في الداخل ، المكون من أتباع المقاومة ، الوطنيين ، وتم القضاء على هذه الانتفاضة أيضا أمام لا مبالاة القوات الروسية التي لم تحرك إصبعا لصالح المتمردين ، كما لم يقدم لهم الغرب أية مساعدة . وهكذا ترك ستالين النازيين يقضون على أتباع الحكومة البولندية في لندن ، وعندئذ استأنف الروس تقدمهم .

ويتضح موقف ستالين — وإن كان لا يمكن تبريره — إذا عرفنا أنه في عام ١٩٤٢ ، وعلى الأرض الروسية ، أعيد تشكيل الحزب الشيوعي البولندي المنحل ، كما انشئت لجنة التحرير الوطني تحت حمايته ورعايته ، وهذه اللجنة هي أصل حكومة الوحدة الوطنية . إن هزيمة تمرد وارسو تركت الطريق مفتوحا أمام الحكومة الجديدة ذات الاتجاه الشيوعي . وكان أحد قادتها الرئيسيين هو لاديسلاو جومولكا Ladislao Gomulka .

وفي يالتا ، عام ١٩٤٥ ، قرر روزفلت وتشرشل ترك حليفتهم القديمة ، وهي الحكومة البولندية في لندن ، واعترفا بالحكومة التي تحميها موسكو . وبعد ذلك بقليل حاول ترومان وتشرشل ، في مؤتمر بوستردام ، تصحيح هذه السياسة ، ولكن كان الوقت متأخرا : فقد أصبح كل شيء على مايرام . لقد استعاد الاتحاد السوفيتي كل مافقده عام ١٩١٨ ، أي أنه عاد إلى الحدود الإمبريالية القيصرية القديمة ، كما استولى على جزء من بروسيا الشرقية بعاصمتها القديمة (كونسبرج) ، التي أسسها في القرن الثالث عشر فرسان النظام التوتوني ، والتي قام الفيلسوف كانت بالتدريس في جامعتها . وتسمى كونسبرج الآن كالينينجراد Kaliningrad ، نسبة إلى كالينين Kalinin ، صديق ستالين . ولتعويض بولندة ، امتدت أرضها إلى الطرف الغربي ، حتى وصلت إلى الخط الذي يصنعه نهرا أودر Oder ونيس Neisse . ولكن المكسب الأكبر تمثل في إقامة حكومة شيوعية في بولندة تربطها بحكومة الاتحاد السوفيتي روابط الإخلاص والصداقة غير المشروطين .

كان لينين وتروتسكي يريدان تصدير الثورة عن طريق السلاح إلى بولندة وألمانيا في قلب أوروبا . وكانا يعتقدان في سذاجة أن الشعوب عندما ترى الجيوش الحمراء سوف تنهض وتنضم إليها . ولكن ستالين كان أكثر واقعية ووقاحة ، حيث فرض بالقوة نظاما شيوعيا على شعب لم يكن (وليس) شيوعيا . كان عملا من أعمال القوة ، ومن أعمال الحيلة أيضا ، ذلك أن الدبلوماسية السوفييتية عرفت كيف تستخدم أنانية القوى الغربية وتعاميها . وكل ماحدث بعد ذلك كان نتيجة لهذا الحدث الأوَّلي ، الرئيسي ، فلم تكن ثورة شعبية إذن ، وإنما جاءت الشيوعية إلى بولندة بطريق الإلزام العسكري الأجنبي .

وحدث نفس الشيء ، مع بعض الاختلافات البسيطة ، في تشيكوسلوفاكيا ، وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا وألمانيا الشرقية . وهذا هو الفرق الكبير بين هذه البلاد وبين يوغسلافيا والصين ، وهما البلدان اللذان وجدت فيهما بالفعل حركات شيوعية وطنية . فالشيوعية البولندية لم تكن وليست وطنية ، وهذه هي لوحة أصلها . ومنذ مولدها ، كانت تعبيرا عن إيديولوجية قوة أجنبية وأداة لمصالحها الإمبريالية . ولو بعث ماركس لأصابه الاشمئزاز أمام هذا القلب لأفكاره . لم يكن ماركس إذن هو الذي أصاب وإنما ميكافيللي .

الاشتراكية اللاواقعية :

في الأشهر الأخيرة من الحرب اتحد البولنديون في المعركة ضد النازيين ، بالرغم من انقساماتهم الداخلية ؛ فبعضهم حارب إلى جانب الحلفاء ، وبعضهم الآخر إلى جانب الروس . ولكن هذا لم يفدهم في شيء . فبالرغم من أن الحكومة الجديدة ضمت بعض الشخصيات السياسية ذات النزعة الديموقراطية ، فإن الشيوعيين كانوا مسيطرين عليها منذ البداية . وفيما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨ تحولت بولندة إلى « ديموقراطية شعبية » .

وخلال هذه الفترة استولى الشيوعيون على الدولة ، وعلى وسائل الإنتاج وعلى المنتجين أنفسهم (أي العمال) كما حدث في مناطق أخرى . أما الأحزاب السياسية القديمة فقد لجأت إلى الخفاء ، حتى اختفت بمطاردة البوليس السياسي لها . وبعد

ذلك بفترة ولدت المعارضة من جديد بأفكار جديدة وتكتيكات سياسية أخرى . وقام شيوعيان مجرَّبان كلاهما تلقى تعليمه في الاتحاد السوفيتي هما لاديسلاو جومولكا Ladislao Gomulka وبوليسلاو بيروت Boleslao Bierut بإدارة الحزب والدولة . ومنذ الأيام الأولى ظهرت العلامة المميزة لنظام السيطرة البيروقراطية ، التي تطلق على نفسها ، بدون دقة ، اسم « الاشتراكية » : أي المزج بين الحزب والدولة .

وفي عام ١٩٤٨ نشبت أول أزمة . فبالرغم من أن جومولكا كان دائما صديقا للاتحاد السوفيتي ومتعاونا معه فإنه اختلف مع سياسة ستالين في موضوعين : فقد عارض جماعية الزراعة ، كما عارض إدانة تيتو . ومن ثم فقد وجهت له تهمة « الانحراف الوطني » ، وأقيل من مناصبه ثم اعتقل مع آخرين من زملائه وأتباعه . وتسلم منافسه بيروت السلطة وهو المعروف باسم « ستالين البولندي » لانقياده له . وقد عُين معه وزيرا للدفاع ، أحد العسكريين الروس من أصل بولندي هو الماريشال روكوسويسكي Rokossowsky .

والحزب ليس هو الدولة فقط ، إنه أيضا كنيسة ، وتشريعه يطول الضمائر . وكان صدام الحزب مع الكنيسة الكاثوليكية كارثة . فمنذ القرن العاشر حملت الكنيسة الكاثوليكية هوية الأمة البولندية ، ومهاجمة الأمة تعني مهاجمة الكنيسة ، والعكس صحيح . وكما في حالة جومولكا ، وإن كانت هذه أكثر تركيزا ، نجد أن الخلافات ذات الطابع المذهبي والسياسي اصطبغت فورا بطابع قومي . وهذا هو أحد الموضوعات الشائعة في تاريخ بولندة ، وهو يعود للظهور ، بشكل أكثر أو أقل خفاء ، في الأحداث البارزة خلال السنوات العشرين الأخيرة . وكانت نتيجة المواجهة بين الكنيسة والدولة ــ الحزب هي نفس نتيجة المشكلة التي حدثت مع جومولكا ؛ ذلك أن الكاردينال ويسنسكي Wyszinsky أودع السجن .

إن موت ستالين وسياسة التحرر التي اتبعها خروشوف أثرت على بولندة مثلما أثرت على باقي دول أوروبا الشرقية . كما أن إدانة جرائم ستالين خلال المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي الروسي ، التي لم يكن أمام بيروت Bierut إلا أن يسمعها ويصفق لها قبل موته بقليل ، عجلت بانتفاضة بولندة . ففي يونيو عام

١٩٥٦ اندفع عمال المنطقة الصناعية في بوثنان Poznan نحو الشارع مطالبين بالخبز ، وحرية تكوين النقابات ، والانتخابات الحرة وخروج الروس .

وفي اليوم التالي تكفل الجيش بإعادة النظام : أكثر من خمسين عاملا قتلى ، ومئات الجرحى ، وعدد غير معروف من الأسرى . ولكن البيروقراطية الستالينية اضطرت للرضوخ وعاد جومولكا إلى السلطة . كان هذا حلاً فيه بعض التورط ، ذلك أن جومولكا لم يكن عدوا للروس ، لكنه أيضا لم يكن تابعا لهم بلا شروط . فقد أجل تعاونيات الزراعة وخفف قليلا من حدة الرقابة . وأصاب الروس الذعر فأرسلوا عدة فرق عسكرية للمرابطة على الحدود ، وبدون سابق إنذار وصل إلى وارسو خروشوف ومولوتوف والماريشال كونيف وعدد آخر من كبار القادة . وأيد الشعب جومولكا ، واستطاع هو ، بمهارة ، أن يقنع حلفاءه الروس بإخلاصه لهم . ومن ثم انسحب خروشوف المندفع ، لكن بواقعية .

وهذا الحدث يتضمن درسا تاريخيا ذا شقين ، أولا : إن كفاح العمال من أجل حرية النقابة وحق الإضراب لا ينفصل عن كفاح القطاعات الأخرى من الشعب ، سواء كانوا من المثقفين ، أم الطلاب أم الفلاحين أم رجال الدين ، من أجل الديموقراطية والحرية . ومن ثم فإن أي مطالبة بالحرية في أي قطاع تنعكس على كل الجسد الاجتماعي . ثانيا : في مثل هذه الصراعات الاجتماعية ــ حتى في دسائس القصر داخل البيروقراطية الشيوعية ــ يظهر فورا الحس القومي . فالشعب الذي أيد جومولكا في أكتوبر عام ١٩٥٦ لم يكن شيوعيا ، وإنما كان وطنيا . فالموضوع المركزي لتاريخ بولندة الحديث كان يتمثل في العاطفة القومية وفي التقاليد الثقافية والدينية للشعب البولندي .

وبالرغم من أن حكومة جومولكا كانت أكثر ليبرالية من حكومة سابقيه فإنها لم تكن ديموقراطية . فقد توصلت إلى اتفاق مع الكنيسة ، ولكن الحزب ــ اللجنة المركزية ــ لم يتنازل عن ادعائه بأنه المالك الوحيد للحقيقة . واستمر النظام دكتاتوريا ، بدون حرية تعبير وبدون حرية نقابية وبدون انتخابات حرة .

وفي عامي ١٩٦٧ و١٩٦٨ أثارت الإجراءات الصارمة للحكومة ، سواء في

وسائل المعيشة مثل التغذية والملابس والنقل والإسكان أم في مجال الثقافة والفكر احتجاجات جديدة . وتجدر الإشارة إلى حدث يدل على تداخل النظام الإمبريالي الروسي ذي الطابع البيروقراطي ، فبنفس الطريقة التي كان بها التمرد العمالي في بوزنان Poznan عام ١٩٥٦ بمثابة إعلان عن ثورة قومية في هنغاريا خلال ذلك العام ، كانت احتجاجات عامي ١٩٦٧ ، و١٩٦٨ في بولندة متوافقة مع « ربيع براغ » الذي جمدته الدبابات الروسية . فالنظام الإمبريالي الروسي ، القائم على سيطرة طبقة جديدة « البيروقراطية » ، نظام قومي ودولي . المركز يقع في موسكو ، ولكن يستحدث النظام في كل بلد ، فكل بيروقراطية تشعر بالتضامن مع الأخريات ، كما تربطها بموسكو رابطة اعتماد ثلاثية : إيديولوجية واقتصادية وعسكرية . وأزمة أي منطقة تنعكس على المناطق الأخرى .

وفي عام ١٩٧٠ دفع العوز ، ونقص الأغذية وغياب الحريات العمال من جديد إلى الشارع في ميناء جدانسك Gdansk الصناعي . وقد تدافع العمال نحو مقار الحزب في تلك المدينة . واستدعى جومولكا الجيش . ووقع مئات من القتلى والجرحى ، وآلاف من الأسرى . إنها أزمة سياسية جديدة . وسقط جومولكا . وحل محله ادوارد جيريك . وكان هذا حلا آخر فيه ورطة . لقد وعد جيريك بتحديث الاقتصاد ، ورفع مستوى حياة الشعب ، وإعادة « الديموقراطية الاشتراكية » . كان مشروعه يهدف إلى جعل بولندة مجتمعا حديثا ، قادرا على إنتاج أدوات الاستهلاك ، تقريبا على طريقة هنغاريا لكن مع الاحتفاظ بنظام الرقابة والسيطرة البيروقراطية كما هو . إنه نموذج متناقض . ومن ثم انتهى كل شيء بالفشل الذريع ؛ ففي عام ١٩٨٠ بلغت ديون بولندة أكثر من ٢٣ ألف مليون دولار مفارقة كبيرة ، ذلك أن المقرضين هم حكومات الغرب ومصارفه .

ونظرا لازدياد السوء في المأكل والملبس والمعاملة ، عاد الشعب البولندي يعرب من جديد عن تذمره . ففي الجامعات والدوائر الثقافية بدأت منذ عدة سنوات حركة نقد فلسفي وأخلاقي وسياسي . وكثير من هؤلاء المثقفين المنشقين خرجوا من عباءة الماركسية ، وبعضهم الآخر من الكاثوليكية .

وبرز من بينهم جاك كورون Jacek Kuron الذي أصبح فيما بعد مستشارا لنقابة « التضامن » . وقد انضم المثقفون إلى العمال ، وفي عام ١٩٧٦ تأسست لجنة الدفاع الاجتماعي (KOR) . وبدأ العمال البولنديون عام ١٩٧٦ في تشكيل اتحادات ونقابات مثلما فعل العمال الأوروبيون والأمريكيون منذ عام ١٨٧٠ .

وبالرغم من أن هذه النقابات كانت غير شرعية وتعمل في الخفاء فإنها تضاعفت وزادت قوة . وأحد قادة هذه الحركة عامل شارك في احتجاجات عام ١٩٧٠ وهو ليش فاليسا Lech Walesa . وشخصيته أصبحت شعارا للقوى التي تحرك الشعب البولندي . وُلد ليش فاليسا في قرية قريبة من وارسو . كانت أمه فلاحة وأبوه نجارا . أما هو فعامل كهرباء . يمتلك حلتين (بدلتان) وخمسة أزواج من الجوارب ؛ إنه بروليتاري بحق . كما أنه بولندي تقليدي بحق ، كاثوليكي ، وطني ، كريم ، ولا يعبأ كثيرا بالنظام . زوجته تسمى ميروسلافا ، مثل تسمية لوبيتا في المكسيك أو كارمن في إسبانيا . والزوجان لديهما ستة أبناء .

وفي عام ١٩٧٦ طُرد فاليسا من دار بناء السفن ، وظل عدة أشهر بدون عمل وتحت رقابة البوليس ، وكان أحد منظمي نقابات البلطيق الحرة . وهو ليس مثقفا ولا منظراً (صاحب نظريات) . فلديه أفكار قليلة ، وحس عام كبير ، وإحساس قديم وفطري بالعدالة . إنه رجل من الشعب وينصهر في شخصه تراثان : عراقة الفلاحين بثقافتهم الممتدة في القرون ، وعراقة البروليتاريا الصناعية الحديثة . ولا أحد أكثر من ليش فاليسا بعدا عن سحنة العامل كما تصفها الكتب الماركسية السارة . فهو ليس كائنا فاعلا بذاته ، وإنما هو إنسان من الواقع .

وقد ساهم انتخاب كاردينال كراكوبيا « كارول وختيلا » Carol Wajtila بابا للكنيسة (البابا يوحنا بولس الثاني) بقوة في إيقاظ الروح الشعبية . وحركت زيارة يوحنا بولس لبولندة ، في عام ١٩٧٩ ، ملايين البولنديين . وكان للزيارة معنى مزدوج ، روحي وتاريخي . لقد جددت وأحيت الإيمان عند الشعب البولندي ، وفي الوقت نفسه أبرزت أمام العيان الهوية التاريخية الحقيقية لبولندة .

أي تسمية شائعة . المترجم

والملايين التي هتفت بحياة البابا أخرجت من أفواهها سرا هو الانفصال بين الشعب وحكامه ، والانفصال الجذري بين الثقافة الشعبية والثقافة الرسمية للأوليجاركية (الطبقة الحاكمة) . إن التأثير الذي مارسه شخص البابا ، والذي يتداخل فيه تراثا بولندة القومي والديني ، يكذب من جديد التفسيرات النفسية والتاريخية التي يقول بها مثقفو الغرب وأمريكا اللاتينية .

فلا الماركسية البيزنطية على طريقة ألتوسر Althusser ولا الماركسية الشعثاء الرومانتيكية على طريقة سارتر Sartre تقدم تفسيرا متناسقا لما حدث في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا وبولندة ، إن لم نتكلم عن روسيا . وتأتي تفسيرات المثقفين التقدميين في الغرب ، وبالأخص تفسيرات من يطلق عليهم الليبراليين في الولايات المتحدة ، الذين يخلطون بين التجريبية ، والوضعية ، والمازوكية ، والرياء ، تأتي على نفس النمط من النقصان .

نهاية أو بداية :

في ٢ يوليو عام ١٩٨٠ أصدرت الحكومة مرسوما بزيادة سعر اللحوم . فخرج الشعب في مظاهرات ضد هذا الإجراء ، وحدثت إضرابات في لوبلن وبوتنان ، ووصلت الحركة إلى جدانسك Gdansk . وغدت ترسانة لينين ، ويالسخرية ! ، مركزا للإضراب . وحدث انتهاك رمزي ، ذلك أن العمال قد أخفوا صورة لينين بصورة كبيرة للبابا يوحنا بولس الثاني ، مزينة بالأزهار . وقد اختار المضربون لجنة ، وحرروا قائمة بمطالبهم وهي : حرية تنظيم النقابات ، وحرية التعبير ، وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ، وزيادة المرتبات ، وتخفيض ساعات العمل ، إلخ .

ورفضت الحكومة مناقشة هذه الموضوعات . وامتدت الإضرابات . فاعتقل كورون Kuron وخمسة عشر عضوا آخرون من لجنة الدفاع الاجتماعية (KOR) . وانضم نصف مليون عامل للحركة على رأسهم فاليسا . وفي ٣٠ أغسطس قبلت الحكومة طلبات المضربين . ومن بين هذه الطلبات شيء لم يسبق له مثيل هو حق العمال في تكوين نقابات مستقلة وحق الإضراب . وكان هذا انتصارا عظيما .

وأدت هذه الأحداث إلى سقوط جريك Gierek وتعيين قائد جديد هو إستانسلاو كانيا Estanislao Kania . ثم اتحدت النقابات المستقلة وأسست « التضامن » (Solidaridad) ، التي بلغ عدد أعضائها عشرة ملايين عضو ، أي ربع عدد سكان بولندة . وقد أطلق سراح المنشقين من لجنة الدفاع الاجتماعية . واستخدم العمال ، ومثلهم كل الشعب ، الحقوق الديموقراطية الجديدة باندفاع كبير وغير حذر في آن واحد .

ومعروف أن الحرية عملية تعلم بطيئة وصعبة ولكن العمال ، بالرغم من بعض المزايدات الكلامية والخطابية ، لم يتعسفوا إطلاقا . وقد تغلغل الاضطراب في صفوف الحزب الشيوعي البولندي . وثمة سببان يفسران هذه العدوى ، أولهما : التناقض المفتوح بين الإيديولوجية العمالية للنظام والوضع الواقعي للعمال ، وثانيهما : الشعور الوطني الحي دائما .

وقد ترك الحزب حوالي مليون شخص ، وبعض الأعضاء فضلوا أن يظلوا به وحاولوا القيام بإصلاح داخلي . وقد فشلوا في ذلك لكنهم استطاعوا أن يطهروا اللجنة المركزية من أغلبية البيروقراطيين القدامى ، باستثناء كانيا Kania والجنرال زاروسلسكي Jaruselski .

وقد نظر القادة الروس لكل هذه التغييرات بنظرة اختلطت فيها الدهشة بالاستياء . وفي كثير من المرات استدعي كانيا والقادة البولنديون الآخرون إلى موسكو لإعطاء تفسيرات والحصول على تعليمات . وأرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي خطابا تهديديا لحكومة بولندة يقول : « إن حملة القوى المعادية للاشتراكية تهدد مجموعتنا ، وحدودنا وأمننا المشترك » . وفي ديسمبر اجتمع في موسكو قادة الدول الأعضاء في حزب وارسو وكرروا بلهجة تهديدية أن « بولندة كانت ومازالت وستظل اشتراكية » . وفي أغسطس عام ١٩٨١ حضر إلى العاصمة البولندية الماريشال الروسي كولينوف Kulinov قائد قوات حلف وارسو . وفي ذلك اليوم نفسه اجتمع كانيا ورئيس الوزراء البولندي الجنرال زاروسلسكي Jaruselski في موسكو من جديد مع بريجنيف Brejniv . وفي سبتمبر أرسل تهديد علني جديد من الكرملين للحكومة والحزب البولنديين . وفي نهاية أكتوبر — قبل وقوع الانقلاب العسكري بشهر ونصف — قامت القوات الروسية — البولندية بمناورات عسكرية داخل حدود بولندة نفسها ، وعرض التليفزيون صور الدبابات تتقدم في أرض المناورات .

وبينما كانت الحكومة الروسية وحلفاؤها يضاعفون من تهديداتهم ويحشدون قواتهم على الحدود كانت الحركة الشعبية البولندية تزيد اتساعا وعمقا . وبدأت تطبع مجلات مستقلة ، متخطية كل أنواع العقبات . وأصدرت نقابة « تضامن » نشرة أسبوعية عرضت فيها امتيازات الطبقة الحاكمة الشيوعية . كما صدرت مجلة أسبوعية كاثوليكية كان توزيعها — نصف مليون عدد — ضعف توزيع المجلة الرسمية للحزب الشيوعي . وقام الشاعر ميلوز Milosz بزيارة لبلاده ، وهو منفي من بولندة منذ عام ١٩٥٣ . وصور المخرج السينمائي أندريه واخدا André Wajda فيلما عنوانه « رجل من حديد » ، يقوم على إضرابات جدانسك Gdansk ولم تفتح الحكومة قنوات التليفزيون لنقابة « تضامن » ، لكنها سمحت بإذاعة الصلوات الدينية بالراديو . وقد اتحد الفلاحون وشكلوا تجمعا يشبه « تضامن » . وقلدهم الطلاب وطالبوا بأن تصبح دروس الماركسية واللغة الروسية غير إجبارية .

أما الكنيسة فكانت قوة معتدلة . ففي خلال عام ١٩٨١ قام فاليسا بزيارة البابا ، الذي بارك كفاحه ، وطلب منه الحذر . ولم يؤد موت الكاردينال ويسينكي Wyzsynki إلى فتور العلاقات بين « تضامن » والكنيسة . فقد اجتمع واليسا والقادة الآخرون مرات عديدة مع الكاردينال الجديد جوزيف جليم Josef Glemp . كان حذر الكنيسة يتناقض مع راديكالية بعض قطاعات « تضامن » ، ففي اجتماع مؤتمر تضامن ، في سبتمبر ١٩٨١ صدر نداء لعمال البلاد الاشتراكية بأن يقوموا هم أيضا بتشكيل نقابات مستقلة . وهو قرار لا غبار عليه لكنه لا يتسم بالحذر . كما كان كذلك القرار المتعلق بقيام العمال بإدارة المصانع بدون تدخل بيروقراطية الدولة . وبالإضافة إلى الصعوبات الفنية في التطبيق فإن اقتراح إجراء من هذا النوع يجرح الطبقة الحاكمة في الصميم . وقد حاول واليسا بواقعيته تلطيف هذا القرار . ومع ذلك لم تكن هذه القرارات — التي تمثل مطالب ويوتوبيات — هي التي أدت إلى حدوث القمع ، كان القمع نتيجة لخوف الطبقة الحاكمة ، التي رأت مصالحها مهددة ، والتي لا ترغب في أن يشاركها أحد ، احتكار السياسة والاقتصاد . إنه خوف الطبقة الحاكمة وضغوط موسكو .

وفي ١٨ أكتوبر عام ١٩٨١ ، أقيل كانيا . وعين الجنرال زاروسلسكي سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي البولندي . وتجمع في شخصه ثلاث رئاسات : رئاسة الحزب ، ورئاسة الحكومة ، ورئاسة الجيش . وكان هذه أول مرة يتولى فيها رجل عسكري الإدارة السياسية

في بلد شيوعي . وهذه علامة على خطورة الأزمة ، وعلى التفكك الإيديولوجي للنظام الشيوعي . وزاروسلسكي عسكري سياسي ، فهو منذ عشر سنوات عضو في اللجنة المركزية للحزب البولندي . وفي البداية بدا وكأنه يتجه لإقامة تحالف بين الحزب ، والكنيسة و« تضامن » . وهو اتحاد ضد الطبيعة ، سواء لاختلاف طابع كل من هذه النظم الثلاثة ، أم لأنه لا يمكن أن يحوز موافقة موسكو .

والحق أن هذه المحاولة كانت مجرد كسب لبعض الوقت ، في انتظار أي ذريعة للقيام بانقلاب . وجاءت هذه الذريعة من متطرفي « تضامن » . فقد اجتمعوا في جدانسك في ١٢ ديسمبر ، رغم معارضة واليسا ، وتوصلوا إلى توصية تطالب بإجراء استفتاء لتقرير ماإذا كان الشعب يوافق على سيطرة الحزب الشيوعي أم لا ، وهل يجب أن يستمر التحالف العسكري مع الاتحاد السوفيتي أم لا ، كان معهم حق لكنهم لم يكونوا حذرين . فقد نسوا دروس هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا . وفي اليوم نفسه ، ١٢ ديسمبر ، قطعت القوة العامة الاتصالات مع الخارج ، واحتلت فقرات « تضامن » ، واعتقلت قادتها .

وفي ١٣ ديسمبر صدر القانون العسكري . وخلال أسبوعين قضى الجيش على مراكز الاضطراب . ومن المعلوم أن أناسا كثيرين قتلوا ، وأسر آلاف آخرون ، وإن كانت الأرقام الحقيقية مجهولة . وبذلك تكون الديموقراطية البولندية الوليدة قد وئدت عام ١٩٨١ مثلما حدث في عام ١٧٩١ . والقتلة هم أنفسهم منذ حوالي قرنين : القوة الإمبريالية الروسية وشركاؤها البولنديون .

وبالرغم من أنه من المستحيل التنبؤ بما سوف يحدث في المستقبل القريب ، فإنه يمكن تعداد بعض الدروس التاريخية والسياسية التي أعطتها لنا الحركة العمالية في بولندة . وأولها يتمثل فيما يلي : إن النقابات البولندية الحرة قد برهنت مرة أخرى ، بدون أدنى شك ، على أن صراع الطبقات ــ هذا المفهوم الذي يستخدمه كثيرا ويلوكه كثيرا أساتذة الماركسية ــ اللينينية ــ هو حقيقة تعلن عن نفسها بشكل

حاد وبائس هناك بالتحديد في المكان نفسه الذي كان يزعم أنها اختفت ، أي في البلاد التي تسمى « اشتراكية » . فالعمال البولنديون يكافحون من أجل حقوق حصل عليها كل عمال العالم تقريبا منذ حوالي قرن .

وفي الوقت نفسه فإن الحركة النقابية في بولندة تتخطى إطار صراع الطبقات ، فبدون ديموقراطية ، لا يستطيع العمال — سواء في تشيكوسلوفاكيا أو في الأرجنتين أو في شيلي أو في بلغاريا — أن ينظموا أنفسهم أو يدافعوا عن أنفسهم . فضلا عن أن الديموقراطية لا تقتصر على مجموعة أو على طبقة ، فالديموقراطية نظام حريات وواجبات سياسية للجميع ؛ ومن ثم فإن كفاح العمال من أجل حقوقهم الطبقية هو كفاح الأمة كلها من أجل الحريات الجماعية . وهذا هو الدرس الثاني . أما الدرس الثالث فهو أن الشعب البولندي لا يواجه سلطة البيروقراطية المحلية فقط وإنما يواجه السيطرة الأجنبية ، فالمعركة من أجل الديموقراطية هي أيضا معركة من أجل الاستقلال الوطني . وأخيرا ، فإن البولنديين لا يدافعون فقط عن ديموقراطية بلدهم واستقلاله ، وإنما يدافعون أيضا عن الثقافة الوطنية ، التي هي في مثل حالتهم لا تنفصل عن التراث الشعبي الكاثوليكي .

ومن أعاجيب السنوات الحالية أن نشاهد المضربين الذين كانوا يقومون بحراسة أبواب مصنع لينين يحملون راية عليها صورة البابا . وثمة درس رابع وهو أن الأمة ليست مفهوما سياسيا فقط وإنما ثقافي أيضا . فالأمة هي اللغة ، والمعتقدات ، والتاريخ ، والثقافة . وكفاح البولنديين يمكن تلخيصه ، مثل كفاح كل الشعوب ، في جملة واحدة هي « يكافحون من أجل حقهم في أن يكونوا كما هم » .

وأول مشكلة كبيرة بين النظام البلشفي والطبقة العمالية حدثت تقريبا مع مولد الدولة البيروقراطية . ففي عام ١٩١٧ استولى البلشفيون على السلطة في روسيا . وفي عام ١٩١٨ أنشىء الشيكا Cheka ، البوليس السياسي ، وفي هذا العام نفسه بدأ إلغاء الحريات الأساسية . وفي عام ١٩٢٠ تم إخضاع النقابات العمالية . وبعده بعام (١٩٢٠) حُلت الحركة المسماة باسم « المعارضة العمالية » ، وتم القضاء على عمال مناجم كرونستاد Cronstadt بالمدافع والرشاشات . فماذا كان يريد أولئك العمال ؟ إنني أنقل بعض طلباتهم :

١ ــ بما أن النقابات الحالية لا تعبر عن إرادة العمال والفلاحين ، نطالب بأن تجري فورا انتخابات في النقابات ، من خلال الاقتراع السري وحرية الدعاية .

٢ ــ نطالب بحرية الكلمة والصحافة للعمال والفلاحين ، والفوضويين وأحزاب اليسار .

٣ ــ حرية الاجتماع والتنظيم النقابي .

٤ ــ الإفراج عن السجناء السياسيين من الأحزاب الاشتراكية .

٥ ــ انتخاب لجنة تراجع حالات كل المعتقلين في السجون وفي معسكرات الاعتقال .

ولم تكن مطالب عمال المناجم الروس عام ١٩٢١ مختلفة كثيرا عن مطالب العمال البولنديين عام ١٩٨٠ . فلماذا ينظر إلى هذه المطالب على أنها قلب للنظام ؟ ففي البلاد الاشتراكية لم تنتخب الحكومات بالتصويت السري الحر من قِبل الشعوب . وشرعيتها تكمن في اصطناع مايسمى « دكتاتورية البروليتاريا » : فهذه الحكومات إذن تمارس السلطة بصفتها ممثلة عن البروليتاريا .

ومن ثم فإن أي إضراب يتخذ فورا صفة محاولة قلب النظام ، لأنه يشكك في شرعية النظام ، عندما يوضح أن صيغة « دكتاتورية البروليتاريا » ماهي إلا مغالطة غليظة ؛ ذلك أن العمل النقابي الحر ينتزع قناع البيروقراطية . وقد أطلقت على هذه المغالطة صفة « غليظة » ، بالرغم من أنها عند عدة أجيال من مثقفي الغرب وأمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا ، تبدو وكأنها الحقيقة نفسها ، وهذه هي أكبر فضيحة أخلاقية وثقافية في عصرنا .

هنغاريا عام ١٩٥٦ ، وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ، وبولندة عام ١٩٨١ ، هذه الانتفاضات الشعبية شبه المنتظمة تهز أركان نظام السيطرة البيروقراطية . وفي كل الأحوال يلاحظ وجود شيئين مشتركين ، بصرف النظر عن الفروق الطبيعية .

أولهما : إنها انتفاضات ضد نظام اختلس اسم الاشتراكية .

وثانيهما : إنها انتفاضات ضد نظام فرضته قوة أجنبية عن طريق القوة . إنها عملية تمرد ديموقراطية وعمليات بعث قومية . وقد أدانت البلاد التي تعيش خارج

دائرة النظام الإمبريالي الروسي ، وبالأخص أمم الغرب الغنية القوية ، أكثر من مرة عمليات القمع التي جاءت في أعقاب الانتفاضات الشعبية .

وفي أكثر من مرة ، وإن كانت كل مرة بأقل اقتناعا من سابقتها ، لوحت بلاد الغرب بشبح إنزال العقوبات . وفي كل مرة يتخلون عن هذه العقوبات بعد وقت قصير ويستمرون في مفاوضاتهم مع الظالمين . وفي المرة الأخيرة رفضت الحكومات الأوروبية فرض عقوبات على المسئول الرئيسي عن الجريمة وهو الحكومة السوفيتية . كما أن الولايات المتحدة مازالت تبيع لها القمح . إن أمم الغرب الغنية قد أفسدتها اللذة وعبادة المال . فخلال سنوات طويلة ظلوا يهزون أكتفاهم أمام مصير الملايين في البلاد الفقيرة والمتخلفة ، والآن نجدهم وقد سممتهم الأنانية الانتحارية التي تلبس قناع السلام . أليس ثمة مخرج ؟ لعله ليس من الواقعية تأكيد ذلك . فدائرة الانتفاضات في الإمبراطورية الروسية لم تقفل .

وحركة العمال المسحوقين عام ١٩٨١ كانت فصلا ــ وإن كان رئيسيا ــ في تاريخ معارك الشعوب ضد السيطرة البيروقراطية . فهناك البولنديون ، والتشيكيون ، والهنغاريون ، والرومان ، والبلغاريون ، والكوبيون ، والفيتناميون ، والكمبوديون ، والأفغان ، والأمم المختلفة داخل الإمبراطورية مثل الأوكرانيين ، واللتوان ، والتتار وآخرين غيرهم ، دون أن ننسى الروس أنفسهم .. القائمة طويلة . والتاريخ أيضا طويل : إنه في حجم الزمن .

□ □ □

محتويات الكتاب

الجزء الثاني (الأيام الجارية) :

□ □ □

رقم الإيداع	٨٥٩٠ / ٨٨
الترقيم الدولى	٨ ــ ١٦ ــ ١٤٥٥ ــ ٩٧٧



دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر (ش.م.م)



أوكتافيو باث هو - فى الأعوام العشرة الأخيرة - من أبرز المرشحين لجائزة نوبل. ولد بالمكسيك عام ١٩١٤، يعد كاتباً متعدد الوجوه، فهو شاعر مبرز، وناقد حصيف واسع الأفق، ومفكر كبير، ومحلل سياسى واجتماعى.. نافذ النظر وصحفى بارع. أى أنه كاتب موسوعى قلما نجد نظيراً له فى النصف الثانى من القرن العشرين الذى طلعت فيه موجة التخصص.

وهذا الكتاب تحليل نافذ لأوضاع العالم المعاصر من وجهة نظر كاتب مستقل يعتمد فى تحليله على الأصول الفكرية والأنثروبولوجية والحضارية للأوضاع التى يعيشها عالم اليوم، حيث يسود منطق السيطرة والهيمنة من جانب القوتين العظميين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، وحيث يعيش العالم الأوروبى مرحلة الإرهاب التى جاءت بديلا لمراحل نقد الذات وتألق المذاهب الفكرية الكبرى.

أما بلاد العالم الثالث - ومن بينها أمريكا اللاتينية التى ينسب إليها الكاتب - فأكثرها تقدما يعيش واقع الحداثة المتناقضة، حيث يتعايش الحمار والطائرة، والأميون وشعراء الطليعة والأكواخ ومصانع الصلب. وكل هذه التناقضات تفضى إلى تناقض خطير رصده أوكتافيو باث فى بلاد أمريكا اللاتينية هو أن المؤسسات فى كثير من هذه البلاد ديموقراطية لكن الواقع الفعلى المستشرى فى كل مكان هو الدكتاتورية.